موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

3



موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

ديانات المجتمع المصري القديم

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثالث

ديانات المجتمع المصريّ القديم

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	: موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	: دِيانَات المجتَمع المَصري القَديم
الجِزء	: الثَّالِث
المؤلِّف	: مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفَرِّج
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	: بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٥٨١١٢١ ـ ١ ـ ٩٦١
	: ٥٨١١٢١ ـ ٣ ـ ٩٦١

المحتويات

الفصلُ الأوَّل

الدِّيَانَةُ المصريَّةُ القديمَةُ وخصَائصُها

الفَصلُ الثَّاني

الأساطيرُ والعِبَادَة والمعَابدُ

الفَصلُ الثَّالِث

التَّعاطي مَع مسألَة المَوت

الفَصلُ الرَّابع

الثَّورَةُ الدِّينيَّة وتَدَاعِيَاتُها

الفَصلُ الخَامِس

تَصدِيرُ الدِّيانَة المَصريَّة القَديمَة

الفَصلُ الأوَّل

الدِّيَانَة المصريَّة القدِيمَة وخصَائصُها

لَمحَة تَاريخيَّة؛ خصَائصُ الدِّيَانَاتِ المَصريَّة القَديمَة؛ الآلهَـة المحليَّة؛ آلهَة منـف؛

آلهَـــة هِليُوبُولِس؛ آلهَة طيبَة؛ آلهـــة الأشمُونِين؛ قصَّـة الحَياة؛ الآلهَـة الكونيَّة؛

الإلَـه حوريس؛ إلاهات السماء؛ الآلهـات اللبوءَات؛ الإلـه آمـون؛ الإله مين؛ الإلـه سِـت؛

الإلـه تحوت؛ الإلَـه أوزيريس؛ تأليـهُ الحيوان؛ الإلَـه سُوبِـك؛

آلهَـة على أشكَـال ابنِ أوى والكَبش والتَّيس؛ آلهَـة صُغرَى؛ الآلهـة الشعبيَّة؛

الآلهَـة المُستَعارة؛ الآلهَـة الأشجَار؛ التَّاسوعَات والثَّالوثَات.

لَمحَة تاريخيّة

منذ القديم، سكن البلاد المصريّة جنس بشريّ جمع بين الإرثَين الحاميّ والساميّ، وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه إلاّ أثر ضعيف من الجنس الزنجيّ. هذا الجنس البشريّ استطاع أن يكوّن له حضارة تُعدّ من أقدم الحضارات التي يمتدّ تاريخها إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وفي هذا المجتمع المصريّ العريق، عُرفت وحدة الانتاج الزراعيّ باسم "المشترك القرويّ" الذي كان يضمّ عددًا من الأسر. وكان الفلاّح الذي يعمل ولا يملك يشكّل محور العمليّة الانتاجيّة، في حين كان المالك هو شيخ القرية ومدير شؤونها. ومع مرور الزمن، ولمّا قامت الدولة المركزيّة القويّة، تحوّلت إلى مالك فعليّ للأرض على اتّساع رقعة البلاد، يحكمها حاكم فرد (فرعون، ملك، حاكم، والي، موظّف...) تساعده فئة من الموظّفين، مهمّتها إنشاء السدود والأقنية للريّ، وتنظيم الزراعة، وحفظ الأمن في الداخل، والدفاع عن حدود البلاد ضدّ الاعتداءات الخارجيّة...ولطالما نشبت في المجتمع المصريّ، نتيجة التغيّرات التي تصيب المُلكيّة، انتفاضات فلاّحيّة وثورات اجتماعيّة غالبًا ما كانت تؤول إلى الفشل، وبالتالي تتفشّى ظاهرة النزوح القسريّ للفلاّحين عن قراهم. والمجتمع المصريّ كان منقسمًا إلى طبقتَين اجتماعيّتَين: طبقة الحاكمين، وتضمّ الملك (الفرعون) ونوّابه، وكبار الموظّفين من مدنيّين وعسكريّين... وطبقة المحكومين، وتتمثّل بالفلاّحين والرعاة والصيّادين... ولقد كانت هذه الأخيرة موضع استغلال بالغ الشدّة. وفي ما بعد، وعلى أثر ضعف السلطة المركزيّة، برزت من صفوف الموظّفين فئة من أصحاب الملكيّات الكبرى

(إقطاعيّين) ما أحدث تبدّلاً أو انقلابًا، أدّى بدوره إلى انفجار الصراعات الاجتماعيّة داخل المجتمع المصريّ القديم. وانتهى الأمر إلى أن يصبح للفرعون وظيفة دينيّة، لتقوية موقعه السياسيّ الضعيف، وأصبحت الديانة دينًا مركزيًّا للدولة ومؤسّسة فكريّة وُظّفت للمحافظة على تماسك المجتمع المصريّ، وأحيانًا لتوحيد البلاد ضدّ الغزاة. وأصبح الكهنة جزءًا مهمًّا من أجهزة الدولة، وتسلّم بعضهم مقاليد الحكم في مصر القديمة. وفي العهدَين البطليميّ[1] والرومانيّ، طرأ بعض التغيير في نمط الإنتاج السائد، إذ ازدهرت التجارة ازدهارًا كبيرًا، وقامت الملكيّات الكبيرة في الريف. لكنّ هذا التغيير لم يؤدّ إلى تصفية ذلك النمط، إذ استمرّت الأرض، في غالبيّتها، تؤول في النهاية إلى ملكيّة الدولة[2].

على الصعيد السياسيّ، توالى على حكم مصر ثلاثون أسرة، توزّعت على أربعة أدوار هي: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، ثمّ عهد الإنحطاط. وتبدأ الدولة القديمة بتوحيد البلاد في حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. على يد الفرعون "مينا". وقد شهدت مرحلة من الازدهار، واشتهرت ببناء أهرامات خوفو، وخفرع، ومنكورع، وبعلاقاتها التجاريّة خاصّة مع فينيقية، وكانت عاصمتها مدينة تنيس؛ وفي أواخر هذا العهد حصلت ثورات سياسيّة واجتماعيّة أدّت إلى تفكّك الدولة، لكنّ ملوك الدولة الوسطى أعادوا للبلاد وحدتها وازدهارها، واتّخذوا لهم مدينة "طيبة" عاصمة. ولم يدم الازدهار طويلاً في عهد الدولة الوسطى بسبب احتلال الهكسوس لمصر، وحكمها أكثر من قرن ونصف القرن؛ ومع عهد الدولة الحديثة، بلغت مصر مرحلة من القوّة

---

١ ـ نسبة إلى بطليمُس PTOLÉMÉ: إسم أُطلق على ملوك مصر الهلّنستيّين المتأخّرين خلفاء بطليمُس المعروفين بالبطالسة أو اللاجيّين (٣٠٦ ـ ٣٠ق.م.) وعددهم ٦٦.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، جرّوس برس (طرابلس ـ لبنان، ١٩٩٣) ص٢٠ ـ ٢٢.

والاتّساع، بحيث أصبحت أمبراطوريّة امتدّت حتّى الفرات شرقًا. وفي هذا العهد قامت ثورة أخناتون، كمحاولة لعبادة الإله الواحد آتون: قرص الشمس، واتّخذ له عاصمة جديدة في تلّ العمارنة، لكنّ محاولته فشلت بسبب قيام الكهنة عليه. وبعد الفرعون رعمسيس الثاني (نحو ١٣٠١ ـ ١٢٣٥ق.م.) ضعفت مصر، وتقلّصت سلطة الملوك، واستقلّ الحكّام بمقاطعاتهم، وغزت البلاد شعوبٌ غريبة وحكمتها كالليبيّين والأثيوبيّين والفرس. وهكذا فقدت مصر استقلالها، ثمّ تمّ فتحها على يد الإسكندر المقدونيّ في سنة ٣٣٢ ق.م.، وإليه يُعزى بناء مدينة الإسكندريّة[١] التي ستلعب دورًا هامًّا في ما بعد. ولمّا توفّي الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م.، اقتسم قوّاده الثلاثة الأمبراطوريّة الواسعة في ما بينهم، فآلت أمور مصر إلى بطليمُس الذي أرسى قواعد مملكة البطالسة التي امتدّ عهدها إلى سنة ٣٠ ق.م. حين غزا أغسطس مصر بعد انتحار كليوباترا وأصبحت مصر جزءًا من الأمبراطوريّة الرومانيّة الواسعة. وقد دعا المؤرّخون العصر الذي بدأه الإسكندر المقدونيّ وانتهى عام ٣٠ ق.م. بالعصر الهلّينيّ أو الإغريقيّ، إذ شيّد البطالسة في مصر أسس دولتهم على نظام إغريقيّ بحت، فاستعانوا بالإغريق دون غيرهم لتدعيم حضارتهم، واعتبروا لغتهم لغة البلاد الرسميّة، مع انتشار اللغة اللاتينيّة في بعض الحواضر الفكريّة كالإسكندريّة. ورغم أنّ مصر قد أصبحت بحضارتها آنذاك تمثّل ذروة الحضارة الإغريقيّة، فإنّ المصريّين، سكّان البلاد الأصليّين، احتفظوا

---

١ ـ أسّس الإسكندر الكبير مدينة الإسكندريّة سنة ٣٣٢ ق.م. كمرفأ تجاريّ، وزيّنها بالمباني والقصور الفخمة والشوارع المتّسعة والبساتين الجميلة، وكانت الإسكندريّة "درّة البحر الأبيض المتوسّط"، فجذبت أنظار العالم، واستوطنها عدد كبير من اليونانيّين واليهود، فصارت الإسكندريّة ملتقى العروق والثقافات والأديان في حضارة هلّينيّة قائمة على اللغة اليونانيّة. وسرعان ما انتشرت فيها المتاحف والمدارس الفلسفيّة والسيرابيون والمكتبات الشهيرة بفضل فيلون الشهير الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والتوراة، وهنا ستؤسّس المدرسة التعليميّة المسيحيّة الشهيرة وتُسمّى "الديدَسْكاليون" لإعداد الموعوظين للعماد والتي سيكون لها شأن كبير في ما بعد.

بطـابعهم الحضـاريّ المميّز. ولمّـا انتقـل الحكم مـن البطالسـة إلـى الرومـان، حـاول الأخيرون اقتباس الحضارة الإغريقيّة، ووضعوا عدّة تشريعات ماليّة واجتماعيّة ودينيّـة وسياسيّة، وقف منها المصريّون مواقف سلبيّة، تحولت إلى اضطرابـات سـادها العنـف خلال القرنَين الأول والثاني للميلاد[1].

---

١ ـ زخّور، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٠ ـ ٢٤.

خصائصُ الدِّيانَاتِ المَصريَّةِ القَديمَة

تتميّز الديانات المصريّة القديمة عن سواها من المعتقدات القديمة لسائر الشعوب، بأنّه يمكن تتبّع حلقات تطورّها المتّصلة، منذ نشأتها البدائيّة في العصور السحيقة، حين تخيّل الإنسان الإله ماردًا أو كائنًا، حتّى ذلك التاريخ الذي بدأ الإنسان فيه إدراك الصلاة الروحيّة بينه وبين الإله، فاعتمد عليه وجعله محطّ آماله، بل أحبّه وخشي بطشه ووعيده[1]. ويمكن تعقّب أصول الديانة المصريّة منذ حقبة مبكّرة قبل التاريخ تصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قبل الميلاد، عندما كان الاعتناءُ بدفن "الثور"، و "ابن آوى" وغيرهما من الحيوانات، أمورًا تدلّ على عبادة الحيوان. وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد تمّ إغلاق آخر معبد للإلهة إيزيس في جزيرة فيلة، ولذلك فإنّ الحقبة الزمنيّة التي استغرقتها الديانة المصريّة حقبة طويلة. ولقد كان "مينا" هو الذي أسّس أوّل دولة متّحدة مستقرّة تحت حكمه عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وظهر إبّان الدولة القديمة حوالى (٢٦٨٦ ـ ٢١٨١ ق.م) نظام ملكيّ مركزيّ قويّ عاصمته "ممفيس"، ثمّ أعقبها حقبة من التمزّق، وعندما عادت مصر المتّحدة مرّة أخرى في الدولة الوسطى حوالى (٢٠٥٠ ـ ١٧٨٦ ق.م) أصبحت عاصمتها طيبة في مصر العليا. وظلّت طيبة هي العاصمة حتّى عهد التوسّع الذي شهدته الدولة الحديثة، ثمّ حدث غزو وتسلّل من

---

١ ـ إرمان أدولف، ديانة مصر القديمة، نشأتها وتطوّرها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ود. محمّد أنور شكري، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٥) ص١٥.

سوريا وفلسطين على يد الشعب المعروف بـ "الهكسوس" الذي أدخل على الديانة المصريّة تأثيرات آسيويّة[1].

وقد بلغت هذه الديانة أوج مجدها وقداستها وتغلغلت في نفوس المصريّين القدماء، وعندما حاول الكهنة إدخال بعض الإصلاحات عليها، أخفقت المحاولة إخفاقًا ذريعًا. أعقب ذلك حقبة اضمحلال طويلة المدى، تخلّلتها بعض المحاولات للنهوض، ولكنّها انتهت جميعها إلى الزوال. تلك النهاية التي كان من أكبر عواملها التعصّب الشديد والإيغال في التقوى والورع من قِبَل المصريّ القديم.

تصوّر الشعب آلهته البدائيّة وجعل منها كائنات حيّة قدّسها بطرقه البدائيّة السانجة، ولمّا بنى ملوكه المعابد الضخمة لآلهته، أصبحت بعيدة غريبة عنه، فاستبدلها بأشياء أخرى قريبة منه من منطلق أنّه يكون بوسعها الإسراع إلى نجدته. وعندما أراد أحد ملوك مصر أن يقوم بمحاولة جريئة ليحرّر شعبه من تلك المعتقدات القديمة، برزت من وسط ذلك الخضمّ العظيم من التصوّرات المختلفة للحياة بعد الموت فكرة تُظهر لنا، أنّ ما يصيب الإنسان من عدالة، هو أهمّ وأعظم قدرًا عند المصريّ من تلك التعاويذ والطقوس الدينيّة. ومع أنّ الإنسان لم يرَ تلك القوى، إلاّ أنّه كان يعتقد في وجودها، وكوّن في مخيّلته صورًا لها، وأخذ يعطي كلاً منها شكلاً معيّنًا وإسمًا خاصًّا، بل أخذ يتمثّلها على طريقته الخاصّة، فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء، ومن البعض الآخر أعداء ألدّاء. فهو لا يعرف أشكالها وأماكنها، وأخذ يتصوّر الأشياء التي تُدخل السرور إلى نفسها كما عرف ما يثيرها، ويبذل الجهود لكي يرتّب أعماله طبقًا لتلك

---

١ ـ بارندر جفري، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتّاح إمام ومكاوي د. عبد الغفّار، مكتبة مدبولي، ط٢ (القاهرة،١٩٩٦) ص ٦٤.

الاعتبارات. وعندما وصل الإنسان المصريّ القديم إلى حضارة أكثر تقدمًا، أخذت أهدافه الدينيّة تسمو شيئًا فشيئًا، وتركّزت حول التعرّف على ما يحويه ذلك العالم البعيد عن حياته اليوميّة. فهو لم يعد يريد فقط أن يلجأ إلى سند يحميه، بل أراد أن يوجد لنفسه معبودًا إذا ما فكّر فيه سما بنفسه فوق كلّ ما ينتابه من اضطرابات مختلفة في حياته اليوميّة. ولقد دفعت الطبيعة البشريّة هذا الإنسان دائمًا إلى أن يخلق لنفسه معبودات أعطى لها أشكالاً مختلفة، مندفعًا في هذا المضمار اندفاعًا لا إراديًّا، بل كانت الصدفة وحدها هي التي شكّلت هذه الآلهة.

إتّخذت الديانة المصريّة القديمة لنفسها طابعًا يتّفق مع الحياة الهادئة والعمل المستمرّ الذي تحتّمه البيئة التي يعيش فيها المصريّ الذي تعوّد أن يزرع حبوبه ويربّي ماشيته، ويرى نيله يفيض كلّ عام على حقوله فيترك غرينه الذي يكسب الأرض خصوبة وحياة. وبجانب ذلك حوت مصر ظاهرة أخرى استرعت انتباه سكّانها، وهي ظاهرة الشمس التي تشرق فجأة من وراء جبال الصحراء، والتي كانت تُعتبر بمثابة الصديق لشعب مصر، فتغمره في أيّام الشتاء القارصة بالدفء، ولو أنّها كانت تأتيه بحرارة الصيف المحرقة. كذلك لاحظ النجوم التي تملأ ذلك الفضاء اللانهائيّ أثناء الليل، ومن بينها القمر الذي يتضاءل يومًا بعد يوم، ثمّ لا يلبث أن يختفي ثمّ يعود إلى الظهور، فيزداد حجمًا حتّى يكتمل. وكانت تنتاب مصر من حين إلى آخر بعض العواصف الشديدة مصحوبة بالصواعق، فترعد السماء وتبرق، وتنساب السحب في سرعة فائقة، وتبدو الشمس من بينها كما لو كانت هناك معارك عنيفة تحدث بين كائنات غريبة في السماء. ولم يكن من السهل ألاّ تثير كلّ هذه الظواهر اهتمام المصريّ في ذلك الزمن السحيق، فاعتقد أنّ كل تلك الكائنات ليست إلاّ آلهة كبرى، بل هي أكبر الآلهة التي تهيمن على العالم.

ورأى المصريّ أنّ تلك الآلهة بعيدة عنه كلّ البعد، وأنّ من الأفضل لديه أن يلجأ إلى آلهة أخرى أقلّ من تلك شأنًا لتساعده، ولقد وجد ضالّته بسهولة. فخيال المصريّ أوجد كثيرًا من الأشياء في كلّ مكان تحيط به في كلّ ساعة، من خصائصها إمّا أن تجعل الرعب في قلبه، أو تأخذه بجمالها. فكانت هناك الحيوانات التي تسكن نيله الفيّاض أو أرضه أو الصحراء التي تحيط بمصر، فمثلاً هناك التمساح والثعبان والأسد...، كما كانت تنبت على حدود الصحراء أشجار ترجع إلى العصور الأولى التي لا يتذكّرها ولا يعرف أيّ إنسان متى زُرعت أو من أين جاءت. ثمّ رأى أنواعًا كثيرة من الأحجار لها أشكال متباينة غريبة لا يمكن أن تنمّ إلا عن أنّها تحوي قوى سحريّة تدعو إلى القلق. هذه الكائنات التي كانت تعيش بجانب مساكن الإنسان كانت هي التي تسارع إلى نجدته إذا ما التجأ إليها عند الحاجة، كما كانت تنتقم لنفسها إذا ما أُسيئت معاملتها. وهكذا تشكّلت من تلك الكائنات عدّة آلهة أحاطت الإنسان المصريّ القديم ولعبت دورًا مهمًّا في حياته اليوميّة، ولو أنّها لم تسمُ في مكانتها عنده إلى مكانة تلك الآلهة العظمى التي تسكن السماء. وتعلّق الإنسان بهذه الآلهة الصغرى وتأثّرت بها حياة الأسرة سواء في القرية أو في الإقليم. وقد شبّه باحثون تلك المعتقدات الدينيّة بالأمراض المعدية، إذ إنّ تقديس بعض هذه الآلهة المحليّة انتشر بين الناس في أماكن بعيدة عن منشئها، ولا غرابة في ذلك، فمصر لا تشبه في طبيعتها أيّ بلد آخر، إذ إنّ في الاستطاعة اجتياز هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها بسفينة تعبر مياه النيل دون عائق. وإذا لم تساعد الظروف هذا أو ذاك المعبود على أن ينتقل من موطنه، فقد كانت هناك عادات وأفكار دينيّة تنتقل من موطنها وتنتشر في مواطن أخرى... وهكذا تكوّن في مصر كنز كبير من معتقدات دينيّة تنوّعت أفكارها وتعدّدت مذاهبها. فهناك من الآلهة ما عُبد في موطن واحد، وأخرى عُبدت في مواطن مختلفة. كما كانت هنالك

آلهة اختلفت أوصافها واتّحدت في شكلها، وكذلك آلهة اتّحدت في إسمها واتّخذت أشكالاً مختلفة. ومن الغريب أنّ الآلهة العظمى لم تنجُ من هذا الخلط. فعلى سبيل المثال كان هناك عقيدة صوّرت إلهًا على هيئة صقر يسكن السماء، عيناه هما الشمس والقمر، بينما هناك عقيدة أخرى صوّرت الشمس والقمر كنجمَين يتجوّلان في السماء داخل قارب صغير. ولعلّه يبدو، من خلال ذلك، أنّ الديانة المصريّة تحتوي على عقائد وأفكار لا تخلو من تناقض في بعض الأحيان. ولكنّ ذلك لا يرجع إلى طبيعة المصريّين، إنّما إلى أنّه تراث أجيال طويلة وعبادات مختلفة. وعلى أيّة حال فقد تصوّر المصريّون آلهتهم على شاكلتهم، عاشوا على الأرض وتعرّضوا فيها لِما تتعرّض له الحياة الإنسانيّة من أفراح وآلام، واعتورهم ما يعتري الإنسان من ضعف وموت. وكان لهم ما له من غرائز وشهوات. بيد أنّهم، إلى جانب ذلك، تمثّلوا الإله الأكبر أيًّا كان اسمه أو مكان عبادته، بإنّه الإله العظيم، القويّ، الطيّب، العادل، الرحيم. وبينما كان فرعون هو نفسه الإله من الناحية الرسميّة، فقد حظيت جماعة قليلة أخرى بهذه المنزلة، وكانوا محلّ التقدير والاحترام بعد موتهم اعترافًا بصفاتهم المميّزة. ومن خلال هذه العقيدة كانت النظرة إلى أمنحوتب المهندس اللامع الشهير للملك روسر في الأسرة الثالثة. كذلك كانت النظرة إلى أمنحوتب ابن جابو في الأسرة الثامنة عشرة. كما نجد أيضًا أنّ تقديس الموت في مرحلته الأخيرة أظهره، وعلى غير توقّع، إلهًا للطبّ ممّا وحّده بعد ذلك مع أسليبيوس اليونانيّ. كما كان هناك نوع آخر من الآلهة يختلف تمامًا يضمّ سلسلة من المعنويّات المجسّمة مثل "سيا" إله النهم، و"حو" إله الكلام، و"هايل" إله السحر[1].

---

١ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي (القاهرة، ١٩٩٥) ص٣٧ ـ ٣٨.

ومرّت السنون وتقدّمت مصر نحو الاتّحاد، وتكوّنت من مقاطعاتها المختلفة دولتان كبيرتان: إحداهما في الدلتا والأخرى في الصعيد. وحدث ذلك حوالى القرن الأربعين قبل الميلاد، وكان لكلّ من المملكتَين آلهتها التي تحميها. ولا بدّ أن تكون الحروب التي دارت بين المملكتَين هي التي دفعت الإله "حورس" حامي مصر السفلى لأن يمثّل جميع البلاد كرمز الملكيّة[1].

لقد بلغ عدد آلهة المصريّين الفعليّة حدًّا خرافيًّا، وامتزج بعضها ببعض، إلاّ أنّها لم تبلغ في تنافرها وتعارضها ذلك الحدّ الذي بلغته إلهة السماء أو إله الشمس. وكثيرًا ما يحدث أن يتعذَر على الباحث أن يفهم أيَّ الآلهة يعنون، أيقصدون الإله "سوكاريس" أم "أوزيريس"؟ هل هي الإلهة "ساخمت" أم هي "باستت"؟ أو هل هي الإلهة "حاتحور" أم "إزيس"؟... وعلى ذلك أصبح هناك أسماء وصور مختلفة تعني إلهًا واحدًا.

الآلهـــة المحليّـة

كان للظروف التاريخيّة والسياسيّة أثر واضح، بصفة مستمرّة، على الاتّجاهات الدينيّة في مصر. وإذا كان لمصر آلهةٌ محليّة منفصلة فذلك أمرٌ طبيعيّ في منطقة مثل المنطقة الواقعة جنوب الدلتا التي لم تكن سوى وادٍ طويلٍ لنهرٍ يمتدّ حوالى ألف كيلو متر. ومع التوحيد السياسيّ للبلاد، أصبح إله المدينة العاصمة، في الحال، قائدًا لجميع الآلهة، واتّجهت ديانته لاستيعاب الديانات الأخرى[2]. وهكذا نجد أنّه مع وجود ديانات أخرى كثيرة للصقر، فإنّ سيادة ديانة "حوريس" الإله الصقر الذي توحّد مع فرعون

---

١ ـ إرمان أدولف، ديانة مصر القديمة، ص١٥ ـ ٣٠.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٥.

الحيّ، تعني أنّ الديانة الملكيّة استوعبت الديانات الأخرى. فقد ظهر الإله حوريس في لوح "مينا" المبكّر، مصوّرًا انتصار مصر العليا على مصر السفلى بوصفه حدثًا تمّ بفضل الإله وبتوجيهِ منه، في ألواح مبكّرة بنظام يرجع إلى ما قبل التاريخ، ويشبه العبادة الطوطميّة TOTEMISM.[1]

ولقد تجنّب المصريّون، بطريقة غريزيّة، محو التراث المحليّ، حتّى ولو حدثت عمليّة تَمَثُّل لهذا التراث. ونتيجة ذلك أنّ أفكارهم الدينيّة تكشف عن بعض الخلط، بل عن بعض التناقض كما هي الحال في التصوّرات المختلفة لعمليّة الخلق، أو في المعتقدات الجنائزيّة. ويبدو هذا التطور في مرحلة تالية موحيًا بأنّ تنوّع المعتقدات كان إثراءً ودعمًا لمتطلّبات المرء الروحيّة. وهكذا فسّر "هنري فرانكفورت" هذا الاتّجاه تفسيرًا إيجابيًّا بأنّه يتضمّن "الاستمتاع بتعدّد السبل"، لكنّ السبب، من الناحية التاريخيّة، لهذا المجمع الهائل، هو المزج بين عددٍ كبيرٍ من العبادات، والتقاليد المحليّة المأثورة[2].

كانت هناك آلهة محليّة تتّصل بالعصور الحضاريّة الأولى. ولكن كيف كانت هذه الآلهة؟ إلى أيّ شيء كانت ترمز؟ وما هي مميّزاتها؟ فإنّ تتبّع هذه الآلهة، وعلى الأصحّ المعبودات المحليّة يحتاج أوّلاً إلى تعقّب تاريخيّ لِما كان يجري على أرض النيل منذ أكثر من خمسة آلاف سنة. والعقيدة المصريّة القديمة بشكل عام يمكن تعقّبها من أصولها البعيدة الممتدّة إلى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، حيث أظهرت الحفريّات والآثار كيف كانت بعض الحيوانات تعامَل وتُدفَن بتقديس كبير، يؤكّد على أنّ عبادة

---

١ ـ **الطوطم**: حيوان في الأعمّ الأغلب، وقد يكون نباتًا، يرتبط باسم العشيرة عند الشعوب البدائيّة ويُعتبر لحمه محرّمًا على أفرادها الذين يعتقدون أنّهم انحدروا منه ويحملون لذلك اسمه، ويُحرّم نظام الطواطم الصلات الجنسيّة بين أفراد الطواطم الواحدة لأنّهم إخوة وأخوات، لانحدارهم من طوطم واحد.

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٦.

الحيوانات كانت جزءًا من العقيدة المصريّة. ولماذا لا يحدث ذلك بينما كانت الظـروف الطبيعيّة السائدة في مصر تجعل للحيوان قيمة كبيرة عند المصريّ القديم منذ الأزمنـة الأولـى؟ لقد كـانت الطبيعـة المصريـّة غنيّـة بالمنـاقع والأحـراش حيث أفراس النهـر والتماسيح، وحيث الغزلان والأيائل في وديان الصحاري المحيطة بوادي النيل، وحيـث الظباء والثيران والسباع والذئاب... ولـم يكـن غريبًـا أن يـأنس المصريّـون، وهـم فـي حياتهم على أوثق اتّصـال بطبيعـة بلادهم، فـي بعـض الحيـوان والطـير مـن الصفـات والخصائص ما يثير شعورهم، فيقدّسوه، إمّا عن رهبـة وخشـية كـاللبؤة والتماسـيح، أو ابتغاء لخيره ونفعه كالبقرة والثور، أو لغرابة في طبعه ومظهره كـأبي منجـل والقـرد، أو لصفة ممتازة فيه كالصقر... ولكنّ كلّ هذه المعبودات لم تكن مهيّأة للتقديس في كلّ أنحاء مصر معًا. فقد كانت مصر قبل عهد الأسرات تنقسم إلى مقاطعات، لكلّ مقاطعـة أعلامها. ولكي تتميّز كلّ مقاطعة عن الأخرى كـان كلّ علـم يحمـل رمـز الحيـوان أو النبات الذي يميّزه عن غيره، وهي في مجموعها تمثّل أقدم الآلهـة. ومـن هنـا لـم تعد المقاطعات مقسّمة تقسيمًا إداريًّا فقط، بل تحوّلـت إلـى منـاطق ذات نفـوذ دينـيّ. وظـلّ سكّان كلّ مدينة مستقلّة يعتـبرون معبودهـم أعظـم الآلهـة وإليـه ينسـبون خلـق الكـون. وعندمـا قـام الاتّحـاد أصبـح إلـه العاصمـة الإلـه الرسـميّ للمقاطعـة. ولـم ترتـح المـدن المغلوبة على أمرها إلى ذلك فارتبطت آلهـة المقاطعـة بربـاط عـائليّ. ثـمّ بـدأ التوحيـد يحدث على نطاق أوسع بين المقاطعات جميعًا. وأصبحت لبعض هذه المعبودات صفـة "عالميّـة". وقـد أُظهـرت بعـض هـذه الآلهـة فـي صـور آدميّـة لتقريبهـا للأذهــان، وإن احتفظت برأس الحيوان أو برمز يذكّر بـأصل المعبود مثـل الإلـه "مـن" إلـه الخصـب. بينما أخذت آلهة أخرى صورة آدميّة خالصة عندما تكون شخصيّتها مجرّدة مثل "أتـوم" في هليوبوليس، و"آمون" في واسه وفي طيبة، و"بتاح في منف. ومن أبرز أمثلة الآلهـة

المحليّة التي تحولت إلى آلهة عالميّة، ارتفاع المعبود "حور" الحيوانيّ الأصل من صورة الصقر إلى مرتبة ملك السماء صاحب العينَين العظيمتَين: الشمس والقمر. وكانت مرحلة الانتقال معاصرة لانتصاره الحربيّ ممّا أدّى إلى ظهور "رع حوراختى" في ما بعد في هليوبوليس. أمّا في الجانب الآخر فقد توقّفت بعض الآلهة عن الصعود إلى سلّم الترقّي بسبب "عالميّة الوظيفة" مثل "خنوم" صانع الأواني الفخّاريّة والصور الآدميّة، و"تحوت" إله العلم، و"بتاح" إله الفنّ، و"سشات" إله الكتابة، و"حقات" حامية الحوامل[1].

بشكل عام، أخذت المعبودات، في معظم الحالات، الشكل الحيوانيّ، وقدّم الإله في صورة حيوان كامل كما هو الحال مع الإله العجل "أبيس"، أو كمخلوق له جسم الإنسان ورأس الحيوان. ويُعتبر هذا المزج بين الإنسان والحيوان تطوّرًا احتذاه قدماء المصريّين كحلّ وسط. وتتّضح هذه الأمثلة في أشكال الإله أنوبيس برأس ابن آوى، والصقر حورس، والكبش خنوم.. وتُعتبر العبادات الحيوانيّة في الواقع جزءًا أساسيًّا من الديانة المصريّة. كما تشير أيضًا إلى الحياة الجماعيّة في أفريقيا والتي نشأت في أودية الأنهار. وعديد من الآلهة الكونيّة أو الآلهة التي من صنع الإنسان نبعت من منطقة شرق الدلتا. ولكنّ هذا لا يمنع أنّ هناك ديانات أخرى كثيرة كانت تقدّس الحيوان أيضًا. لكنّ الأمر الجدير بالملاحظة في مصر هو أنّه كان هناك إحياء وامتداد للعبادات الحيوانيّة التي شهدتها الحقبة السابقة لعصر الأسرات. وإحدى هذه العبادات التي امتدّت واتّسعت هي عبادة العجل "أبيس" في ممفيس، والذي قُدّس في وقت مبكّر منذ الأسرة الأولى. وكان تقديس أبيس يصوّر تطوّرًا شعبيًّا إلى حدّ ما. وبعد البداية

---

١ - مظهر، قصة الديانات، ص ٣٥ - ٣٦.

الذاتيّة التي بدأها أبيس، فقد تمّ، بعد ذلك، ربطه بالآلهة الكبرى "رع" و"أوزيريس" كما رُبط أيضًا بالإله "بتاح" الإله الرئيسيّ لممفيس[1].

آلهَـــــة

مَنـــف

بقرب المكان الذي تشغله اليوم مدينة القاهرة، كانت في الماضي عاصمة البلاد "منف"، وتُسمّى أيضًا "منفيس" وهي تسمية ترجع للإغريق. وتُعتَبر من أقدم عواصم الدنيا، أسّسها الملك "مينا" واتّخذها عاصمة للمملكة المتّحدة القديمة، لم يبقَ منها اليوم غير أطلال من مختلف العصور حول قرية "ميت رهينة" بمحافظة الجيزة بالقاهرة. ثمّ انتظمت في المكان نفسه مدينة "أون" التي سمّاها الإغريق "هليوبوليس" القديمة المقدّسة.

أهمّ آلهة منف الذي حاز شهرة كبيرة وقدّسه معظم المصريّين هو الإله "بتاح PTHAH" الذي كان في أحيان أخرى يُسمّى "تاتنن". وكان يمثّل على شكل إنسان برأس عارية لا تحمل أيّة شارة خاصّة، واضعًا يديه فوق صدره وممسكًا بصولجان. ويعتقد باحثون أنّ هذه الصورة ترجع في أصلها إلى عصور غابرة ولو أنّها لا ترينا مطلقًا الأصل الذي يودّ المصريّ أن يُرجع هذه الصورة إليه. واعتقد المصريّون أنّ هذا الإله هو خالق الفنّانين وصانع الفخّارين. وعلى ذلك فهو المثل الأعلى للفنّانين وحامي حماهم وسيّدهم، وهو الذي سمّاه الإغريق باسم "هيفايستُس". وعلى ذلك فقد كان في اعتقادهم أنّه هو الذي خلق الدنيا. ثمّ تطوّر هذا الاعتقاد لاحقًا ورأوا فيه ذلك المحيط "نون" الذي منه خرجت جميع المخلوقات، فهو "أب لجميع الآلهة، الإله العظيم صاحب

---

١ ـ سليمان مظهر، قصّة الديانات، ص ٣٦ ـ ٣٧.

البداية الأولى، أوّل مَن كان وأوّل إله في الخليقة". وبذلك كان بمثابة الإله الذي عاش عصورًا لا حدّ لها، أو كما يقول المصريّ القديم: احتفل بعدد لا يُحصى من الأعياد الفضيّة. ومن أجل ذلك أصبحَ مثلاً يتشبّه به كلّ ملوك مصر الذين حكموها مددًا طويلة[1]. وتُنسب ثنائيّة الجنس، من حين لآخر، إلى الإله بتاح، وهو يُسمّى في آن واحد الأب والأم في "لاهوت منفيس"، أي "تعاليم منف الكهنوتيّة" التي اعتُبرت من أهمّ الوثائق التي حُفظت بين كنوز معبد منف آلافًا من السنين، وهي تبدأ بالحكمة التي تقول "إنّ بتاح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سُمّيت باسم بتاح، وقد أطلق عليها البشر أسماء أخرى". والوثيقة الرائعة التي حفظت هذه التعاليم، ترجع، برمتّها، إلى الدولة القديمة، وتقول الوثيقة إنّ خلق العالم خطّط له عقل الإله، وكانت وسيلة التنفيذ كلمة نطق بها ـ وهذا استباق مذهل لعقيدة الإغريق التي ظهرت بعد ذلك بحقبة طويلة حول الـ"لوغوس LOGOS" أو "الكلمة المقدّسة"[2].

وعندما جعلت تعاليم هليوبوليس الإله أتوم على رأس جميع الآلهة لم تستطع جارتها مدينة منف الأخذ بهذه الحقيقة، خاصّة لِما لإلهها "بتاح" من شهرة وتقديس بين أهلها، فخلق "بتاح" من نفسه ثمانية آلهة أخرى سمّيت باسم "بتاح" وذلك من أجل أن يكوّنوا مع بتاح الأصليّ تاسوعًا يعادل تاسوع هليوبوليس، وأطلق البشر على الثمانية آلهة أسماء أخرى، وأرجعوا كلّ آلهة مصر إلى "بتاح". وأطلقوا على الإلهَين الثاني والثالث من هذا التاسوع "بتاح ـ نون" المياه الأزليّة وزوجته "بتاح ناونت" وقد أنجبا الإله أتوم. ومعنى ذلك أنّ الإله أتوم، وهو أعظم آلهة هليوبوليس، قد أصبح أقلّ شأنًا

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٨.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٨.

من الإله بتاح. فكلّ ما اتّصف به أتوم من خصال استمدّها من بتاح، بل إنّ شفتَي أتوم وأسنانه التي تقل بها "شو" و"تفنوت" قد استعارها من بتاح؛ بل سلبوا أتوم من قدرته على أن يخلق ويبدع، إذ إنّ قلبه ولسانه ليسا إلاّ من بتاح. ومن هذا نرى بوضوح كيف أنّ القلب واللسان هما اللذان كانا يُخرجان كلّ شيء إلى الوجود: إذا ما رأت العين وسمعت الأذن ونشقت الأنف الهواء، بعثت هذه ما رأت وسمعت ونشقت إلى القلب الذي يبدأ في اتّخاذ قراراته، أمّا الإنسان فينطق بها. واعتُبر القلب واللسان للإله أتوم كطيفَين من أطياف بتاح عُرف الأول باسم تحوت والثاني باسم حوريس. ولقد خلق اللسان كلّ شيء حيّ بوساطة "الكلمة" التي خلقت كلّ قوى الحياة وكلّ ما يؤكل وكلّ ما يحبّه أو يكرهه الإنسان، كما أخرجت القوانين، فهي "التي أعطت الحياة لمَن يحبّ السلام والموت للأشقياء كما سبّبت نشأة الفنون"، أي كلّ عمل وكلّ فنّ تصنعه الأيدي، فإذا ما أمرت الملكة سعت الأقدام وتحركت الأعضاء. وخلاصة القول هو أنّ بتاح خالق أتوم بل خالق كلّ الآلهة "وسعد قلب بتاح بعد أن خلق الأشياء كلّها وخلق كلمة الإله". وهيمن بتاح أيضًا على الأرض "فقد كوّن الآلهة وشيّد المدن وأنشأ المديريّات ووضع الآلهة في معابدها وسمح للقرابين التي تقدّم لهم أن تتكاثر وتتزايد، كما زوّد مقاصيرها المقدّسة بمحتوياتها، ثمّ صنع لها أجسادها ليُسعد أفئدتها، ثمّ دخلت الآلهة إلى أجسادها التي صنعها من مختلف الأخشاب والأحجار والمعادن، وازدهرت المحصولات المختلفة وجمعت في صوامع الإله بتاح ـ تا ـ تنن، وهي تلك الأماكن الكبيرة التي أسعدت آلهة معبد بتاح". وهكذا كشف كهنة بتاح عن حكمتهم العميقة في كلمات رنّانة، إذ إنّ ما يصيبهم من نفع ماديّ في هذه الدنيا التي خلقها بتاح قد ادّخروه في أماكن أمينة. ولقد تأثّرت المعابد الأخرى بتعاليم منف، فسارع الكهنة في كلّ مكان وقالوا إنّ الآلهة التي تُعبد في المعابد هي أعضاء للإله الأول فيه سواء كان ذلك الإله

بتاح أو أمون أو رع ، كما جعلوا من تحوت القلب الذي يفكّر في كلّ شيء. ثمّ جعلوا "اللسان" بمثابة الناطق بما يجب أن يكون. ولقد ورد في نصّ حديث يرجع إلى العصر اليوناني أنّ هذه من بين التعاليم التي تنادي بها حكمة المصريّين: "القلب هو الذي يقود الجسد أمّا اللسان فيسمّونه مبدع الكائنات".

وفي الوثيقة نفسها التي هوّن فيها كهنة منف من الإله أتوم، نجدهم قد شرحوا موقفهم من إله آخر هو "أوزيريس"، ولو أنّهم لم يجسروا أن يجعلوا منه طيفًا من أطياف بتاح، إلاّ أنّهم جعلوا منه واحدًا ممّن يتكوّن منهم بلاط بتاح وأنّه، آخى الآلهة التابعة له، ولو أنّه ورد في نصّ أنّه قد خُلق من بتاح[١]، ثمّ جعلوا من منف الميدان الذي جرت فيه أهمّ الأحداث لهذا الإله. ففي منف توجّه أوزيريس إلى الدنيا السفلى، وكان ذلك بعد أن انتشلته أيدي إيزيس ونفتيس. وفي هذه المدينة أيضًا حاول "كب" أبو أوزيريس أن يُصلح بين "حوريس" و"ست" المتعاديَين، فأعطى للأوّل مصر السفلى وللثاني مصر العليا. وفي منفيس أعطى حوريس حفيده من ابنه الأوّل حكم البلاد بأجمعها. وهناك بعض التعاليم الخاصّة بمدينة الأشمونيّين ومدرستها الدينيّة تُعتبر أيضًا من تخريج منف، فلقد اعتُبر "تا ـ تنن" هو خالق الآلهة الثمانية الأولى فيها، وخالق البيضة التي انبثق منها إله الشمس، وبذلك أصبح بتاح والد آباء، أي جدّ كلّ الآلهة، وبدء كلّ ما كان في البداية، فهو صانع كلّ ما في الكون[٢].

وهناك إله آخر كان معبودًا في منف، هو "سوكاريس SOKARIS" الذي صُوّر على شكل آدميّ برأس صقر، واعتُبر إلهًا للموتى، وكانت منطقته المقدّسة تسمّى

---

١ ـ BERLINER INSCHIFTEN II: 149.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

"رستاو" أي باب الممرّات، ومن هذه التسميّة نتبيّن أنّهم يقصدون الدنيا السفلى. إلاّ أنّ الظروف لعبت في مصير هذا الإله فاندمج في جاره الكبير وأصبح يُسمّى "بتاح سوكاريس". وبعد ذلك عندما أصبح "أوزيريس" هو إله الموتى الوحيد سُمّي "سوكاريس" باسم آخر هو "أوزيريس سوكاريس"، كما سمّي أحياناً باسم "بتاح سوكاريس أوزيريس"[1].

وهناك إله صغير لا يمتّ إلى الآلهة الكبرى بصلة، هو الإله "أبيس"، العجل المقدّس الذي احتفظ به المصريّون في معبد بتاح دون علاقة بينهما. ولم يُعتبر أبيس كروح للإله بتاح إلاّ في عصر الدولة الحديثة. ومن الملاحظ أنّ الجمع بين إله وحيوان مقدّس في معبد واحد لم يكن كنتيجة لعقيدة، بل مجرّد مصادفة، ثمّ يتمّ بعد ذلك الجمع بين الإثنَين بشكل دينيّ بعد مرور حقب طويلة من الزمن، وبعد أن يعتاد الناس على الواقع. لذلك لم يتمتّع أبيس، في العصور القديمة، بعبادة ذات طقوس معيّنة يقوم بها كهنة خصوصيّون، فكانت مهمّة "خدم أبيس والعجل الأبيض" هي القيام على خدمتهما والعناية بهما. وكانت عادة إطلاق العجل أبيس للجري، من بين الطقوس القديمة التي وردت على "حجر بالرمو" من عصر الأسرة الأولى، وكان يحدث ذلك في الاحتفال الذي يعدو فيه الملك وبجانبه العجل أبيس، ولعلّ ما يُسمّى "إحتفال أبيس" هو هذا الإحتفال بعينه.

وهكذا يتّضح أنّ عبادة أبيس في منف، تعود إلى السلالة الأولى على أقلّ تحديد. وقد تمّ العثور على مدافن ثيران من هذه الفصيلة تعود إلى ما بين القرنَين الرابع عشر والأوّل قبل الميلاد. ففي معبد سيرابيس عُثر على أربعة وعشرين مدفناً تتوزّع في

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٨.

الزمن منذ رعمسيس الثاني حتّى العهد اليونانيّ[1]. ففي العصور الحديثة نسبيًّا أصبح لهذا الحيوان المقدّس عدد لا يُحصى من الأتباع[2].

آلهَــــــة

هِلِيُوبُولِيس

فاقت المدينة المقدّسة "أون" أهميّة مدينة "منف"، وهي التي تُسمّى أيضًا "هليوبوليس". وقد كانت عبادة الشمس في هليوبوليس ولا تزال هي ملحمة البناء. فكان يعبد فيها المصريّون منذ أقدم العصور الإله "رع"، الذي أقاموا له معبدًا ذا طابع خاصّ، إذ لم يكن في هذا المعبد صورة للإله، بل كان فيه حجر قديم مخروطيّ الشكل يُسمّى "بن بن"، يوضع في فناء مكشوف، وقد اعتقد المصريون أنّ الشمس يجب أن ترسل أشعّتها الأولى على هذا الحجر، وهو الذي تمّت محاكاته في ما يبدو، وإن لم تكن المحاكاة دقيقة، في بناء الأهرامات[3]. ولم يُعثر على معبد واحد من هذه المعابد، فقد اختفت كلّها، لكنّنا نستطيع أن نصوّرها إذا قارنّاها بمعابد الشمس التي شيّدها ملوك الأسرة الخامسة على نمطها. كما أنّ الناس صوّروا إله الشمس في هليوبوليس أيضًا على شكل آدميّ، كما هي الحال مع الآلهة الأخرى. وأحيانًا سُمّي هذا الشكل الآدميّ باسم "آتوم" الذي رأى فيه المصريّ شمس المساء، وتعني أيضًا كلمة "آتوم": "ذلك الذي انتهى من عمله اليوميّ". وأحيانًا سمّوه "حوريس الأفقين" أو "رع حور آختى"

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، تأليف: أندريه إيمار، وجانين أوبوايه، نقله إلى العربيّة: فريد م. داغر، وفؤاد ج. أبو ريحان، ساهم في الترجمة يوسف أسعد داغر، وأحمد عويدات، إشراف موريس كروزيه، منشورات عويدات، الطبعة الثانية (بيروت ـ باريس، ١٩٨٦) ١: ٨٧.

٢ ـ أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٩.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٢.

الإله العظيم الذي كان رأسه يمثّل صقرًا يعلوه قرص الشمس. فقد اندمج الإلهـان معًـا، وأصبحا كأنّهما إله واحد مع اختلاف في الشـكل. وكـان الكهنـة أثنـاء طقوسـهم الدينيّـة يتحدّثون عن "آتوم رع حور آختى" على حين نُقش فوق صورته في المعبد اسـمه "رع حور آختى" تمييزًا له عن الإله الآخر آتوم. ومـن الغريـب أنّ هـذا الإلـه سُمّي أيضًـا بأسماء إلهة الشمس الأخرى[1].

وقد صوّر باحثون محدثون[2] عبادة الإله رع في قلب هليوبوليس، حيث "كان يقبـع قصر فخم لم تعرف مصر قصـرًا مثلـه علـى الإطـلاق، أمـام أبوابـه تنتصـب مسـلاّت شامخة، وعمد ضخمة، وعلى جوانب ممرّاته تصطفّ تماثيل أسود وكباش، ترقب كـلّ زائر غريب، وتنحي كلّ مارد رجيم. أمّا القصر نفسه، فيموج بجموع هائلة من الخدم، كلّهم عيون مفتوحة وآذان مرهفة، في حراسة الإله الأكبر "رع" ربّ القصـر العظيم. وهنا، في هذا القصر، كانت تجري قصّة الحياة. يفتح "رع" إله الشـمس عينَيـه، فيـبزغ الفجر على الوجود. وينهض من فراشه ليدلف إلى الحمام يستحمّ بالمـاء البـارد، وتُقبـل عليه "أنوبيس ANUBIS" إلهة الندى، فتصبّ عليـه أباريقهـا الأربعـة الطـاهرة، وينطلـق "حورس" فيدلّك جسده. وينحني "توت" فيجفّف سـاقَيه. ومـا يكـاد الجميـع ينتهون حتّـى يرتدي الإله الأكبر ملابسه المتلألئة ذات البريق، وينطلق مـن أمامـه الرسـل يتسـابقون لإخلاء الطريق، ومن حوله جنود الموكب ينحنون حتّى تلامس جباههم غبـار الأرض. ويصل الإله إلى زورقه العلـويّ الراسـي علـى ضفّـة النهر، فيسـتقلّه منزلقًـا بـه علـى الأمواج، بلا مجذاف ولا شـراع ولا دفّـة، ويطلـع النهـار فيهتـف النـاس والآلهـة علـى

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٥٠ ـ ٥١.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٨ ـ ٣٤.

الضفّتَين: تباركت يا رع.. يا خالق السماوات والأرض.. يا مرسي الجبال وساقي البحار.. يا رسول الفرح والحرارة والضوء إلى أرض السلام. ومن الشرق تبدأ دورة كلّ يوم، لتنتهي بعد ذلك في الغرب، حيث يختفي موكب "رع" في ظلمات الأفق، فتظلم الأرض، وتضيء ظلمات العالم السفليّ.. إقليم الجحيم الرابض في الأعماق. وهناك، يستمرّ مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق واديًا يتفرّع إلى اثنَي عشر فرعًا، تفصل كلّ واحد منهما عن الآخر جدران هائلة ذات أبواب ضخام.. وتجري رحلة الليل كما تجري كلّ يوم. وتمرّ الساعات والإله لا يزال يسير، حتّى يلج الباب الذي يصل إلى حدائق "أيالو"، حيث يرقد رقدة قصيرة في قصره الكبير... ما أسرع ما ينهض بعدها ليبزغ الفجر، وتبدأ إشراقة يوم جديد.

"وكان كلّ الناس في هذا العالم الكبير، يسجدون لربّ النور كلّ صباح.. الربّ السخيّ على كلّ خلقه في هذه الأرض. فهو، طوال سيره، يصرّف كلّ أنواع الأعمال.. يقابل الخلق ويهديهم. ويقضي على شكاوى المظلومين. ويرفق بالمعذّبين فيزيل عنهم الأوجاع. ويعلّم الناس تعاويذ الوقاية من خطر الثعابين والحيّات. ويمنحهم الطلاسم التي تطرد كلّ شرّير من الأرواح. ولم يبخل "رع" أبدًا على الناس بما يحمل من تعاويذ وطلاسم لحمايتهم من الشرور. فهؤلاء الناس بعض خلقه.. هم مخلوقاته التي أخرجها من فمه عندما لم تكن سماء ولا أرض.. وكان خلقه لهم بصورة مخالفة لِما سبق أن صنعه هو نفسه من نفسه. ففي البدء لم يكن هناك غير محيط أزليّ مظلم.. هو "نون NUN"، المحيط الذي خرجت منه جميع الكائنات، برز منه إله الشمس بقدرة فيه.. وكان هو نفسه "رع"... تمامًا كما كان هو نفسه أيضًا الإله المبدئيّ "أتوم"[1]،

---

١ - أتوم ATUM: الحروف الأصليّة في كلمة "أتوم" تعني الإله الذي أتمّ نفسه بنفسه، أي أنّه خلق نفسه أوّلاً ثمّ خلق العالم. ومن صفاته "تلك الذي جاء للوجود من تلقاء ذاته".

الذي اتّحد في هويّة واحدة مع إله الشمس رع. وبقوّته المذكّرة، أو بقوّة الاستمناء الداخليّ، اعتلى "رع أتوم" حجرًا مدبّبًا من أعلاه يُسمّى "بن بن"، ثمّ خلق من نفسه وبطريقة مادّيّة، أي أنّه أنجب بغير زواج، أول زوج من الآلهة.. هما "شو" إله الهواء[1]، والإلهة "تفنت" إلهة الندى أو الرطوبة[2]"...

"كلّ ذلك كان البشر يعرفونه ويؤمنون به في مصر، وفي هليوبوليس بالذات، وكانوا يقولون إنّ "رع" حين خلق بقيّة الآلهة، كان يجلس عاليًا على "بن بن" في صورة طائر "الفينيكس" المعروف بروح "رع". كما كان يتّخذ لنفسه إحدى صور ثلاثة: فهو يظهر عند الفجر في صورة "جعران هو خبري"، وهو عند الظهر في صورة الشمس "رع"، وهو في نهاية اليوم في صورة الرجل المسنّ "آتوم". والناس يعرفون له أسماء أخرى كثيرة وأشكالاً أخرى عديدة، فهو خالق السماء وخالق الأرض، وهو شمس الصيف ووهج الظهيرة، هو النور والظلام، مرسي الجبال ومجرى البحار، هو مَن يتولّد الضياء من فتح عينَيه ومِن غمضهما يتولّد الليل. غير أنّه مع كلّ ذلك، كما يتصوّر المصريّون القدماء، تعرّض ذات يوم للهوان مع زوال قوّته وسريان دبيب الشيخوخة فيه، وأطلّ البشر من حولهم، فإذا إلههم هرم عاجز، شقيّ ساخط، لا يستطيع أن يفعل شيئًا بعد. وبدأت حركة العصيان البشريّ ضدّ "رع"، وبعد أن كان البشر يسجدون ويصلّون للإله العظيم، راحوا يسخرون ويضجّون

---

١ - شو SHU: تعني في اللغة المصريّة القديمة: الفضاء، وقد صوّرته اللغة، والفنّ، على أنّه رجل يقف فوق الأرض ويسند بيدَيه السماء.

٢ - تفنت TEFENET: هي زوجة الإله شو، عبدها المصريّون على شكل الأسد، تزوّجت شو في الدلتا، وشاركت تفنت زوجها أعباء مهمّته السلميّة في حمل الأفق، وهذان الإلهان خُلقا كما بطريقة البصق، ولا يزال المصريّون يستخدمون كلمة "تف" العاميّة بمعنى بصق.

ويتغامزون، ويهاجم بعضهم بعضًا من أجل الهزء بأبي الآلهة. واضطرب "رع" وشعر بالمهانة والخزيّ. وملأه غضب صاخب على جميع مخلوقاته فوق ظهر الأرض. وهتف ربّ الشمس في آلهة التاسوع الذين يحيطون بموكبه لإيقاف الفساد والشرّ على الأرض، وتشاور الآلهة، ثمّ أحنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين: ليعاقَب البشر دون محاكمة.. ولتكن "حاتحور"، عين "رع" الإلهيّة في صورة "سخمت" هي الجلاّد! وهكذا كان. وانقضّت "حاتحور" تلاحق البشر في كلّ مكان وتثخن فيهم طعنًا وتذبيحًا، تعذّب هنا وهناك وتذبح وتقتل وتعبّ الدم عبًّا انتقامًا لأبيها المقدّس ممَّن كانوا يفسدون. وعلت صرخات البشر ذليلة خانعة تطلب الغفران، ومن عليائه أطلّ "رع"، فإذا مصر كلّها أنهار من دماء، وصفوف طويلة من أجساد الأشقياء. وأغمض الإله الرحيم عينَيه. فما تصوّر قطّ أنّ "حاتحور" تفعل كلّ هذه الأفاعيل بالبشر الذين خلقتهم. وانفثأ غضب "رع" وأخذته بالناس شفقة عامرة رحيمة، وصاح في ابنته أن تكفّ عن القتل والتذبيح، لكنّها لم تهتمّ قطّ، وما سمعت له أبدًا. وكان الفتك والتقتيل وطوفان الدم بشعًا مخيفًا، ولم يكن بدّ من أن يسرع "رع" بإنهاء رحلة النهار، فهبط الليل، وسادت الظلمة، وتوقّفت شاربة الدماء عن الطواف المجتاح على أمل أن تستأنف في الصباح. وأطلّ "رع" حزينًا إلى شعبه المسكين وملأه الأسى. وهتف فيمَن حوله من أرباب السماء أن يأتوه سراعًا برسل حاذقين أسرع جريًا من الهواء. وعندما أتوا أمرَهم بالذهاب إلى جزيرة "فيلة" وإحضار كميّة هائلة من ثمار الرمّان ومن الخشخاش... وما هي إلاّ لحظات حتّى كانت الثمار قد وصلت. وكان الإله قد استدعى طحّان هليوبوليس، وأمره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حَبّ الشعير، وعندما امتزجت كلّ تلك الأشياء، نتج عنها مزيج مُسكِر بلون الدم البشريّ، يملأ ستّة آلاف مكيال، وأمَر "رع" بنقل المكاييل إلى كلّ أنحاء الأرض، وصبّ الرسل السائل الأحمر في كلّ مكان، فامتلأت به

الكهوف والحقول والأنهار.. وجاء الصباح. ونهضت حاتحور تستأنف دورة التقتيل وعبّ الدماء وأطلّت فإذا طوفان شامل يشبه الدم يغريها ويدعوها لريّ الظمأ. وراحت تعبّ من السائل المسكر المخدّر وهي تظنّه دمًا بشريًا صرفًا حتّى ارتوت. وظلّت تشرب حتّى هدأت ثورتها ولان قلبها، وانطلقت سكرى مخدّرة لا تفكّر في متابعة التذبيح والتقتيل، واستلقت في راحة لتضع حدًّا للمجزرة المجنونة الهائلة.

"وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض. واستمرّت الأيّام تمضي وفي أعقابها السنون. والشيخوخة تنخر بدبيبها الثقيل في جسد "رع". حتّى أتى زمن جديد عاد فيه البشر إلى التهامس عليه والسخرية منه، واستئناف الفساد والشرّ. في هذه المرّة لم يفكّر الإله في تعذيب البشر وإهلاكهم، بل ملأته الرغبة في التنحّي عن حكم العالم والخلود إلى الراحة والهدوء، وقرّر أن يرحل إلى حيث لا يصل إليه بشر قطّ. ونادى "رع" ولدَيه "شو" إله الجوّ، و"توت" إلهة السماء. وقال: يا ولدي "شو"، أنا تارك لك مقاليد الحكم فأكمل مشيئتي وتولَّ أنت الأمر، وأنت يا ابنتي "نوت"، إحملي أباك على ظهرك وارفعيه بعيدًا جدًّا فوق الأرض. وحاولت "نوت" أن تعترض، غير أنّها أذعنت للأمر فتحولت إلى بقرة. وحملت أباها "رع" فوق ظهرها الكبير. وطلع الصباح على الناس، فإذا "رع" العظيم قد غادر قصره.. وإذا بقرة إلهيّة هائلة قائمة ومن فوق ظهرها الإله الغاضب على البشر. وراح الناس يتوسّلون إلى الإله أن يعود، وراحوا يقدّمون له قرابين بشريّة ليزول غضبه، ولكنّه كان رحيمًا بعباده، فلم يحتمل قلبه أن يضحّي ببعض البشر ببعضهم تكفيرًا عن ذنوب المذنبين، فقرّر أن يهديَهم إلى استبدال المذنبين بالثيران والطير في القربان، على أن يتلو الكاهن الذي يتولّى تقديم القربان تعاويذ خاصّة تحلّ الحيوانات محلّ المذنبين. وبعد أن تعلّم الناس القربان، اعتلى "رع" ظهر البقرة الإلهيّة ابنته "نوت"، فارتفعت أكثر وتقوّست حتّى أصبحت كالقبّة، غير أنّ

"توت" لم تستطع أن تصمد طويلاً. وكادت تنهار تحت ثقل "رع"، فخارت قواها ووهنت قوائمها، ولم تجد بدًّا من طلب يد العون. عندئذ قال "رع": يا ولدي "شو"، ضع نفسك تحت ابنتي "توت"، وآزرها في حملي، واجعلها تستند على ذراعَيك القويّتَين من الجانبَين، واحفظها فوق رأسك العظيم. وأطاع "شو" وسلمت "توت" من السقوط. وامتدّ بطنها قبّة زرقاء صارت هي نفسها في ما بعد السماء التي تغطّي الكون، وراح "رع" ينثر على صفحتها النجوم لتنير الليل. وانصرف من بعد إلى تنظيم العالم الجديد الذي اكتشفه من فوق ظهر البقرة المترامية الأطراف.. واستمرّت الحياة تسير".

وفيما قال باحثون "إنّ شاعريّة المصريّ وغريزته الفنيّة أثّرت على تصوّراته التي تخيّلها عن العالم وعن الآلهة التي تسكنه، وانطلق في التصوّرات ممّا تعوّده في بيئته، فسمّى السماء بالبقرة من دون أن يتساءل عمّا إذا كانت السماء تشبه بطن البقرة، وأين الشعر الذي يكسوها، ومن دون أن يحدّد مكان الثدي والأرجل الأربعة. وطغى هذا التصوّر على الفنون فأصبح الفنّان يرسم السماء على أنّها بقرة جميلة دون أن يفكّر في حقيقة هذا الفضاء اللانهائيّ. وأصبحت السماء تُرسم باستمرار على شكل بقرة[1]..." نجد نحن أنّ مردّ تصوّر المصريّ للسماء بأنّها بقرة يعود إلى أسطورة الإله "رع". ولذلك أيضًا كان إذا حدث أن تخيّل أهل عصر صورة أخرى للسماء، مثّلوها على هيئة امرأة قد انحنت فوق الأرض، فإنّهم كانوا يعطونها رأس بقرة، أو على الأقلّ يزيّنون رأسها الآدميّ بقرون بقرة، فهكذا كانوا يتصوّرون ربّة السماء "حاتحور".

ومن الآلهة التي عُبدت في هليوبوليس إلهان صغيران، أحدهما مثّله المصريّون على شكل الثور واسمه "منيفس"، والآخر على شكل طائر واسمه "بنو"، ولا يزال

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣١.

يُعرف إلى اليوم باسم PHÔNIX. وهذان الإلهان قد اعتُبرا من أهمّ ما يتمّم المعبد في هليوبوليس. وقد بلغ الإله الأول "منيفس" أهميّة لدرجة أنّ "أمينوفيس" الرابع المصلح رأى وجوب ضمّه إلى معبد الشمس الذي أقامه في تلّ العمارنة، مع أنّه لا يتلاءم مطلقًا مع الديانة الجديدة الناضجة التي نادى بها هذا الملك. وما سبق ذكره عن الإله أبيس العجل المقدّس الذي احتفظ به المصريّون في معبد بتاح دون علاقة بينهما، ينطبق على الإله منيفس في هليوبوليس أيضًا. ويعتبر الكهنة أنّ السمندل PHÔNIX هو أوزيريس أو هو روح الإله "رع"، وما نعرفه عن هذا الطائر الأسطوريّ هو أنّه وُلد فوق شجرة في معبد هليوبوليس، وأنّه كذلك كروح أوزيريس يحطّ على الشجرة النابتة فوق مقبرته. ولعلّ هذه الشجرة المقدّسة هي بعينها تلك الشجرة القديمة التي اعتاد آلهة مصر أن يكتبوا أسماء الملوك على أوراقها. وكان السمندل يُلقّب "سيّد الأعياد الفضيّة" بمعنى ربّ الحقب الطويلة من الزمن. ولعلّ ذلك يفسّره الاعتقاد عند الإغريق القدماء بأنّ الـ PHÔNIX لا يعود إلاّ بعد مدّة طويلة من الزمن يقدّرونها أحيانًا بخمسمئة عام، وفي أحيان أخرى بـ ١٤٦١ عامًا. وليس من شكّ في أنّ هذا الطائر كان من بين الأشياء التي يتعذّر على الناس رؤيتها في المعبد، ونودّ أن نعتقد أنّ كلّ ما حاكه المصريّون من قصص حول هذا الطائر يرجع إلى أصل بسيط وساذج، لا يتعدّى أكثر من أنّ طائرًا من هذا النوع حطّ فوق الشجرة المقدّسة في المعبد وبنى لنفسه عشًّا هناك. وربّما كان وجود هذا الطائر راقدًا فوق عشّه لم يثر فضول الزائر الخالي الذهن في أوّل الأمر. ولعلّ الناس اعتادوا رؤية هذا الطائر سنين طويلة فوق الشجرة، ثمّ حدث أن غاب عن مكانه مدّة طويلة أخرى، ولا بدّ أنّ المصريّ رأى في رجوع طائر من هذا النوع بعد تلك المدّة من الزمن إلى الشجرة المقدّسة حادثًا كبيرًا يسترعي الانتباه ويدعو إلى الابتهاج. وهكذا يمكننا أن نعتبر أنّ كلّ الأشياء التي خرجت عن

أصل مماثل، لم يذكر الناس كيف نشأت، بل اعتقدوا أنّ من الواجب نسبتها إلى قوّة كبيرة سماويّة[1].

آلهة

طيبة

طيبة، مدينة مصريّة قديمة موقعها شرقيّ النيل على بعد ٥٠٠ كيلومتر جنوب منف، مدافنها في صخور الشاطئ الغربيّ. وقد عُرفت بأسماء أخرى منها مدينة أمون، والمدينة الحديثة الجنوبيّة تمييزًا لها عن أختها الشماليّة منف. والإسم: طيبة، مصريّ من لفظ "أبة" أي "ديار عبادة أمون" مسبوقًا بأداة التعريف "ت"، فصار الإسم "تيبة" ثمّ حُرّف إلى طيبة. عرفها الإغريق وأسموها "ديوسبريس ماغنا" أي "مدينة الإله الكبرى"، وتغنّى بها هوميروس فأسماها "أكساتو مبولوس" أي "ذات مائة باب". لم يبقَ من معالم المدينة القديمة سوى معبد الكرنك ومعبد الأقصر[2].

حدث في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد أن تسرّب بعض معبودات "شمون" إلى طيبة، واستقرّ فيها، ومن بين هؤلاء "أمون" الذي تلألأ وعلا شأنه في طيبة، كما استقرّ أيضًا فيها الكثير من تعاليم حكمة كهنة شمون وديانتها. وأهمّ ما سعت إليه المحاولات في طيبة هو عدم الاكتفاء بالـ"آلهة الثمانية" الذين أعطوا "شمون" إسمها، بل يجب وضع إله قبلهم يكون هو الذي خلقهم، وبالفعل جعلوا أمون، الذي كان واحدًا منهم، هو خالقهم، ويدلّ اسمه على أنّه "الكائن الخفيّ"، وعلى هذا النحو لم يكن لأمون في شمون أهميّة، لأنّه صُوّر على شكل ثعبان اسمه "كم - اتف"، ويعني اسمه "ذلك الذي يكمل

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٥٠ - ٥١.

٢ - الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل (بيروت، ٢٠٠١) ٣: ١٥٨٣.

زمانه". وهكذا كان هذا الإله غير ذي موضوع لهذه الدنيا فانتهى أمره وأنجب "كم ـ اتف" ولدًا على هيئة ثعبان اسمه "إير ـ تا" خالق الأرض الذي خلق بدوره الآلهة الثمانية الأولى، ومنها نشأت الخليقة. ولأولئك البسطاء الذين لم يتعرّفوا إلى هذه الحكمة ذات المعاني العميقة كان "كم ـ اتف" عندهم هو "أمون العظيم" معبود الكرنك، وهو أيضًا أمون إله التناسل وخالق الأرض ومعبود الأقصر. وعندما خلقت الآلهة الثمانية كانت الدنيا لا تزال في ظلام دامس، واندفع الآلهة الثمانية مع تيّار المياه الأولى ووصلت إلى شمون، وخلقت الشمس، ثمّ رجعت إلى طيبة. ولمّا كانت قد أتمّت خلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان "كم ـ اتف" في عالم الموتى بطيبة، واستراحوا جميعًا في ذلك المكان حيث بُني المعبد الصغير في مدينة "هابو"، وكان أمون الأقصر يتردّد عليهم مرّة كلّ عشرة أيّام ليقدّم لهم القرابين. وقد ورد في بعض المدوّنات[1] أنّ "تسعة أبناء لرع" قد دُفنوا في إدفو وكان لهم عيد خاصّ وكان يقدّم لهم القرابين كلّ يوم. وذكر باحثون[2] أنّ هؤلاء الألهة قد "اعتُبروا بالنسبة لعالمنا هذا كالموتى يهرع إليهم الناس بما يقدّمون إليهم، على حين كانوا قوّة لا يستهان بها في العالم السفليّ، فهم الذين يدفعون الشمس إلى الشروق والنيل إلى الأرض، وإذا كانت فكرة موت الإله تبدو لنا غريبة فإنّها لم تكن كذلك لدى المصريّ، ولا غرابة في ذلك فقد اعتقد أنّ إلهه الكبير أوزيريس كان يحيا حياة بشريّة ثمّ مات".

تمادى أهل المعرفة من رجال طيبة في تنفيذ فكرتهم حتّى أنّهم جعلوا من أوزيريس إلهًا هو "كم ـ اتف" الذي يتّفق في معنى اسمه "الذي قد أكمل وقته" مع

---

١ - ROCHEM, *EDFU*, I: 137, 289, II: 51.

٢ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٤٣.

أوزيريس، ثمّ ليزيدوا في إحكام الحلقة جعلوا من أمون "الروح" لأوزيريس وقالوا إنّ جسد أمون يوجد في الدنيا السفلى، وإنّه، أي أمون، كإله للشمس يزور جسده هذا عندما يتجول في الدنيا السفلى أثناء الليل. ومن الواضح أنّ أكثر الكهنة تعمقًا في هذه التعاليم لم يكن يعيرها أهميّة ما أثناء حياته الكهنوتيّة العاديّة، فإنّهم لم يروا في أمون الكرنك إلهًا ميتًا منتهيًا، بل كان هو أكبر آلهتهم وأقواهم، هو ملك الآلهة الذي يسوس العالم ويتحكّم في مقاديره، كما أنّهم في واقع الأمر لم يروا في أوزيريس ذلك الإله الذي تظهر روحه باسم أمون بل كان إله الموتى فقط. ومن تلك التعاليم التي تقول بأنّ الآلهة قد خُلقوا من إله أوّل واحد نتجت فكرة أخرى وهي أنّ كلّ ما تخلقه الآلهة من أشياء، فإنّ هذه الأشياء تحوي بعض صفات تلك الآلهة. وقالوا في ذلك "لقد خرجت من أعضائها" وكثيرًا ما سمّوا الماء أعضاء أوزيريس، ولعلّ هذا يفسّر تسمية أوزيريس بإله الفيضان الجديد، ولعلّ السبب الذي جعلهم يسمّون "الهواء" "أعضاء أمون"، كما ذُكر في معبد رعمسيس الثالث بالكرنك، هو أنّ هذا الإله العظيم كان يعتبر، وهو في حالته الأولى، كأحد الآلهة الثمانية: إله للهواء والرياح، كما اعتُبرت زوجته "أمونت" إلهة الرياح الشماليّة.

وذكر مؤرّخزن أنّه عند انهيار الدولة المصريّة حوالى عام ٢٢٥٠ قبل الميلاد، كان بين الدويلات التي تمكّنت من الإرتقاء إبّان العصور التالية دويلة مركزها مصر العليا وعاصمتها طيبة، وقد كان يُعبد في هذه الدويلة بصفة خاصّة "منتو" و"مين"، إلى جانب الإله أمون، أحد آلهة شمون الثمانية الأوّلين، وهو لم يكن في طيبة سوى صورة أخرى لـ "مين" وكان مثله، يصورّ منتصب القضيب رافعًا ذراعه وكان يحمل سوطًا، وعلى رأسه قلنسوة تعلوها ريشتان كبيرتان، وكان لون جلده أزرق. وما ساعد أمون على الارتقاء إلى مرتبة إله عظيم، أنّ أسلاف الأسرة الثانية عشرة قد اختاروه إلهًا

عائليًا، فنرى أول ملوك الأسرة وقد حكم مصر حوالى ٢,٠٠٠ ق.م. يتّخذ الإسم المميّز "أمون ـ أم ـ مات"، أي أمون في المقدّمة[١]. ونظرًا إلى الدور الذي كان على أمون أن يؤدّيه كإله للآلهة، صار لزامًا عليه أن يتحول إلى إله الشمس تحت اسم "أمون رع"، وهكذا اتّخذ مركزًا ممتازًا بالنسبة إلى جمهرة آلهة المقاطعات الصغيرة، وقد اتّخذ لهذه المناسبة مظهرًا آخر أكثر احتشامًا، فمن ذلك الحين صار يمثّل جالسًا على عرشه كملك ولم يحتفظ من مظهره الأول بغير القلنسوة ذات الريش ولون الجلد الأزرق، ولكنّ ارتفاع شأن أمون رع، الذي كان يجب أن يضعه في نهاية الأمر على رأس الآلهة جميعًا، توقّف فجأة في حوالى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد، عندما غزا مصر شعب أجنبيّ محارب قويّ مجهول الأصل وسادها بقوّة السلاح، هؤلاء هم "الهكسوس"، وهذا الإسم مصريّ الأصل معناه "أسياد" أو "حكّام البلدان الأجنبيّة" ولكن أول مَن استعمل هذا اللفظ في كتابته مؤرّخ مصريّ كتب باليونانيّة. وقد فسّر الإسم على أنّه يعني "الملوك الرعاة"[٢]. وذكر مؤرّخون أنّ الهكسوس كانوا شعبًا مزيجًا في أكثره ساميّ العرق، يشمل الكنعانيّين والأموريّين والعرب، دخلته عناصر غير ساميّة من الحوريّين والحثّيين والمتّانين، وقد كان من جملتهم بعض قبائل "الخبيرو"[٣]. وليس معروفًا أيّ آلهة كانوا يعبدون، وإن كان واضحًا أنّهم لم يكونوا يعبدون على أيّ حال الآلهة المصريّة، وعندما قام الملك "خيان" الهكسوسيّ بزخرفة معبد "بوبسطة" لم يُلقّب فيه بلقب المحبوب من آلهة هذا المعبد كما كان معهودًا من قبل، أي "باستت"، بل أطلق

---

١ - VERSET, *HYMNE à AMON DE LEYDE*, P. 100.

٢ - JOSEPHUS, *APONS*, BK. I, CH. 14.

٣ - حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٩٠.

عليه لقب "ذلك الذي تحبّه "كا"، ولم يُفاجأ المصريّون بهذه التسمية لأنّهم كانوا يدركون أنّ لكلّ منهم روحًا مماثلة، وأنّ الملك الهكسوسيّ له الحقّ مثلهم في أن يتّخذ الـ"كا" إلهًا شخصيًا. وعندما اتّخذ الهسكوس عاصمة لملكهم "أفاريس" في شرق الدلتا، وهي التي أصبحت في ما بعد "تانيس"، عبدوا الإله "سوتخ"، وهو نفسه الإله "ست" في مصر العليا، على أنّ اسمه كُتب في شكل همجيّ. وقد تواتر أنّ الملك أبو فيس "لم يعبد إلهًا آخر في كافّة البلاد". أمّا الإله أمون رع فسوف يصل إلى قمّة مجده بعد طرد الهكسوس، وقد تمكّن أمراء طيبة من تحرير مصر من النير الأجنبيّ، وعندما امتدّ حكم الأسرة على مصر كلّها دون أن تهجر مقرّها طيبة صار من المحتوم أن يصبح أمون رع إلهًا للمملكة وأكبر إله في البلاد. ومنذ ذلك الوقت اتّخذ لقب ملك الآلهة، بل وأكثر من ذلك، شاء القدر أن يتمتّع ملوك الأسرة الثامنة عشرة التحوتمسيّون والأمنوفسيّون، وهم الذين رفعوا إلههم أمون عاليًا، بعظمة لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل. فمن الفرات إلى السودان كانت جميع البلاد تدفع الجزية، وقد انتشرت عظمة إلههم في كلّ هذه الأرجاء الشاسعة، وقد أقام فراعنة القرنَين السادس عشر والخامس عشر والأسرات اللاحقة معابد طيبة الضخمة للإله أمون رع بوساطة هذه الأموال التي تدفّقت على مصر رمزًا لتقديرهم وعرفانهم بسبب ذلك النصر الذي قادهم إليه. كما أقاموا في البلاد الأخرى من أمبراطوريّتهم هياكل جديدة حتّى يُستطاع خدمة إله ملكهم في كلّ مكان. وهكذا أصبح أمون رع حقيقة، ولمدّة طويلة، أوّل إله للمصريّين، ولكنّه لم يكن أحد الآلهة الكبار القدامى، بل أخذ كلّ مظاهر طبيعته تقريبًا من الآلهة الآخرين. وهو مثل "مين" يحمي طرق الصحراء رغم أنّ طيبة لم تكن أبدًا واقعة على الطريق المؤدّية إلى البحر الأحمر. ويقولون عن أمون إنّ الآلهة تحبّ رائحته حينما يأتي من "بنت"، بلاد البخور، وهو غنيّ بالعطور حينما ينزل من بلاد "المازوي"، وهو

حوريس الشرق الذي تجلب له الصحراء الفضّة والذهب واللازورد حبًا به. كما تجلب له كلّ أنواع البخور من بلاد المازوي والمرّ الطازج. وتُذكر عادة كلّ هذه المنتجات تمجيدًا لجاره "مين"، الذي يذهب تقريب شخصيّته من "رع" إلى أبعد من ذلك، فهو يُسمّى "رع - خبري" أو "أتوم" ويُلقّب بـ "ثور هليوبوليس" أو "الذي يتألّف في بيت حجر بن بن وهو يعبر السماء بسلام"، وهو صاحب سفينة المساء وسفينة الصباح، وهو يحارب التنّين أبو فيس، ومثل رع، فإنّ عينه تصرع الأعداء ويفرح قومه حين يرونه يصرع عدوّه "أبو فيس" ويقطع أعضاءه بالسكّين ويرميه في النار لتلتهمه، ومن ثمّ تُعاقب نفسه أكثر ممّا يُعاقب جسده. وهكذا يمنع مجيء هذا الأفعوان، فتُسرّ الآلهة وحاشية رع، فإنّ أعداء "أتوم" مصر وعين طيبة راضية وهليوبوليس قريرة العين.

كان ما يُحكى عن إله الشمس من أساطير يُنسب إلى أمون، فهو قد قام بمحاكمة "حوريس" و"ست" في الصالة الكبرى بصفته رئيس التاسوع الأكبر. ويُعتبر أمون رع، إله الشمس، خالق كلّ شيء. وهو الوحيد صاحب الأيدي الكثيرة، هو أب الآلهة الذي صنع الناس وخلق الحيوانات وفرّق بين الناس حسب ألوانهم. خرج الناس من عينَيه والآلهة من فيه. كذلك يعتبر أمون رع عضد كلّ الكائنات الحيّة وعائلها، وهو يسهر في الليل حين ينام جميع الناس. وكالراعي الصالح يبحث عن الأفضليّة لقطيعه. وهو يُنبت الحشائش لقطعانه والأشجار المثمرة للناس، ويخلق ما تعيش منه الأسماك في النهر والطيور في السماء، ويعطي نسمة الحياة لمَن لم يخرج بعد من البيضة، ويُطعم ابن الدودة، ويخلق ما يعيش منه البعوض والدود والبراغيث، ويضع ما يلزم للجرذان في جحورها، ويُطعم الطيور على كلّ الأشجار. النيل الطيّب المحبوب يأتي حبًّا به، وحينما يأتي يحيا الناس. هذا القادر رئيس كلّ الآلهة، الذي تقع الآلهة عند قدمَيه كالكلاب، له رغم ذلك قلب مستجيب حينما يُدعى. وهو منجّي الخائف من اعتداءات

السفيه، وسامع دعاء الذي في كرب وضيق، ولهذا فإنّ كلّ واحد يحبّه ويعظّمه مهما علت السماء وانبسطت الأرض وازداد البحر عمقًا. الآلهة تخضع أمام جلاله وتمجّد خالقها. ويتّضح جليًّا من أنشودة أمنوفيس الثالث (١٣٩٨ ـ ١٣٦٩ ق.م) أي العصر الذي يسبق مباشرة عصر الثورة الكبرى، كيف تغيّرت عبادة أمون رع تدريجيًّا إلى عقيدة خالصة في إله الشمس. وفي الواقع أنّ أمون رع لا يُحتفل به في هذا الوقت إلاّ بصفته الشخصيّة، وليس هناك إشارة إلى أيّة صفة أخرى ممّا ذُكر في الأنشودة الكبرى لأمون. ولكنّ الأخوَين التوأمَين "حور" و"سوتي" اللذَين تحمل لوحتهما هذه الأنشودة، كانا بلا شكّ عابدَين صادقَين لأمون، لأنّهما كانا يمجّدانه بصفتهما من كبار مهندسيه المعماريّين، أحدهما على الضفّة اليمنى والآخر على الضفّة اليسرى للنيل[1].

تعرّضت عبادة أمون لانتكاسة في عهد الثورة الدينيّة التي قام بها أمنحوتب الرابع أخناتون (حوالى ١٣٦٩ ـ ١٣٥٣ ق.م.)، ولكن سرعان ما استعاد أمون مكانته. ولقد حاول الملك "حور محب" وخلفاؤه، أي الأسرة التاسعة عشرة، أن يعوّضوا بطريقة مفخّمة، الخسائر التي لحقت بأمون ومدينته خلال عهد الهرطقة، فأقاموا تمجيدًا له تلك المباني الضخمة التي لم يستطع أيّ بلد أو أيّ عصر آخر أن يشيد ما يماثلها[2].

أمّا معبد الكرنك، فاسمه تصحيف في الغالب لكلمة "خورنق" الفارسيّة التي أطلقها العرب على قصر أمون الرسميّ حين رأوا نوافذه العالية، ومن الجائز أن يكون أصل الإسم تركيًّا بمعنى الحجز أو السجن، ومن ذلك فعل "كرنك" الذي يستعمله المصريّون اليوم بمعنى اعتكف واستقرّ. وقد أسماه المصريّون "المكان الحسيب" إذ كان لدَيهم

---

١ ـ أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٥٤ ـ ١٥٨.

٢ ـ راجع: "الثورة الدينيّة وفشلها" في هذا الكتاب.

أكرم المنازل وأقدسها. فيه عرش أمون ربّ الأرباب ورمز وحدة البلاد الدينيّة والسياسيّة، وفيه كان فرعون يستوحي ربّه يوم الروع والغارة. وقد حاول المصريّون تنظيم ذلك الخليط العجيب من التعاليم الدينيّة التي كان يقول بها كهانهم، ويبدو ذلك واضحًا من تلك الصفات المختلفة التي تعطي لعدد من الآلهة سُمّيت باسم واحد، ومثل ذلك هو معبد الكرنك، فقد أُقيم فيه معبد صغير للإلهة "موت" كان من بين معبوداته عدد كبير سُمّي باسم "سخمت" إلهة الحرب، فرّقت صفات كلّ منها الواحدة عن الأخرى: "سخمت" محبوبة بتاح، سخمت سيّدة الصحراء الغربيّة، سخمت في بيت "باستت"، سخمت الكبرى، سخمت المحبوبة من "سوبك" وغير ذلك. ويختلف الكرنك عن معابد الدولة كلّها، فهو ليس بدار واحدة وإنّما هي ديار كبيرة، وضعت أوائل أيّام الدولة الوسطى وتعاقب الملوك منذ مطلع الدولة الحديثة يزيدون في عمارتها ويغيّرون، ثمّ يتركونها للأجيال عجيبة رائعة، بل متحفًا لمختلف طرز البناء وفنون النحت، وبدائع النقش، وروائع التصوير، ويستطيع الزائر حين يجول خلالها أن يرى تطوّر العمارة وما إليها من مختلف الفنون، وأن يقع في خرائبها على كنوز من تاريخ الإنسانيّة، ولا نعلم إن كان الدهر قد سجّل من تاريخ البشر الرفيع التراث عشرين قرنًا أو يزيد في خزانة من حجر على غير هذا المكان[1].

آلهـــــة

الأشمُونين

الأشمونين، وهي التي عُرفت أيضًا باسم شمون، هي اليوم منطقة أثريّة هامّة في مصر الوسطى على مقربة من "ملوى". وأصل الإسم مصريّ قديم، وهو مثنّى للفظ

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٤٩.

"شمون" بمعنى "ثمانية"، أي ثمانية العناصر الطبيعيّة التي نشأ منها الكون في عقيدة الفراعنة. كانت عاصمة الإقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد وكانوا يسمّونه "يونو" أي "إقليم الأرنبة"، وأسماه الإغريق من بعدهم كما أسمَوا عاصمته "هرموبوليس ماغنا" أي "مدينة هرمس العظمى"، ذلك لأنّهم ساروا بمعبودهم "هرمس" نظيره عند المصريّين "توت" معبود الأشمونيّين. وفي خرائب الأشمونين آثار من أيّام الدولتَين الوسطى والحديثة ومن أيّام الإسكندر وخلفائه من البطالمة والرومان. وكان الرومان يقصدون إليها أيّام الشتاء، وقد تعشّقها منهم الأمبراطور هادريان فأقام فيها طويلا. وفي نيلها غرق غلامه أنطونيوس فشيّد لذكراه مدينة باسم "أنطينوبوليس" وهي التي تُعرف اليوم باسم الشيخ عبادة[1].

أمّا ثامون أشمون، فأثر من تاريخ الفكر الدينيّ عند المصريّين القدماء، ومن تراث كهّانهم في الأشمونين. فهم قد خالوا الكون قائمًا من أصول ثمانية، أربعة ذكور على هيئة الضفادع، وأربع إناث على هيئة الثعابين، وهم: "نون" وزوجته "ناونت" ويمثّلان الماء، "صرح" وزوجته "حاوحت" ويمثّلان الفضاء، "كوك" وزوجته "كاوكت" ويمثّلان الظلام، وأخيرًا "أمون" وزوجته "أماونت" ويمثّلان الهواء أو الأثير، وكانا بمثابة الروح التي حرّكت الحياة في هذا المزيج المختلط فكانت الأرض وكان النور، وعندما خلقت الآلهة الثمانية كانت الدنيا لا تزال في ظلام دامس. وشبيه بذلك ما جاء في سفر التكوين[2]. وسوف تتسرّب عبادة أمون في ما بعد إلى طيبة كما ذكرنا تحت عنوان آلهة طيبة أعلاه.

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٢٢٨.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ٧٩١.

كان استيلاء "قمبيز" الفارسيّ على مصـر (٥٢٥ ق.م.) حقًّا نكبة للديانـة بـالذات؛ ذلك لأنّ هذا الفارسيّ كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر. ولئن كـان قد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعـابد، فمن المحقّق أنّ ذلك لم يكن لأنّـه كـان يعتبرها شيئًا مقدّسًا، وإنّما كانت عنده مجرّد غنائم تبيّن للفرس أيّ بلد عجيب استولى عليه. وبعد قليل من عشرات السنين خضع الكهنة أنفسهم في ذلّة للإغريق الذين سادوا البلاد. وفي عهد الانتقال هذا حُفظ لنا أثر يبدو كأنّه حلقة اتّصال بين عهدَين، وهو قـبر أحد الكهنة العظام من المدينة المقدّسة الأشمونين. وقد خبِر هـذا الكـاهن الحقبـة السيّئة من أواخر العهد الفارسيّ، وقُدّر له كذلك أن يشهد العهد الطيّب للسيادة الإغريقية، ذلك هو "بتوزيريس" كاهن الأشمونين الأعلى الذي تمّ الكشف عن مقبرتـه الرائعـة. وكـان كبير الكهنة في معبد أشمونين يُعرف بلقب "كبير الخمسة". وقد خدم "منذ الطفولـة" إلـه الأشمونين، و"حفظ في قلبه" أفكاره، ولذلك اختاره "تحوت" أيضًا ليدير معبده، وقد ظـلّ مديرًا لأملاكه سبع سنين. وكانت إدارته لهـا مـبرّأة من كلّ عيب علـى رغم الزمـن السيّء الذي كان عليه أن يقوم بهـا فيـه، وذلـك لأنّ مصـر كـان يسودها إذ ذاك "أهـل البلاد الأجنبيّة"، أي الفرس، "ولم يعد شيء في مكانه القديم"؛ وكـانت الحـرب تضطـرم في مصر، والفزع يسود الوجه القبليّ، والهياج في الوجـه البحـريّ، وكافّـة النـاس فـي حيرة وارتباك. ولم يبقَ لأيّ معبد سدنته، ولم يعد الكهنة يحسنون معرفـة شـيء. غير أنّ بتوزيريس لمّا أصبح مدير أملاك "جعل معبد تحوت كما كان من قبـل. وجعـل كلّ شيء مرتّبًا من جديد، وكلّ طقس يؤدّى في وقته. وزاد من شأن الكهنــة، وعظّـم كهنـة معبده العلمـانيّين، ورقّـى خدمـه أجمعيـن، وأعطـى الإرشـادات لسـدنته. ولـم يقلّـل مـن الأطعمة في المعبد، ومــلأ أهراءه بالشـعير والقمـح، وخزانتـه بكـلّ شـيء طيّـب، وقـد أعطى أكثر من ذي قبـل، حتّـى شكره أهـل المدينـة جميعًـا. وأعطـي الذهـب والفضـّة

وسائر أنواع الأحجار الثمينة، وأفرح الكهنة وكلّ مَن يشتغل في مصنع الحلى". وهكذا أعاد كلّ "ما وجد مخربًا" إلى الإزدهار من جديد[1]. وقد اهتمّ قبل كلّ شيء بكافّة الأماكن المقدّسة التي كانت موجودة في المدينة الجليلة، وكان منها ذلك المكان الذي كان يُسمّى "البحيرة العظيمة"؛ وقد كانت "المكان الذي وُجد فيه رع منذ النشأة الأولى، عندما كان المحيط لا يزال يحيط بالأرض"، وكانت مكان مولد سائر الآلهة، وقد نشأ فيها كلّ ما نشأ". وكان هذا المكان الأجلّ، الذي ظلّ "مدفونًا فيه نصف البيضة"، التي نشأ منها إله الشمس، مهملاً تمامًا، "فكان الأشرار يطأونه، وكان الناس يأكلون الفاكهة من أشجاره. وكان الغاب يؤخذ منه إلى كافّة الأنحاء". وإلى هذا يرجع السبب في الشقاق والشقاء الذي أصاب مصر. على أنّ بتوزيريس "مدّ الذراعَين حول "البحيرة العظيمة"؛ ولم يسمح للعامّة بالدخول فيها، وبنى فيها، بما يناسب هذا المكان، معبدًا لرع من أحسن أنواع الحجر الجيريّ، وبأبواب من خشب الأرز، مصفّحة بالنحاس[2]". ولم يكن أقلّ سوءًا حال معبد "حقت"، تلك الإلهة الفطريّة القديمة، التي هي في هيئة ضفدعة. وكان يقع في شمال الأشمونين مكان ظلّ يُسمّى على أفواه الشعب "بيت حقت"، ولكنّه كان مخربًا منذ أمد بعيد، تجرفه المياه كلّ عام فلم تبقَ منه لبنة واحدة أو حجر. وكان يبدو كأنّه لم يحفر له أساس أبدًا، وما كان فيه إلاّ العشب والنبات. وفي أوان الفيضان كانت السفن تجري من فوقه؛ أمّا في الصيف فكان يُتّخذ جرنًا تدرس فيه الثيران. عند ذلك حدثت أعجوبة، فإنّ بتوزيرس بينما كان يشترك في عيد الآلهة، ويمضي أمامها في الموكب، ظلّت هي قائمة في هذا المكان المقفر، فأدرك ما كان يعنيه ذلك، وعزم على أن "يشيّد أثرًا جميلاً". فدعا كاتب المعبد وأعطاه فضّة "بغير

---

١ - LEFEBVRE, *LE TOMBEAU DE PETOSIRIS, TEXT.81*, PP. 22 - 47.

٢ OP. CIT. 81: 48.

حساب"، وأقام فضلاً عن ذلك جدارًا بالمكان لحمايته من الماء، ثمّ أعطى لِينًا ليُبنى به. وتشاور مع كافّة الحكماء ليبحثوا ما يقضي به العرف القديم "منذ أن عرفه الإنسان" للأيّام التي فيها تزور الإلهة هذا المكان وتقيم فيه[1]. وقد سُرّت الإلهة لهذه الأبنية وغيرها، ورفع "تحوت" بتوزيرس على سائر نظرائه، مكافأة له على ما فعل. وأغناه بكلّ شيء طيّب، بالفضّة والذهب، والحبوب، وبالحقول والقطعان، والكروم وحدائق الفاكهة، والسفن تجري في الماء، وبكلّ أطايب الخزانة. إلى جانب هذا فقد امتدحه حاكم مصر وأحبّه رجال بلاطه. وكان له أن يتمنّى لنفسه حياة طويلة بهيجة، وقبرًا إلى جانب أبيه وأخيه، وبيتًا مليئًا بالولد، يتبع فيه الولد غيره من الأولاد[2].

وقد لفت علماء إلى أنّ بناء هذا القبر على شكل معبد، يبدو في حدّ ذاته أمرًا جديدًا، على أنّه أغرب منه تلك الصور التي زُيّنت بها جدرانه. فكما أنّ أمراء الزمن القديم عملوا في مقابرهم على تصوير سائر ما كان يحيط بحياتهم، فصوّروا قطعانهم وحقولهم، وصنّاعهم وموظّفيهم، فقد أراد هذا الكاهن كذلك أن تكون له مجموعة مماثلة من الصور في مقرّ راحته الأخير. غير أنّه لم يطلب من الفنّان، الذي رسم له هذه الصور، أن يرتبط بالأمثلة القديمة منها، وإنّما تركه على حرّيته. على أنّ مثل هذا الفنّان قد اتّصل في المدرسة بالنحّاتين الإغريق، وكان يحاول تقليد فنّهم. وبهذا نشأت صور من طراز خليط غريب، تنتمي من حيث موضوعها إلى آلاف السنين الغابرة، غير أنّ كلّ شكل فيها إنّما هو شكل أجنبيّ غير مصريّ. إلى جانب هذا فإنّ التفاصيل أجنبيّة غير مصريّة أيضًا، فالناس يتّخذون الملابس الحديثة، والحبوب تُدرس بأداة مستحدثة هي مضرب الدّرّاس. وإنّه ليبدو لنا غريبًا حقًّا، إذا شاهدنا في هذه الصور ما

---

١ - Op. Cit. 81: 70.

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٥٢ - ٤٥٥.

يصنعه الصائغون من أوانٍ على الطراز الإغريقيّ، وعلى غطاء إحداها يجلس إيروس إله الحبّ في شكل بديع. ويبدو هذا كلّه في مجموعه كأنّه من المساخر، التي لا يتوقّعها أحد في مثل هذا المكان المقدّس. ومع ذلك فلم يكن الأسلوب الجديد هو وحده الذي فرض هذا على بتوزيرس، ولكن لا بدّ أنّه هو نفسه قد وجد مسرّة في مثل هذا التجديد، وإلاّ لَما غيّر كذلك في حريّة كبيرة تلك النصوص الملحقة بالصور التي لم يكن لأيّ إغريقيّ أن يستطيع قراءتها. فلقد كان بتوزيرس رجلاً من عصر جديد، وهو وإن ظلّ مخلصًا لعقيدة آبائه القديمة، فقد تقبّل مع ذلك الحضارة الإغريقيّة التي نجحت في أن تكون لها السيادة في مصر وفق إرادة الآلهة. ولذلك فإنّنا نفهم جيّدًا أنّه كان محبوبًا لدى "حاكم مصر" أي في بلاط الإسكندريّة. وثمّة شيء آخر في مقبرة بتوزيرس جدير بالانتباه؛ ففي كثير من نصوصها تتجلّى روح طليقة ذات صفات خاصّة، ليس لها أدنى صلة بأيّ تأثير إغريقيّ، وإنّما تنبض تلك النصوص بذلك التديّن العميق، الذي عرفناه في الدولة الحديثة والعصر الذي تلاها. فالذي يملأ حياة بتوزيرس إنّما هو شعور التقوى الذي يربطه بإلهه، وهو "تحوت العظيم مرتين". وكان هذا الإله رائده طوال حياته، وهو الذي هداه إلى أن يكون مخلصًا له. لقد وضع ثقته في الإله منذ الطفولة، فكان يفكّر في الليل في ما عسى كانت إرادة الإله، ويعمل في الصباح ما يحبّه الإله. وكان يقول الحقّ وينفر من الظلم، ولم يتعامل مع مَن يجهلون الإله، ولم يعتمد إلاّ على المخلصين للإله، وذلك لأنّه كان دائم التفكير في أنّه سوف يذهب بعد الموت إلى الإله، وأنّ سادة الحقّ سوف يجلسون لمحاكمته. هكذا كانت تقريبًا عقيدة بتوزيرس. وربّما يتّصل بهذا أنّ بتوزيرس قد وصف في ما خلّفه الزوّار من كتابات في العهد اليونانيّ، الذي كان يحجّ فيه إلى قبره، بأنّه "حكيم بين الحكماء"[1].

---

١ - LEFEBVRE, *LE TOMBEAU DE PETOSIRIS*, I: 24.

وقد كان الموظّفون والكتبة الذين يخدمون تحوت، من الطبقة العالية المثقّفة من الشعب، التي كانت تحيا فيها حقًّا روح عالية؛ ومن المحقّق أنّ هذه الروح قد عاشت بعد ذلك، وخاصّة عندما أصبح تحوت هو هرمس، الذي كان يُعتبر ممثّل الحكمة السامية. لقد غدت التعاليم التي يمثّلونها شيئًا آخر غير تعاليم جماعة تحوت القديمة، على أنّهم ورثوا الاعتقاد بأنّ إلههم هو الإله الذي يعلم الحكمة العميقة[1].

قصّـة
الحَياة

لمّا كان المصريّ القديم قد أعطى السماء صفة أنثويّة، فقد تخيّل الأرض على أنّها ذكر، وكان إله الهواء "شو" هو الذي زجّ بنفسه بين إلهة السماء "تـوت" NUT وزوّجها إله الأرض "جبّ GEB"، وإنّ تخيُّل المصريّ للأرض على أنّها ذكر، يأتي على عكس ديانات العالم القديم، والسبب في ذلك هو أنّ كلمة السماء فـي اللغة المصريّة مؤنّثة، وكلمة الأرض مذكّرة، وهكذا صوّر إله الأرض "جب" مستلقيًا علـى بطنـه، وقد نبتت المزروعات فوق ظهره، أمّا المرأة التي تنحني فوقه فهي زوجته "تـوت" إلهة السماء. والفضاء الذي يفصل بين السماء والأرض هو الإله "شو"، ومعني الكلمة "الفضاء"، وقد صوّرته اللغة والفنّ على أنّه رجل يقف فوق الأرض ويسند بيدَيه إلهة أو بقرة السماء[2]. وهنا تمثّل المصريّون الإنجاب الطبيعيّ، ويصدق الشيء نفسه على أولاد الإله "جب" والإلهة "توت" وهم: "أوزيريس" و"إيزيس" و"ست" و"نفتيس"، ومن الجميع

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٧؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣١.

تكوّن التاسوع المقدّس لعين شمس، أو "تاسوع هليوبوليس". ولقد حكم هؤلاء العالم في أوّل الأمر قبل أن تتجمّع السلطة في يد "حوريس"، فكانوا الآلهة العظام. ولأنّ مجموع عدد هؤلاء الآلهة مع آبائهم قد بلغ التسعة، فقد سمّاهم المصريون "التاسوع العظيم لهليوبوليس". وهو تصورٌ للآلهة طبّقه المصريّون في ما بعد على مجموعةٍ أخرى من الآلهة المحليّة، وامتدّ نطاقه في بعض الأحيان ليشمل عددًا يزيد على الآلهة التسع. أمّا أنّ بداية خلق الكون كانت انبثاق الأرض من الماء، فيبدو أنّها فكرة وردت على نحو طبيعيّ على أذهان سكّان وادي النيل الذين يستلهمون في بعض الأحيان جزرًا من الطين تظهر في النيل. والواقع أنّه كان من الخبرات المألوفة قبل أن يكتمل بناء السدّ العالي في أسوان أن ترى القرى المصريّة إبّان فيضان النيل، كما لو كانت جزرًا خرجت من المياه المحيطة[1].

فلمّا كانت تنقّلات المصريّ كلّها بالسفن فوق سطح النيل، تخيّل أنّ الشمس والقمر والنجوم تتحرك في السماء فوق السفن. وفي هذه الحالة لا بدّ أن تكون السماء بحرًا "هي الماء البارد" أو "البحر الذي يجري في بطن الإلهة نوت". وهكذا نرى كيف انسجمت هذه التصوّرات بعضها مع البعض الآخر. وإذا كانت السماء عبارة عن بحر كبير فقد بقيت في خيال المصريّ، في الوقت نفسه، هي بطن البقرة أو بطن الإلهة. أمّا المطر فكان يأتي، بطبيعة الحال، من تلك "المياه الحيّة الموجودة في السماء". وهناك تفسير آخر للمطر على أنّه البول الذي تتبوّله كلّ من الإلهة "تف نوت" والإله "شو". كما أنّ هناك تصوّر آخر للسماء يمتّ إلى العصور الحديثة ويتخيّل المصريّ فيه السماء قائمة فوق أربعة جبال، كلّ جبل منها يقع في ركن من أركان العالم

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٧.

الأربعة، وأحيانًا يتصورّوها محمولة على أربعة أعمدة، أو على أربعة قوائم، بينما الأرض مستلقية على ظهرها[1].

أمّا الأرض فقد صوّرها المصريّون وقد أحاط بها محيط كبير: "الدائرة الكبرى" وانقسمت الأرض إلى قسمَين: أحدهما جدب "الأرض الحمراء" حيث يسكن البرابرة المتوحّشون الذين يعيشون على الأمطار؛ أمّا القسم الثاني فهي "الأرض السوداء"؛ وفي الواقع لم يتخيّل المصريّ أنّ هناك أرضًا سوداء غير أرضه حيث تسكن الآلهة، والتي وهبها الآلهة نيلها الفيّاض "الذي يجلب الخير للناس" واعتقد أنّ فيضانه يأتي إليه من الدنيا السفلى فمصدره "من الماء الحيّ الموجود في الأرض"، وينبع من فتحتَين موقعهما بين صخور الشلاّل الأول. من هنا كان تقديس النيل من قِبَل المصريّ، لأنّه تلك القوّة التي تأتيه بالأعجوبة السنويّة، والتي تهيمن على حياته، وأصبح النيل بالتالي واحدًا بين آلهته العظمى وعومل معاملة مختلفة عن الآلهة، لأنّ المصريّ لم يقدّم له القرابين ولم يؤلّف له الأناشيد لتمجيده، بالرغم من تسميته، في بعض الأناشيد، "بأبي الآلهة" فإنّ هذا اللقب مستعار من الإله "نون" ربّ الماء الأزليّ. والسبب في ذلك أنّه ذُكر في نصّ من النصوص الدينيّة على أنّه ينبع من هذه المياه. ومن بين الأناشيد التي دبجها المصريّ في وصف النيل:

> هو الذي يذهب في وقته ويأتي في وقته، الذي يُحضر المآكل والمؤن، هو الذي يأتي بين الأفراح، المحبوب جدًّا، ربّ الماء الذي يجلب الخضرة. يتفانى الناس في خدمته ويحترمه الآلهة. هو إله صغير خلقه "رع" من أحسن عناصره.

وفي مكان آخر أُعطي النيل بعض صفات أوزيريس وقالوا:

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣١ - ٣٢.

> كلّ مَن يرى النيل في فيضانه تدبّ الرعشة في أوصاله، أمّا الحقول، فهي تضحك، وأمّا الشواطئ فتكسوها الخضرة، وتتساقط هدايا هذا الإله وتعلو الفرحة وجوه البشر، أمّا قلوب الآلهة فتخفق من السعادة...

ومن الغريب، مع هذا، أن يتبوأ النيل بين الآلهة منصب الخادم لهم، فصوّروه، على جدران المعابد، بزيّ البحّار أو صيّاد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر، له ذقن وثديان كبيران، يقدّم منتجاته إلى الآلهة الكبرى.

وهناك قسم ثالث للعالم غير السماء والأرض، وهو الدنيا السفلى، حيث يخيّم الظلام ويعيش الموتى. ورأى المصريّ في الدنيا السفلى المكان الذي تغيب فيه الشمس في المساء وتعبره طوال الليل لتشرق من الشرق في الصباح التالي، ومعنى هذا أنّ العالم السفليّ لا بدّ له من نهر عظيم تجتازه سفينة الشمس كما تجتاز السماء؛ وفي آخر الأمر رأى المصريّ في الدنيا السفلى سماء أخرى تعادل سماء الأرض، ولو أنّها تمتاز بالظلام، "تصعد إلى السماء وتنزل إلى السماء السفلى"، قالوا ذلك بالنسبة إلى تحركات الشمس. وبطبيعة الحال كانت الشمس هي أهمّ ما استرعى نظر المصريّ في السماء، فعرف الإله "رع" أهلُ مصر في الشمال والجنوب، فتخيّلوها ذلك القرص الأحمر المتوهّج الذي يعبر السماء في قاربه؛ ومن ثمّ لعب الفنّ، وما امتاز به عقل المصريّ من خيال خصب، دوره المهمّ في تصويره هذا الإله على أشكال مختلفة، فمرّة صوّروه على شكل جعل عظيم "خبر رع" وهو يدفع قرص الشمس أمامه فوق صفحة الماء، تمامًا كما يفعل زميله الذي يحيا فوق الأرض عندما يدفع كرة الروث أمامه؛ ومرّة تخيّلوا الشمس على هيئة عجل ذهبيّ تلده أمّه بقرة السماء في الصباح، وينمو أثناء النهار حتّى يصبح ثورًا سمّوه "كاميفيس ثور أمّه"، لأنّه يلقّح أمّه البقرة حتّى تلد في اليوم التالي شمسًا جديدة. أمّا في الأحوال التي تخيّلوا فيها السماء كامرأة

فنجده يتحدّث عن طفلها الشمس الذي ينمو أثناء النهار ويصير رجلاً كهلاً في المساء ويختفي في الدنيا السفلى. وتصوّر المصريّ الشمس في شكلها الهرم كإله له جسم الإنسان، وسمّاه "آتوم" الذي يُعبد في هليوبوليس، بينما رأوا في "خبر" رمز الصباح، ومعنى ذلك أنّ المصريّ ميّز بين شمس الصباح "خبر" وشمس الظهر "رع" وشمس الغروب "آتوم". وتخيّل المصريّ الشمس أيضًا على هيئة الصقر، أو كإله له رأس الصقر هو "حوريس" الذي يعني اسمه "البعيد" لأنّ إله الشمس "بعيد عن الآلهة"، فهو يطلّ على الآلهة وليس هناك إله يطلّ عليه. واعتقد المصريّون أنّ الإله "حوريس" هو حاكم السماء، له عينان متوهّجتان إحداهما الشمس والأخرى القمر. وما دام المصريّ قد تخيّل الجعل وهو يدبّ فوق سطح السماء ويرفرف فوقه الصقر بجناحَيه، فمن الواجب أن يكون لإله الشمس، الذي على شكل آدميّ، قارب يسبح فيه فوق سطح محيط السماء، وبالفعل فقد كان له قارب جميل صُنع من الذهب، طوله ٧٧٠ ذراعًا، وقام ببنائه الآلهة أنفسهم، وتشرف على تسييره النجوم، وتصاحب الآلهة العظمى الشمس فيه، إنّه "الإله العظيم ربّ السماء"، الذي يحكم العالم من قاربه هذا، ولا غرابة في ذلك فإنّ إله الشمس هو سيّد الآلهة أجمعين.

واعتقد المصريّ أنّ هناك ثعبانًا يلتفّ حول قرص الشمس الذي يحمله الإله على رأسه. هذا الثعبان هو الخادم الخطر الذي يُحرق أعداءه بأنفاسه الناريّة، وهو نفسه الذي يزيّن جبين الملك الأرض والذي يُعرف باسم الصلّ، والذي اعتُبر كرمز لأسمى ما وصلت إليه القوّة. أمّا الأعداء الذين يقابلهم الإله أثناء رحلته فهم بطبيعة الحال السحب، ولكنّ "رع" يمزّق الصواعق ويبعد الأمطار ويفتّت البرد. وامتاز الثعبان "أبو فيس" بأنّه أشدّ أعداء الشمس قوّة وخطرًا، لذلك اعتُبر رمزًا لكلّ مكروه دنيء، وبطبيعة الحال لن تستطيع هذه الأعداء أن تمسّ الإله بمكروه، فالآلهة الأخرى تدافع

عنه، كما تصاحب القارب تلك السمكة التي تتنبأ بما سيحدث والمسمّاة "أبدو"، فتسارع بتبليغ أصحاب القارب بدنوّ أحد الأعداء منه. وتصل الشمس في المساء آمنة مطمئنّة إلى الغرب فترحّب بها إلهة الغرب التي تقف لاستقبالها عند سلسلة الجبال التي اعتقد المصريّ أنّها بمثابة الحدود التي تفصل عالمه عن العالم السفليّ. عندئذ تترك الشمس قارب النهار وتستقلّ قارب الليل وقد خيّم عليه الظلام، وذلك لتبدأ رحلة الليل مخترقة العالم السفليّ. وهناك يضيء "رع" للإله الكبير الذي يحكم هذا العالم المظلم، كما يضيء للموتى المساكين الذين يعيشون في كهوفهم والذين يحيّونه بقلوب تملؤها السعادة، رافعين أذرعهم مبتهلين باسمه شاكين له كلّ أحوالهم... فتفتح عيونهم عند رؤيتهم له كما تدقّ قلوبهم فرحًا عند أوّل نظرة يلقونها عليه. أمّا هو فيستمع إلى جميع طلبات أولئك الذين يضطجعون في توابيتهم، فيخفّف من آلامهم ويقلّل من عذابهم. ويملأ أنوفهم بنسيم الحياة. ولمّا كان نسيم الشمال الذي ينتشر في دنيا الأرض لا يصل إلى دنيا الموتى "هادس"، تصوّر المصريّ الموتى متجمّعين حول الحبل المربوط في مقدّمة القارب، يتعاونون على سحبه، كما يحدث على الأرض عندما تقف الرياح ويسحب المصريّون سفنهم على سطح النيل.

عندما يترك الإله في الصباح العالم السفليّ، يغتسل أوّلاً في بحيرة "إيارو"، حتّى يزيل عن نفسه ذلك اللون القاتم المدلهمّ الذي اكتسبه في الليل، ويتقدّم متحلّيًا "بملابسه الحمراء" إلى باب السماء، ثمّ يظهر في ذلك الجبل الخرافيّ المدعوّ "بشّ" ويهب كلّ الكائنات الحياة والسرور، وإذا كنّا نلاحظ كيف تقفز الأسماك في الصباح وكيف تضرب الطيور أجسامها بأجنحتها في الصباح، فما هذا إلاّ لاعتقاد المصريّ بأنّ هذه المخلوقات تحيّي إله الشمس، وهذا هو الذي يدعو القردة إلى الصياح عند شروق

الشمس، فهم يرتّلون أناشيد تمجّد هذا الإله[1]، وكذلك يفعل البشر فهم يرفعون أيديهم إلى أعلى ويبتهلون إلى الشمس[2].

على هذا النحوّ تمثّل المصريّون ما يحدث للشمس في كلّ يوم، لكن هناك صور أخرى غيرها ترجع في نشأتها إلى أقدم العصور، ولا تتّفق مع تلك التي شرحناها في ما سبق. فهناك الصورة التي تخيّلها المصريّ عن ولادة الشمس. ففي المساء تدخل فم إله الشمس، ثمّ تعبر أثناء الليل جسمها، وتولد في الصباح. وهناك فكرة أخرى تقول إنّ الشمس إذا اختفت في الغرب تظهر من جديد في الشرق، ولكن لكي تصل إلى هذا الشرق يجب أن تعبر النهر، ويلزمها لذلك حزمتان من البوص لمساعدتها على السباحة. ومن الغريب أنّ المصريّ ولو أنّه تخيّل الشمس في حركة مستمرّة بين الشرق والغرب، وبالعكس طوال النهار والليل، فإنّه رأى أيضًا أن يجعل لها مسكنًا في جزء من أجزاء ماء السماء سمّاه "آخت"، وتصوّره، لأول مرّة، كجزيرة وسط ماء السماء، وفي ما بعد، فسّره بالمكانَين حيث تغرب وتشرق الشمس، ومن أجل ذلك اعتدنا نحن، إمّا عن خطأ أو عن صواب، أن نترجم هذه الكلمة بالأفق، وكنتيجة لذلك سُمّيت الشمس باسم "حور أختي" أي "حوريس الأفق"، ومن ثمّ اعتُبر هذا الإله واحدًا من بين الآلهة الرئيسيّة وصُوّر على شكل إله ذي رأس الصقر وعُبد في هليوبوليس. ويتحدّثون، في بعض الأحيان، عن قصر خاصّ للشمس في السماء مكانه في حقول "إيارو" أو في المنطقة الباردة، ويُطلقون على هذا القصر اسم "قاعة آتوم" أو "دار حوريس"، ويعتبرونه بمثابة قصر حاكم العالم، تتردّد عليه الآلهة ليتلقّوا الأوامر، كما

---

١ ـ ذُكرت هذه المعلومات في وثيقة ترجع إلى العصر المتأخّر، لمّا ابتهالات القردة فذُكرت في وثيقة قديمة، والدليل على ذلك أنّ القردة لم تُعرف في البيئة المصريّة إلاّ في العصور التي سبقت العصر التاريخيّ واختفت بعد ذلك.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣٤ ـ ٣٩.

يبقون فيه حيث تقدّم لهم المآكل، تمامًا كما يحدث في بلاط ملك الأرض بالنسبة إلى رجالات الدولة. ومن الصور التي تخيّلها المصريّ عن الشمس، في المعتقد القديم، أنّه جعل من إله السماء معبودًا له عينان متّقدتان. و"حوريس" نفسه لم يُذكر إلاّ نادرًا عندما كثر الحديث عن "عينَيه اللتَين يحملهما ما في جبينه" وهما الشمس، وسُمّيت عين الشمس، والقمر وسُمّي عين حوريس. وغالى المصريّون في نسج الأقاصيص المختلفة عنهما، مع أنّها لا تمتّ بصلة معقولة بهما، لكنّ المصريّ تعلّق بها وردّدها. وبطبيعة الحال ربط المصريّ بين هاتَين العينَين وبين جبين الإله الذي تصوّره ككائن خطر لأنّه يُحرق أعداءه. من هنا ربط المصريّ بين الجبين وبين الثعبان. وما دام هناك عينان فمن الطبيعيّ أن يكون هناك ثعبانان. وقالوا: "الإله له عينان على هيئة ثعبانَين". وفي بعض الأحيان كانت سفينتا الشمس توصفان بذلك أيضًا. وقد اعتَبر المصريّ الثعبان رمز القوّة للملك، وبما أنّ الملك يضع تاجَين على رأسه، واحد يمثّل الجنوب والآخر يمثّل الشمال، رأى المصريّ مقارنة هذَين التاجَين، بما لهما من قوّة سحريّة، بالثعابين، بل وأيضًا بالعينَين. كما اعتبر المصريّ أيضًا أنّ التاجَين كإلهتَين حاميتَين للملك هما العقابُ والثعبان اللذان اعتبرهما أيضًا في مناسبة أخرى مساويَين للثعابين. ثمّ ساوى هاتَين الإلهتَين الحاميتَين للملك بعينَي الشمس. وأصبحت عين الشمس لقبًا يُعطى لكثير من الآلهات الكبرى، فمثلاً "حاتور" إلهة الشمس مُنحت هذا اللقب مع ملاحظة عدم وجود الصلة بينهما. وكنتيجة للجمع بين العين والثعبان والتاج وعدّة آلهات حدث اضطراب وخلط عجيب في الديانة المصريّة، إذ يقولون مثلاً إنّ "رع" أرسل عينه لتقتل أعداءه"، أو إنّ الثعبان الذي يحمله "رع" فوق جبينه يغذّي الملك الميت من ثديه، أو إنّ الآلهة الحامية لمصر العليا هي أيضًا التاج ثمّ عصابة الرأس للملك التي، في واقع الأمر، تمثّل على هيئة العقاب، وهي أيضًا بقرة وحشيّة، وكذلك يمثّلونها على

هيئة امرأة بثديَين كبيرَين بارزَين يرضع منهما الملك. وهناك عدد آخر لا يُحصى من هذه الأمثلة التي يجب ألاّ ننظر إليها بعين الجدّ، لأنّها تمثّل الإزادات التي لم يُعرها معظم المصريّين أهميّة كبرى، ولا يجب علينا نحن أن نفكّر فيها طويلاً.

ووجّه المصريّ أهميّة كبرى نحو القمر وعين حوريس التي كانت تصغر رويدًا رويدًا ثمّ ما تلبث أن تنمو بشكل عجيب حتّى تكتمل، وقد فسّر خيال المصريّ هذا التغيير بأنّ هناك كائنًا شرّيرًا يعتدي على العين فيجرحها، ثمّ يسارع كائن آخر طيّب فيعالجها، وكان هذا الإله العدوّ هو "سِت"، وعداؤه لحوريس استمرّ مع مرور الزمن، أمّا الإله الطيّب فهو "تحوت" على شكل الطائر "إيبس" الذي أصبح في ما بعد هو نفسه إله القمر، بل "الممثّل الليليّ لرع"، "الثور بين النجوم". وعين حوريس هذه، أو كما سمّوها "الصحيحة"، لعبت دورًا مهمًّا في معتقدات المصريّين دون أن يُفهم السبب الذي أعطاها هذه الأهميّة، بل تطوّرت وأصبحت رمزًا مقدّسًا استعمله المصريّ كتميميّة ملأت نماذجها متاحف العالم، وهي في هذه الحالة تُسمّى عين "أودجات". بل أكثر من ذلك، فقد استُعملت على نحو غريب مؤدّاه أنّه ما دامت العين الصحيحة تمثّل القمر الكامل، فقد رأى الموظّفون القائمون على كيل الحبوب أن يقارنوا بين عين "أودجات" ووحدة الكيل الكاملة، بل قسّموا هذه الوحدة إلى أقسام مختلفة مثل النصف والربع والثمن وغير ذلك، ورمزوا لها بالأجزاء المختلفة لهذه العين في كتاباتهم، وهكذا نرى ظاهرة جديدة وهي استعمال العناصر الدينيّة البحتة في أغراض يوميّة جافّة[1].

وعرف المصريّ عن النجوم أنّها أيضًا تسبح فوق اليمّ الموجود في بطن "توت"، وكانت إلهة السماء هذه تلدها من جديد في كلّ ليل، وفي الصباح تدخل هذه النجوم في

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤١ - ٤٣.

فم الإلهة. وتنوّعت النجوم، فأحسنها تلك التي سمّوها "التي لا تنعدم"، أي النجوم التي تبقى دائمًا مرئيّة. وهناك نوع ثان سمّوه "التي لا تستريح"، واعتُبرت من النجوم الراقية نظرًا لأنّها، مع التي سبقتها، لها الحقّ في أن تصاحب إله الشمس في قاربه. كما اعتُبر نجم الصباح من النجوم المقرّبة إلى إله الشمس، فهو الذي يحيّي الإله في الصباح، والذي يشرق بعد "رع"، والذي يغسل الشمس في الصباح، كما أنّه كان النجم الوحيد الذي يقدّم الطعام إلى الشمس، ولقّبوه بهذه المناسبة بـ"صاحب الخطوات الواسعة الذي يُحضر كلّ يوم طعام الطريق إلى رع". كما كانت هناك نجوم حقيرة سمّوها "المتعفّنة" أو "تلك التي تسقط على الأرض من السماء".

من هنا برزت الفكرة عن بعض النجوم أنّها تحمل صولجانًا ترتكز عليه. وكان هناك نجمان على غاية الأهميّة، تبوّءا مكانًا بارزًا في ديانة المصريّين هما: "سوتيس" وهي "الشعرى اليمانيّة" التي نسميّها "النجم SERIUS" أو "نجم الكلب"، وهو يظهر في آخر شهر تمّوز (يوليو) في السماء صباحًا، فيكون ظهوره بمثابة البشير لوصول الفيضان، لذلك اعتُبر رمزًا لبدء السنة الجديدة للمزروعات التي ترمز لنموّ النبات نتيجة لخصوبة الفيضان. أمّا النجم الثاني فهو "ساح" صاحب الخطوات الواسعة، الذي يمكن أن يكون هو النجم "أوريون ORION"، وكان ظهوره رمز بشير لحصاد العنب، ويوافق في مصر شهرَي حزيران (يونيو) وتمّوز (يوليو)، أي بمعنى آخر يوافق أوّل العام الجديد. من هنا اعتُبر هذان النجمان من بين الكائنات المقدّسة، وجعل المصريّون منهما إلهَين عظيمَين. وحدث هذا عندما تخيّل المصريّ دنيا جديدة للموتى في السماء، وترتّب علَى ذلك أن أصبح ذلك الجيش العرمرم من النجوم مثل الموتى الذي حمل كلّ منهم مصباحه وأخذ يتجوّل في السماء. أمّا نجم الجوزاء ORION، فاعتُبر إله الموتى، أي كأوزيريس. وأصبحت "الشعرى اليمانيّة" هي زوجة

"أوريون"، أي "إيزيس". وتتمّ الحلقة بأن أفردوا مكانًا بين هؤلاء لأحفاد إيزيس هم "أولاد حوريس[1]".

الآلهــة

الكونيَّة

بمثل هذه الأساطير تصوّر الناس في مصر القديمة قصّة الخلق والطوفان، وحقيقة الإله الخالق والآلهة المساعِدة التي تنظّم شؤون الكون. وكانت الآلهة الكونيّة كما يقول العالم المصرولوجيّ أنور شكري هي أبرز المعتقدات الإلهيّـة عند المصريّين: "حيث للعناصر الكونيّة في أرضهم قوّة ووضوح وشخصيّة تؤثّر تأثيرًا ضخمًا على كلّ شيء. ينظر المصريّ فيرى حوله سماء صافية لا تكاد تغيم، وشمسًا ساطعة تشرق مرسلة شعاعاتها الباهرة وهي تنطلق في تؤدة ملك عظيم لتحيط بالكون مشرقة عليه من الشرق إلى الغرب. ونجومًا زاهية تضيء الليل وقد تحدّدت خطاها واتّضحت مسالكها، ونيلاً يفيض في موعد ثابت كلّ عام يرتقب مجيئه ويثير الرهبة إلى تعدّي حدّه، ويروي الأرض فينمو النبت ويأكل السكّان ويكتسون.. كلّ ذلك إلى جوار صحاري قاحلة تحيط بالوادي ممتدّة إلى ما لا يحدّه طرف، باعثة الرهبة في قلب مَن يجوب فيافيها ومتاهاتها. من هنا لم يكن عجيبًا أن تتعلّق قلوب المصريّين بمظاهر الطبيعة وتتوه بينها خيالاتهم. فيروا في الشمس والقمر والأرض والسماء والماء والهواء آلهة يرهبون جانبها ويقدّسونها حيثما تكون دون الحاجة في البداية لرمز يكنّ عنها، أو معبد يشير لعبادتها، على غير ما كانوا يصنعون مع المعبودات المحليّة. ومع التقدّم السياسيّ وما صاحبه من تقدّم في التفكير الدينيّ لم تعد أسر الآلهة المحليّة

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤١ ـ ٤٣.

الأولى تتّفق وقيام حكومة في البلاد ذات سلطان شامل، كما لم تعد تكفي لتفسير نظام الكون وخلق العالم على صورة منطقيّة مقبولة. لذلك ابتدع المفكّرون من رجال الدين نظريّات دينيّة اختاروا عناصرها من الآلهة الكونيّة، كما أضافوا في بعض الأحيان من الصفات الكونيّة على الإله المحليّ ما كان يرتفع به إلى مصاف الآلهة الكونيّة العظيمة[1].

الإلــــه

حوريس

لم يكن إله الشمس حوريس الممثّل برأس الصقر، والمسمّى أيضًا "حور آختي"، والموجود بين آلهة هليوبوليس، مشهورًا وقويًّا في هذه المدينة كما كانت حالته في أماكن أخرى من مصر. فالموطن الأصليّ لحوريس هو الدلتا، من هنا رأى فيه البعض الإله القوميّ للدلتا، ويقابله في هذا الدور الإله "سِت" الإله القوميّ لمصر العليا. ويتمثّل في هذَين الإلهَين حاكما مصر، ولو أنّ حوريس وحده يُعتبر هو الحاكم على مصر مجتمعة، نظرًا لأنّ البعض يرى أنّه في وقت ما حكمت مصر السفلى مصر العليا، وما دام حوريس قد أصبح إلهًا للقطرَين فمن الواجب أن تكون له في مصر العليا مدينة، وكانت هذه المدينة تقع بالقرب من العاصمة وقتئذ وسُميّت "نخن"، أو كما سمّاها الإغريق "هيراكونبوليس"، أي مدينة الصقر.

أقدم معبد لحوريس بُني في مدينة "بهدت" أو "بحدت" وهي دمنهور الحاليّة، ومن أجل ذلك سُمّيت بِهدتي أو بِحدتي؛ أي هو الذي من بحدت. وفي الوقت نفسه كان هناك مدينة في مصر العليا سُمّيت بالإسم ذاته وهي إدفو الحاليّة، وكان لها أيضًا "حوريس

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٣٤ ـ ٣٥.

بحدتي"، أي هو الذي من بحدت، أي هو الذي من إدفو. وكان هذا الإله يصوّر في إدفو على شكل الشمس المجنّحة. وكما يبدو ليس هناك أيّ شبه بين صورة هذا الإله وصورة حوريس الحقيقيّة. فإدفو صُوّر على شكل قرص الشمس بجناحَين كبيرَين بألوان مختلفة، وُصفا بأنّهما جناحا الريش المختلف الألوان اللذَان تتمكّن بهما الشمس من أن تطوف السماء. ولا يزال المعبد الخاصّ بهذا الإله قائمًا حتّى اليوم ومكتملاً كما تركه ملوك العصر اليونانيّ الذين أرجعوا إليه عظمته وأعادوا بناءه. وصورة هذا الإله الخاصّ بإدفو نعرفها جيّدًا إذ نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر لأنّها تُعتبر حارسًا يحول دون دخول الأشرار المعبد. وهناك آلهة أخرى سُمّيت بهذا الإسم يخصّ البعض منها إله الشمس، أو نجمًا في السماء، ومن هذه الحالة نستطيع أن نفهم هذه التسمية، ويخصّ البعض الآخر أشياء أو معبودات لا تمتّ بعلاقة للإله حوريس. وهناك حوريس آخر نال شهرة بين المصريّين، وهو ذلك الإبن الذي فقده أباه أوزيريس والمعروف باسم "حور سايزيس" أي حوريس بن إيزيس الذي ورد اسمه في قصّة أوزيريس المشهورة. وهناك أيضًا حوريس المحارب في مدينة "ليتوبوليس" وفي أماكن أخرى، واسمه "حوريس الكبير" أو "حوريس العجوز" مقابل "حوريس الرضيع" إبن إيزيس، وليس من شكّ في وجود علاقة بين حوريس المسمّى "كنتشتاوي" معبود "أتريبيس" في الدلتا وبين حوريس "سبودو"، وكلا الإلهَين عُبدا في شرق الدلتا في المنطقة التي كان يخترقها الطريق الموصل إلى فلسطين. وعلى ما يبدو فإنّه لم يكن هناك إله كبير لم يُرِد أن تأتيه الفرصة دون أن يغتنمها للتمثّل بحوريس أو التسمّي باسمه[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٥٣ ـ ٥٤.

الإلاهات

السماء

مثلما كانت الحال مع الآلهة المسمّاة "حوريس"، نجد الأمر نفسه مع آلهة السماء التي لم تحظَ بعبادة منظّمة منتشرة عندما كان اسمها "نوت"، مع أنّ "نوت" ظهرت منذ عصور قديمة متقدّمة بشكل نصف آدميّ ولها يدَان وقرنَان طويلان، ثمّ هناك ذكر لكاهن الإلهة نوت ورد في زمن الدولة القديمة، والدولة الوسطى، وفي العصر المتأخّر. وعلى العكس من ذلك فقد حظيت بأسمى درجات التقديس عندما سُمّيت "حاتحور". وهذا الإسم "بيت حوريس" الموجود في السماء، يرجع في أصله إلى النظريّة القديمة الخاصّة بالصقر حوريس الذي يحلّق في السماء. وقد مُثّلت هذه الآلهة بقرنَي البقرة وأذنيها، وأحياناً برأس بقرة كاملة، وقد مُثّلت على شكل بقرة كاملة في المقصورة المحفورة في الصخر في معبد "الدير البحري" وهي تُرضع الملكة الصغيرة. وهذه الصورة ترجع إلى العقيدة التي تصوّر السماء على شكل البقرة، وفي ما بعد أخذت هذه الآلهة تفقد شيئاً شيئاً مميّزاتها الخاصّة بإلهة السماء. أو كما يقول المصريّون عين الشمس التي تحملها هذه الإلهة بين قرنَيها، وعلى هذا الأساس سُمّيت حاتحور نفسها "بعين الشمس" وأصبحت هذه التسمية من بين ألقابها المشهورة. وبعد ذلك احتفظت حاتحور ببعض مميّزاتها القديمة، وكان من بينها أنّها أصبحت سيّدة الإلهات. كما احتفظت بدورها المهمّ الذي يجعل منها ذلك المكان الذي تختفي فيه شمس المساء، وهذا هو السبب في أنّها أصبحت إلهة الغرب التي تقف وراء جبل عالٍ وتسمح للشمس وللموتى أن يدخلوا الدنيا السفلى. وكذلك جعل المصريّ من حاتحور إلهة للحبّ، وقد ظهر ذلك في عصر الدولة الحديثة في أغاني الحبّ، وأصبحت الإلهة الطروب عند النساء وسُمّيت "الذهب". ويعتبر البعض أنّ هذا هو السبب الذي من أجله

سمّاها الإغريق في العصور المتأخّرة الإلهة "أفروديت". وقامت النساء المصريّات على خدمتها، وأحيين حفلاتها بالرقص والغناء والموسيقى. وقد قامت الإلهة "حاتحور" بزيارة حافلة بالبهجة للإله حوريس إله إدفو في العصر البطليميّ، وتمّ الاحتفال في هذه الزيارة بالزواج المقدّس بين الإلهة حاتحور والإله حوريس[1]. إلى ذلك صُوّرت حاتحور على أنّها إله الحرب أيضًا، ويرجع هذا الأمر إلى تسميتها بعين الشمس التي تحارب وتناضل أعداء الإله "رع". وبما أنّ حاتحور كانت مقرّبة إلى قلوب النساء فمن البديهيّ أن تصبح أمًّا ذات طفل، فأعطوها ولدًا إلهيًّا هو "ايحى" الذي يجلس في حجرها[2]. ولعلّ ذلك كان تشبّهًا بحوريس الطفل ابن إيزيس. ومن الملاحظ أنّ "ايحى" لم يتمتّع مطلقًا بتلك الشهرة الشعبيّة التي تمتّع بها حوريس الطفل، ومع ذلك فقد تمكّنت حاتحور من أن تعوّض هذا النقص عند الشعب المصريّ بأن أصبح لها عدّة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقات الشعب في العصور المتأخّرة، نقصد بذلك "الحاتحورات السبع" اللاتي كنّ مثل "ايحى" يُدخلن السرور على قلب حاتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص، وكنّ يحمين الإنسان ويتنبّأن بمستقبل كلّ مولود جديد.

كانت مصر العليا الموطن الأصليّ لحاتحور، وسُمّيت في أطفيح "الأولى بين البقرات". وهذه التسمية ترجع إلى الدور القديم الذي لعبته في شكلها الحيوانيّ المعروف. وإلى الجنوب من معبد بتاح في ممفيس عُبدت حاتحور أخرى اسمها أو لقبها "سيّدة الجميزة"، ولم يكن مركزها أكثر من إلهة شعبيّة انتشر نفوذها بين السيّدات، وهي لم تكن في أوّل الأمر إلاّ شجرة مقدّسة أحاطها المصريّ القديم بالكثير من العناية والاحترام، خاصّة في مصر الحديثة. ولحاتحور معبد كبير موجود في دندرة، مكان

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٧٥.

٢ - LACAU, *TEXTES RELIGIEUX*, P. 13, 132.

عبادتها، وهو يرجع إلى العصر اليونانيّ مثل معبد إدفو وغيره من المعابد. ولقد بلغ انتشار عبادة حاتحور بين المصريّين حدًّا جعلهم يطلقون اسم حاتحور على كلّ إلهة أجنبيّة. واعتُبرت الإلهة "موت" كسيّدة السماء أيضًا، وعُبدت في طيبة واسمها يعني الأمّ، ولُقّبت في النقوش التي ترجع إلى عصور متأخّرة بـ "أمّ الشمس" التي تشرق منها. أمّا الدور العاديّ الذي تلعبه "موت" فقد كان مماثلاً لإلهة الحرب "سخمت". من هنا أصبحت "موت" تُرسم برأس أسد. وعندما أصبحت طيبة عاصمة البلاد حظيت هذه الإلهة، كزوجة لآمون إله الدولة، بأسمى درجات الشهرة والتقدير، ومُثّلت على شكل ملكة تزيّن رأسها بالتاج الذي كان يلبسه حكّام هذه المدينة، ومُثّلت أيضًا كالعقاب يحلّق في السماء. ويكتب المصريّ كلمة "موت" بمعنى الأمّ بصورة "العقاب" وهي نفس الصورة التي ترمز للإلهة "موت". وما من شكّ في أنّ المصريّين قارنوها في تلك الصورة بالإلهة "نخبت" التي تمثّل شكل العقاب والتي لم يكن لها اسم معيّن، فهي لا تسمّى إلاّ التي تتبع "مدينة نخب"، وهي العاصمة القديمة لمصر العليا. وعندما أصبحت "موت" إلهة للعاصمة اعتبروها حامية حكّام هذه المدينة تحلّق فوقهم وتدفع عنهم الشرّ. وتقدّم هذه الإلهة التي يُطلق عليها اسم "البيضاء" أي التاج، المساعدات لكلّ أمّ عند الوضع. وفي مصر السفلى كان الملك يحتمي في إلهة أخرى اسمها "أوتو"، أو كما سمّاها الإغريق خطأً "بوتو"، ورُسمت على شكل ثعبان، من هنا أتت العادة عند المصريّين بتصوير هاتَين الإلهتَين الحاميتَين للملك تارة على شكل ثعبانَين، وطورًا على شكل عقابَين. وقد اندمجت هاتان الإلهتان في ذلك الخليط الكبير من الآلهة التي صُوّرت على شكل ثعابين أو عيون، كما اندمجتا في التيجان الملكيّة التي أُلّهت عند المصريّين وسُمّيت باسم "سيّدات السحر"[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٥٨ ـ ٥٩.

وأشهر الإلهات المصريّة هي "إيزيس" التي نشأت في الدلتا أول الأمر، ويُستدلّ على أنّ هذه الإلهة كانت تُعتبر مساوية للإلهة "بوتو". وترجع في أصلها إلى إلهة سماويّة على ما يبدو، ويمكن أن يعني اسمها "مسكن" كما اقترح ذلك ماير. وقد ورد ذكرها في قصّة أوزيريس، ومنذ ذلك الوقت فقدت طابعها هذا وبقيت محتفظة بصفتها كزوجة للإله أوزيريس والأمّ الرؤوم لحوريس. وبما أنّ ابنها كان إله الشمس فهذا يدلّ على أنّ إيزيس، في الأصل وفي وقت ما، كانت تُعتبر إلهة السماء التي تلد الشمس مرّة كلّ يوم.

أمّا الإلهة "نايت" الكبيرة التي كان موطنها الأصليّ مدينة "سايس" أو "صالحجر"، فقد لعبت أدوارًا مختلفة في الديانة المصريّة، إذ كانت تمثّل إلهة الحرب ويُرمز إليها بقوسَين ودرع، وكان من ألقابها "التي تمهّد الطريق"، وهذا ما يدلّ على أنّها كانت تتقدّم الملك في المعركة الحربيّة، وفي الوقت نفسه كانت تزيّن رأسها بتاج الوجه البحريّ، أي أنّها تُعتبر ممثّلة لهذه البلاد، ولكنّها كانت أيضًا إلهة الفيضان التي تسكن شواطئ النيل حين ترقد التماسيح على شواطئه الطميّة. ولأنّ المصريّ كان يرى أنّ الكون هو المحيط الذي خرجت منه بقرة السماء، لذلك سُمّيت الإلهة نايت "البقرة التي ولدت الشمس"، أو "الأمّ التي ولدت الشمس"، والتي ولدت لأول مرّة عندما لم يولد أيّ شيء آخر. ومن الغريب أنّها عُبدت في العصور القديمة من النساء كحاتحور، فقمن على خدمتها وسُمّين بأسمائها. وقد أُطلق اسم هذه الإلهة على خمس عشرة زوجة من بين زوجات أحد ملوك الأسرة الأولى، وكنّ قد بلغن الخمسين عددًا[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٥٩ ـ ٦٠.

الآلهـات

اللبوءَات

إنّ الإلهات المصريّة الكثيرة التي ظهرت برأس أسد أو لبوءة، كـانت فـي الأصـل كائنات مخيفة تبيد الأعداء، وبما أنّ مصر بلد يسوده السلام، فقدت هذه الكائنـات شيئًا فشيئًا صفاتها السالفة. كالإلهة "باخت" التي عُبدت في بني حسن، أو الإلهة "محيت" ربّة "ثيس" اللتَين لم تكونا سوى إلهتَين في مناطقهما مثـل جميـع الإلهـات الأخـرى. فالإلهـة باخت كانت تسكن الصحراء الشرقيّة وتجول في وديانهـا، وتسيّر سيول المطـر التـي تحدث بعد العاصفة وتدفعها إلى الصحراء. أمّا الإلهة "تفنت" فقد احتفظـت فـي قصّتهـا بخصبها واتّخذت لنفسها صفة أخرى في علاقتها مع زوجها الإله "شو"، ومعنـى اسـمه "الفضاء"، الذي اعتُبر عند قدماء المصريّين إلهًا للهواء الذي يحمل السـماء. وقـد عُبـد الإثنان على شكل الأسد وزوجته في ليونتوبوليس في الدلتا. وشاركت تفنت زوجها فـي أعباء مهمّته السلميّة وعاونته في حمل الأفق. وقد احتفظ الإله "شو" لنفسه بمهمّة أخرى في القصص الإلهيّة وسُمّي من أجل ذلك باسم "أونوريس"، وهذه المهمّة الجديدة جعلـت منه إلهًا شعبيًّا حظي باحترام كبير وخاصّة في عصر الدولة الحديثة.

أمّا الإلهة "سخمت" القويّة التي عُبدت في منف والتي مُثّلت على شكل لبـوءة، فقد احتفظت بشخصيّتها المخيفة[١]. واعتُبرت كممثّلة لملكيّة مصر العليا. وكانت تُعتبر إلهـة المعارك الحربيّة، وقد مثّلت بالصلّ الملكيّ الذي يبصق النـار علـى الأعداء. وكـانت الإلهة "سخمت" تختلط أحيانًا مع الإلهة "باستت"، ذلك لأنّ الفنّ المصريّ لـم يكـن يميّز بوضـوح بيـن رأس القطّـة ورأس الأسـد، بينمـا صفـات "باستت" مختلفـة عـن صفـات

---

١ - LACAU, *TEXTES RELIGIEUX*, P. 101.

"سخمت"، وشعر المصريّون بهذا الاختلاف فكانوا يتحدّثون عن "باستت" وكأنّه شخص ودود، وعن "سخمت" وكأنّه شخص مخيف، وعلى ذلك كانت "باستت" أقرب الآلهة إلى حاتحور إذ اعتُبرت إلهة المرح، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى ويصوّرونها على شكل آدميّ برأس قطّة، تحمل بإحدى يديَها سستروم الراقصات، وفي اليد الأخرى صورة رأس الأسد الخاصّ بالإلهة "سخميت" وتتدلّى من ذراعها سلّة صغيرة، ولعلّ صورة رأس سخميت التي تحملها في يدها تدلّ على أنّ هذه الرأس المخيفة توافق مزاجها. واسم هذه الإلهة لا يدلّ على معنى خاصّ، بل يدلّ على أنّها إلهة مدينة "باست" أو "بوباستس" التي تقع حاليًا في جنوب الدلتا بجوار الزقازيق.

وهناك إلهة أخرى ذُكرت على أنها أخت إيزيس هي "تفتيس" التي لا نعرف شيئًا عن أصلها، ومعنى اسمها "سيّدة المنزل"، وأحيانًا كانت تُسمّى إلهة الكتابة. وكذلك كانت الحال في الغموض الذي يكتنف إلهة العقرب "سلكت". وهناك إلهتان هما "ساتيس" و"أنوكيس" كانتا تسكنان جزر الشلاّل[1].

الإلـــــه

آمـــون

آمون ومعناه الاشتقاقيّ "السرّيّ" و"الخفيّ"، وهو إله قد انفصل عن آلهة هرموبوليس، أو مدينة شمون، أو الأشمونين. فما دعا هذا الإله إلى الخروج وما هي المراحل التي مرّت بها عبادته قبل أن تستقرّ في طيبة، في مصر العليا؟ جلّ ما نملكه عن ذلك هو أنّه كان لا يزال شبه مغمور، في نطاقه الجديد، حين توصّل أحد عبدته

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٦٢ ـ ٦٣.

المحلّيين، "أمونمحت" ومعناه "آمــون فــي الطليعــة" إلــى عــرش الملــك. وقــد أسّــس هــذا الفرعون السلالة الثانية عشرة، فعظم شأن آمون بسرعة تكاد تكون مــن المعجـزات إن نُظر إليها من الناحية الدينيّة دون غيرها. ولكن يستحيل تفسير هذه السرعة إن لم تؤخذ بالاعتبار القوّة التي تمتّعت بها السلطة الفرعونيّة حتّى علــى الصعيد الروحــيّ، والتــي هي أبرز مظهر من مظاهر هذه السلطة. فقد كــان آمــون، فــي الواقــع، الإلــه العــائليّ للملوك الذين تعاقبوا علــى عهد الأمبراطوريّتَين الوسطى والحديثـة، وبعدهمـا أيضًـا، طوال الألف الثاني تقريبًا. فغدا مع الزمــن، ومغــالاة فــي تصويـره ماديًّـا، والدًا للملك الحيّ. كما أنّ عقيدة "الزواج الإلهيّ" أي اتّحاد الفرعون جنسيًّا بوالدة الفرعون المقبـل، قد بلغت أوج الكمال في عهد "حتشبسوت" (حوالى ١٥٠٠ ق.م) في الكتابات والنقوش التي تزيّن جدران معبد الدير البحــريّ. وقـد دامـت هـذه العقيـدة باسـتمرار حتّـى عهـد البطالسة. وكان من المفروض أيضًا فــي الإلـه أن يسـهر شـخصيًّا علـى طفولـة الملك وتربيته، وعلى اختياره وتعيينــه خلفًـا لأبيـه المزعـوم، وإلهامـه السـلوك السـويّ وسـط أعباء حكمه، والإسراع إلى نجدته في القتال. فلا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حقّقها آمون. فما لبث، في أوائل الأمبراطوريّة الوسطى، أن أصبــح إلـه منطقـة طيبـة. ثمّ أُشرك بـ "رع" ليكوّن معه "أمون رع" الذي استأثر بامتيازات الإله الشمس. وقد لُقّب "بملك الآلهة". ثمّ أُلحقت به، بالإضافة إلى أسرته التي اختير أعضاؤها بين آلهة طيبـة، حاشية من آلهة آخرين تباين عددهم حتّى بلغ الستّة عشر أحيانًا. ولكـنّ كـلّ ذلـك ليـس دليلاً على وجود نزعات توحيديّة. فآلهة مصـر العديـدون يدومـون باسـتمرار، ولكنّهـم يخضعون لإله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقياد للفرعون كلّ كائن حيّ في البلاد[١].

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٩٥ ـ ٩٦.

الإله

مين

هو إله كبير عُبد في المنطقة الواقعة بين إخميم وقفط وبيـن طيبـة وأرمنـت، يُمثّل واقفًا وقضيبه منتصب، ترتفع على رأسه ريشتان عاليتان، رافعًا ذراعه الأيمن وقابضًا على السوط المثلّث الفروع، وكـان يُعتبر إلـه الإخصـاب الـذي يسـرق النسـاء وسيّد العذارى. وإذا كان هذا الإله قد أخصب أمّه فإنّ هذه الصفة يتميّز بها فـي الأصـل إلـه الشمس. وهكذا نجد أنّ الآلهة في مصر كانت تتّصف بصفات بعضهـا، ويؤثّـر الواحد منهم على الآخر. وإله الإخصـاب هـذا، الـذي سمّاه الإغريـق "بـان PAN"، كـان رمـزًا لخصوبة الأرض أيضًا. وتدلّ طقوس احتفاله الكبير على أنّها كانت بمثابـة شـكر علـى محصول زراعيّ طيّب. واعتُبر هذا الإله أيضًا ربّ البلاد الأجنبيّة الشرقيّة، وعُبد فـي جميع الأماكن التي اقترب فيها النيل من البحر الأحمـر فـي مصـر العليـا، حيث كـانت طرق القوافل تخترقها إلى البلاد الشرقيّة وإلى المناطق النوبيّة. وكان لزامًـا علـى كلّ مَن يودّ اختراق هذه الطـرق أن يتعبّد للإلـه "ميـن" لكـي يحميـه مـن القبـائل المتـبربرة "TROGODITES" التي كانت تجوب تلك المناطق، من هنا أصبح هذا الإلـه ربًّـا للصحـراء الشرقيّة صاحب اللازورد والكحـل والخضـاب وسيّد البـلاد الأجنبيّـة طـرًا، وصـاحب المكان المرموق في بلاد النوبة، وحامي طرق الصحراء. أمّا اليونانيّون فقد عبدوا هـذا الإله تحت اسم PAN EUHODOS أي الإله الذي يساعد على رحلة طيّبة. وقد عُثر له على تمثال يرجع إلى عصر مبكّر جدًّا رُسمت على حزامه أصداف وأفيال وجبـال، أي كلّ المظاهر التي يتعرّف عليها المسافر في طريق قفط ـ البحر الأحمر. ومن الملاحظ أنّـه من بين الطقوس الاحتفاليّة بالإله "مين" ظهور أحد المتبربرين في الوقـت الـذي يتسلّق فيه آخرون من جنسه قوائم خشبيّة مرتفعة. ويبدو أنّ أفرادًا من القبائل المجـاورة التـي

كانت تسكن الصحراء كانت تشترك بطريقتها الخاصّة في هذا الاحتفال. ولا يزال السبب الذي من أجله وُصف "مين" أنّه ينشر الرعب في السنة التي يحضر فيها غامضًا. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّ الإله "مين" كان يُعبد في وقت ما في طيبة، والدليل على ذلك وجود شبه بينه وبين الإله "كاميفيس" إله الإخصاب، ولقبه "ثور أمّه"، وبعد أن أصبحت مدينته عاصمة كبيرة للبلاد، اضطرّ هو أن ينزوي ليحلّ مكان إله جديد هو "أمون العظيم" الذي احتفظ ببعض صفات هذا الإله الذي سبقه، ولو أنّه في مجموعه يمثّل إلهًا آخر ذا صفات جديدة. أمّا الثور الأبيض الذي يمتّ بصلة إلى الإله "مين" فقد تُرك ولم يعد على علاقة مع الإله "أمون" في طيبة. ولو أنّ هذا الثور قد عُبد في العصور المتأخّرة تحت اسم "بوخيس" في المناطق المجاورة مثل "مدامود" و"أرمنت".

ومن آلهة طيبة: "مونتو"، الذي كان يصوَّر برأس صقر، وكان إلهًا للحرب، وقد اتّخذه الملوك رمزًا للانتصار في الحروب. وكان له معبد هُدم في القرن التاسع عشر وأُقيم مكانه مصنع للسكّر[1].

الإلــــه

سِــت

الإله سِت معبود الوجه القبليّ، ويمثّل كائنًا يخافه الناس ولا يحبّونه، ولهذا الإله صفات كريهة اشتهر بها في العصور الحديثة، وقد تميّز بها بعد أن اشترك اشتراكًا فعليًا في قصّة أوزيريس، إلاّ أنّه كان أيضًا، في أوّل الأمر، معبودًا يمثّل العواصف. فهو الذي يعلو صريخه في السماء، وصوته هو الرعد، وهو الذي يهزّ الأرض هزًّا،

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٦٧ ـ ٦٦.

وقد استعان المصريّ بصورته في لغته الهيروغليفيّة للتدليل على كلمة "عاصفة". ثمّ أصبح بعد ذلك المكان الذي يسلب القمر أي عين حوريس. وإذا كان سِت اعتُبر باستمرار العدوّ الأكبر لحوريس، فإنّ في هذه العداوة مرآة تعكس بعض الذكريات التي ترجع إلى عصر كان فيه ملوك مصر السفلى يتحاربون، تحت حماية إلههم حوريس، مع ملوك مصر العليا الذين كان يحميهم الإله "سِت". ثمّ اتّحد القطران في ما بعد، واعتقد الناس أنّ هذا الاتّحاد يعني انتشار السلام بين الإلهَين اللذَين أصبحا بمثابة إلهَي أو سيّدَي مصر. ويتبع سِت مصر العليا، بينما يتبع حوريس مصر السفلى. وكان حوريس أوفر حظًّا من "ست" لأنّ حوريس اعتُبر في الواقع إلهًا للدولة المتّحدة، بينما اختفى أخوه "ست" ولم يعد بذي أهميّة. وهناك لقب اختُصّت به الملكات اللواتي كنّ يُلقّبن بـ "التي ترى حوريست وست" لا يمكن تفسيره إلاّ بأنّ الإلهَين قد احتفظا بزوجة ملكيّة واحدة. ويظهر بوضوح في الألقاب الملكيّة انتصار حوريس على ست، وقد اعتاد المصريّ إذا أراد أن يُظهر انتصار الملك على أعدائه، أن يصوّره كصقر يقف فوق العلامة الهيروغليفيّة الخاصّة بالذهب. وهذه العلامة بالذات تُعتبر كمدلول للإله الخاصّ بمدينة "أمبوس" أي الإله "ست". ومعنى كلّ هذا أنّ حوريس يقف مزهوًّا بنصره على عدوّه. وأحيانًا نجد الإله "ست" معتبرًا رمزًا للقوّة كمحارب قويّ يعلّم الملك استعمال القوس والنشّاب. ثمّ كان هذا الإله يتمثّل بالإله "رع" فيحتفظ بثعبان يقف بجانبه أثناء الحرب. أمّا الحيوان الذي عبده الناس أوّل الأمر على أنّه الإله "ست" فهو غريب، لا يشبه الحمار بالرغم من أنّ المصريّين القدماء اعتبروه كذلك[1]، ومن

---

١ ـ وفي برديّة "إبريس" نجد أنّ الكاتب قد استعمل صورة "ست" كمخصّص للحمار، ولقد شاع هذا في العصور المتأخّرة، فمثلاً نجد في "باب العيد" في الكرنك حوريس يطعن حمارًا أمام أوزيريس، وهناك مقال يؤكّد على أنّ حيوان "ست" يُعتبر من الحيوانات الخرافيّة، فهو أقرب إلى الزرافة منه إلى الحمار.

المحتمل أن يكونوا قد تمثّلوا هذا الحيوان قصدًا كإله للأعداء. واستبدلوا ذنبه بسهم رشقوه في مؤخّرته. والغريب في هذا الحيوان هو لونه الأحمر، المكروه عند المصريّين، فقد كان أحمر اللون وعيناه حمراوتان، وما يصنعه من أعمال شريرة إنّما كان "أشياء حمراء[1]".

الإلــه

تحوت

الإله تحوت THOTH هو الإله الصديق الوفيّ للآلهة وبني الإنسان، عُبد في أوّل الأمر على شكل طائر "أبي منجل" الذي عُرف باسم "إيبيس" في الدلتا، ثمّ وجد لنفسه موطنًا في الأشمونين بمصر الوسطى، واعتقد الناس أنّه إله القمر، وأنّه يعيد هذا النجم إلى اكتماله بعد اختفائه، فيصبح هو العين الكاملة لحوريس. وهو الذي يدير الزمن، ويشرف على نظام العالم. ثمّ أصبح أيضًا المحاسب وكاتب الآلهة. ثمّ أصبح راعي كلّ الكتّاب في مصر لأنّ الكتاب كان موضع احترام الجميع، لذلك وُجد اسمه مسطورًا في كلّ من قصتَي "خلق العالم" و"أوزيريس". ونرى لهذا الإله صورة أخرى على شكل قرد مفكّر، لأنّ القرد كان يمثّل إلهًا آخر اندمج في الإله "تحوت" في ما بعد. ولم يكن تحوت هو الوحيد المعتَبر إلهًا للقمر، فالناس في "طيبة" عبدوا القمر أيضًا تحت إسم الإله "خونسو" ومعناه الذي يجوب السماء، ولقد قصد فعلاً أن يكون هذا هو المعنى للإسم، وصُوّر على شكل طفل آدميّ، ويرجع ذلك إلى أنّه أصبح ابنًا للآلهة المحليّة التي تمثّل السماء، وهي "موت". وقد نظر المصريّون إلى الإله تحوت كاتب الآلهة على أنّه مخترع الكتابة.

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٦٧ ـ ٧٠.

الإلـــــــه

أوزيريس

يرى بعض المؤرّخين أنّ الإله "أوزيريس" أو "أوزوريس" هو محور الديانة المصريّة. فهو لم يكن إلهًا عظيمًا في أول الأمر، لكنّ قصّته وعلاقته بالحياة والموت جعلته يحتلّ مكان الصدارة بين الآلهة، فأصبح من أهمّ الآلهة المصريّة. وإليه تُنسب جميع التطوّرات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام. فإذا أتى الفيضان فأوزيريس هو الماء الجديد الذي يُكسب الحقول خضرة. وإذا جفّ النبات، فمعنى ذلك أنّ أوزيريس قد مات. ولكنّ موته هذا ليس أبديًا، لأنّه إذا نبتت البذور في العام الجديد فإنّما نبتت من جسده الذي لا يزال على قيد الحياة، فقد اعتقدوا أنّ الحياة تعود إليه كلّ عام، وبعودتها تنبت المزروعات التي يعيش بها الإنسان والحيوان. وليس أدلّ على وجود هذه العقيدة عند المصريّين من احتفالهم بأحد أعياد أوزيريس وتمثيله وقد عادت الحياة إليه ببذور نابتة. وكانوا يصوّرونه ميتًا مستلقيًا على الأرض وقد ملأت جسمه حبوب ترطّب الماء فتنبت وتنمو. وهكذا تعود الحياة إلى الإله. ومن أجل الحياة والموت اعتُبر أوزيريس بعد ذلك إلهًا للموتى وسيّدًا لهم. وهذه الصفة هي أبرز الصفات المعروفة عنه، لذلك أصبح في العصور التاريخيّة عند المصريّين إلهًا للموتى. وأوزيريس قد اعتُبر أيضًا إلهًا للقمر، لأنّه يختفي ثمّ يعود مرّة ثانية إلى الحياة. كما مثّل أوزيريس عندهم الشمس الغاربة والمشرقة. لكن من الملاحظ أنّ كلّ هذه الصفات التي برزت في العصور المتأخّرة لم تبلغ ما بلغته الميزة الأولى، فقد كان باستمرار بمثابة "الحبوب الجديدة" طعام الإنسان، ثمّ "المياه الجديدة" التي تكسب الأرض خصبها، فهو الذي يكتسب الشباب بمياهه المتجدّدة. فمنه تخرج المياه، بل تُعتبر البحار والمحيطات دولتَيه. وكان يُسمّى "الكبير الأخضر" لأنّ المصريّين سمّوا البحار باسم

"الأخضر الكبير"، ثمّ أُطلق عليه أيضًا "الأسود الكبير" لأنّ المصريّين كانوا يسمّون البحيرات المرّة باسم "الأسود الكبير". كما اعتقد المصريّون أنّه هو الحقول التي تطفو فوق مياه الفيضان إذا بدأت المياه تنحسر عن وجه الأرض، فقد تصوّروا الحقول عائمة فوق الماء. ثمّ مثّلوا أوزيريس بالأرض الجاثمة فوق صدر عدّوه "ست" الذي يحمله. وفي العصور المتأخّرة نجد أوزيريس الذي يحكم دنيا الأموات كأنّه نائم تحت الأرض، والأرض من فوقه والماء ينبع من قدمَيه.

والمعروف حتّى الآن أنّ موطن أوزيريس كان في مدينة "ددو" في الدلتا، التي سمّاها اليونان "بوزيريس" أي "بيت أوزيريس". ومن هذه المدينة انتشرت عبادة هذا الإله إلى جميع أطراف البلاد، وطردت آلهة كثيرة من المواطن التي وصلتها وحلّت فيها؛ ففي ممفيس مثلاً اندمج سوكاريس في أوزيريس، كما تغلّب أوزيريس على الإله الأصليّ في أبيدوس إله الموتى المسمّى "أول أهل الغرب" والذي كان يُرمز إليه على شكل ابن آوى. ويبدو أنّ هذا حدث إبّان عصر الدولة القديمة، أي حوالى ٣,٠٠٠ قبل الميلاد؛ ومنذ ذلك العصر أصبحت أبيدوس أهمّ المدن التي تُعتبر المركز الرئيسيّ لعبادة أوزيريس. وبديهيّ أنّ أوزيريس منذ اعتباره إلهًا للموتى يصوّر على هيئتهم. بمعنى أنّه ما دام ميتًا فيجب أن يكون مومياء في أربطتها، ولكنّه ربّما عاد ودبّت فيه الحياة مرّة أخرى، لذلك صبغوا وجهه باللون الأخضر، ووضعوا فوق رأسه التاج وفي يدَيه عصا الحكم والصولجان. أمّا في عاصمته "ددو" فقد صُوّر على شكل عمود ثقيل تُقسم قمّته العليا إلى أقسام، شرحها بعضهم على أنّها جزع لشجرة، والبعض الآخر رأى فيها مجموعة من سيقان نباتات، ومن الواضح أنّها شيء ثقيل كبير الحجم يحتاج الناس لرفعه في الهواء إلى حبال سميكة. وكانوا يحتفلون بعيد هذا الإله بإقامة ذلك العمود، وربّما كان القصد من ذلك الإشارة إلى أنّ الحياة قد دبّت في الإله مرّة أخرى.

وهذا الرمز يُسمّى عمود "دد"، وهو من أقدس الرموز عند المصريّين، وأصبح يدلّ في الكتابة المصريّة على معنى الاستمرار أو البقاء، ولعلّ ذلك لاعتقادهم بأنّ الإله ولو أنّه ميت إلاّ أنّه باقٍ. ومن المعروف أنّ المصريّين قد أضافوا إلى رمز أوزيريس هذا رمزَين آخرَين: الأوّل لزوجته إيزيس، والآخر لصديقه أنوبيس، وعبّروا عن حبّهم العظيم لمثل هذه الإضافات التي لم يُفهم لها سبب. ومن أهمّ الأساطير المصريّة أسطورة أوزيريس التي تغلغلت في الدين منذ العصور الأولى[1].

تأليـــهُ

الحيوان

لقد احتلّت عبادة الحيوان حيّزًا مهمًّا جدًّا في الديانة المصريّة زمنًا طويلاً حتّى ولو اتّصفت بالبروز آنًا والانكماش آنًا آخر. وفي عهود الانحطاط نفسها لم تمِل إلى الهبوط، بل بعثت حيويّتها بكلّ قوّة. ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلّها هيردوتس فيها، بعد رحلة إلى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، والتي تؤيّدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة. وكثيرًا ما يشير الكتبة الإغريق واللاتين، بدهشة واشمئزاز إلى الإكرام الذي يُحاط به هذا أو ذاك من الحيوانات، وإلى عقوبة الموت أو الجزاء النقديّ التي كانت تُفرض على مَن يخالف القانون فيستحلّ قتله، وإلى الاحترام الذي يؤدّى إلى ممثّل الفصيلة الحيوانيّة المعتنى به في أحد المعابد، وإلى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت. وليس من النادر أيضًا أن يلفتوا النظر إلى أنّ حيوانًا قد يكون مقدّسًا هنا وعدوًّا هناك، تمامًا كحالة التمساح[2].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٧٤ ـ ٧٥؛ راجع أسطورة أوزيريس تحت عنوان الأساطير لاحقًا.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٨٧.

لقد كان الشعب يبحث عن نعيمه أحيانًا عن طريق مخلوقات جديدة يُلصق بها هو نفسه صفات آلهيّة، وذلك بعد أن أصبح الآلهة القدامى غير قريبين منه، وليس بغريب أن يعود الشعب إلى ما اعتاد الركون إليه منذ أمد طويل وهو تقديس الحيوان. وفي الواقع إنّ الناس، كما كانت الحال قديمًا، استمرّوا يقومون بتربية الثيران المقدّسة أبيس ومنيفيس في ممفيس وهليوبوليس، ولم يبرح ذاكرتهم أبدًا كبش منديس ولا الصقر حوريس... ورغم هذا فإنّ هذه الحيوانات لم تكن سوى توابع من مستلزمات الديانة لها قيمتها. وكلّ مَن كان يقدّم أناشيد الثناء لبتاح وحوراختي لم يكن يفكّر البتّة في الثيران المقدّسة أبيس ومنيفيس أكثر من أنّها موجودة، على سبيل العادة المتوارثة، في معابدها. وإذا كان قد بُدئ في تلّ العمارنة في الحقبة الأولى على الأقلّ من الثورة بتخطيط قبور للثور منيفس، فإنّ في هذا ما يدلّ على الرغبة في أن تكون مدينة الشمس الجديدة مشابهة في ظاهرها للمدينة القديمة. فإنّ مظاهر اتّجاه الشعب كانت تميل نحو الرغبة في العودة إلى تقديس الحيوانات، وهي تلك الكائنات التي تظهر فيها الألوهيّة حيّة، فالحيوان أقرب إلى الرجل الساذج من الصور الإلهيّة التي في المعبد، تلك الصور التي لا تسنح له الفرصة ليراها. بل سوف يأتي عصر يعتبر فيه كلّ قطّ أو كلّ أفعى سامّة مخلوقًا إلهيًا. وقد كشفت التنقيبات عن لوحة ترجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة كرّسها خادم أحد المعابد لتخليده تعبّده لمنيفيس. وبرأى باحثون أنّ عظمة احترام هذا الحيوان المقدّس قد وُجدت بفضل وشاية ترجع إلى عهد رعمسيس الرابع، فقد كان من بين ذنوب أحد المتّهمين بيعه ثور منيفيس صغيرًا عندما وضعته بقرته. كما وُجدت لوحات كُرّست لكلّ أنواع الحيوان التي يعبدها الإنسان رغم أنّها لا تتّصل بالدين الرسميّ للمعابد، ورغم أنّ علاقتها بالآلهة الأصيلة تظلّ خافية عنّا. ولا يمكن عدم الوقوف عند السمكات السبع التي نراها إلى جانب إله الشمس والتي تُرى في معبد

صغير خاصّ بها. فلقد كان تيّار تقديس الحيوان قويًّا جدًّا إلى حدّ أنّ الديانة الرسميّة لم تستطع أن تمنع الاهتمام بها. ولذا فإنّ الأمير "خع أم واست"، إبن رعمسيس الثاني وكاهن منف الأكبر، أمر ببناء مقبرة عامّة لعجول أبيس. وقد أمعنوا في هذا الوقت بتقديس الأبقار الميتة التي توضع بجانبها تماثيل جنائزيّة مهمّتها تخفيف العمل عنها في العالم الآخر، وقد قام أمير يُدعى تحوتمس في الأسرة الثامنة عشرة بدفن قطّ مقدّس على طريقة دفن الإنسان، فصنع له تابوتًا كبيرًا من الحجر وفي أطرافه مُثّلتا كلّ من إيزيس ونفتيس وهما تنوحان. أمّا القطّ المبجّل إلى جوار أوزيريس فيجلس كما يجلس الرجل الميت أمام مائدة طعامه مُثّلت فوقها أوزة مشويّة[1].

الإلَـــــــه

سُوبِــــك

الإله "سوبك SEBEK" الذي يظهر على شكل تمساح، عُبد في أماكن مختلفة من مصر حاملاً نفس الإسم والشكل. فهو عُبد في مدينة سايس في الدلتا، حيث "يعطي الحياة للنباتات فوق الشاطئ"؛ واعتُبر ابن إلهة المياه "تايت" العظيمة يضحك عندما يأتي الفيضان، وصُوّر هذه الإله على شكل أنثى التمساح أحيانًا وهي تُرضع تمساحًا من كلّ من ثدييها. وانتشرت عبادة "سوبك" في أرض البحيرة في الفيّوم، ومدينة أمبوس الجنوبيّة، حيث اعتاد الناس الاحتفال بعيده مع ظهور الفيضان، لذا سُمّي بإله المياه. وقد عُثر على صورة قديمة له لا ترتبط بأيّ مكان في مصر تمثّله في محراب صغير فوق شاطئ رملـيّ كمعبود يُقدّس في كلّ مكان من وادي النيل. وقد بلغت عبادته حدًّا جعل المصريّين يلقّبونه بـ"صاحب الوجه الجميل"، وذلك يعود إلى الخوف

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

والرعب اللذَين يشيعهما في نفوس أهل شاطئ النيل. وإذا كان التمساح يُكرّم في الأماكن المذكورة، إلاّ أنّه كان يُقتل ويُستهلك في منطقة فيلة. ومن الجليّ أنّ هذه التناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميّز به محليًا هذه الحيوانات الإلهيّة[1].

آلهـــة على أشكَـــــال

ابنِ أوى والكَبش والتّيس

إذا كان أوزيريس قد ظهر لنا كإله للموتى عند المصريّين أجمعين، فمن الصعب الاعتقاد بأنّ هذه الصفة قد لازمته منذ أوّل العصور. لأنّ موتى كلّ مدينة يرقدون مجتمعين في جبّانة واحدة تقع بالقرب من هذه المدينة. ولا بدّ أنّهم كانوا تحت رعاية إله محليّ خاصّ بهذه الجبّانة. وغالبًا ما تأخذ مثل هذه الآلهة المحليّة للموتى شكل ابن آوى، أي الحيوان الذي يجوب المناطق الصحراويّة ليلاً حيث تقع المقابر باحثًا عن طعام أو فريسة. وهذا هو الشكل ـ الرمز الذي اتّخذه سيّد "أهل الغرب"، أي الموتى. ولو أنّ أوزيريس في أبيدوس قد انتزع هذه الصفة لنفسه، وأنوبيس الذي كان يُرمز إليه بابن آوى والذي كان إلهًا للدفن منذ عصور الدولة القديمة، وصل إلى مكانته هذه لأنّه ذُكر في قصّة أوزيريس، ولأنّ جميع الآلهة الذين ورد ذكرهم في هذه القصّة ظهروا في الصورة الآدميّة، نجد أنوبيس أيضًا قد صُوّر بهذا الشكل، ولكنّ الرأس فقط هي التي كانت تمثّل ابن آوى. وكان موطنه الحقيقيّ على الأرجح مصر السفلى.

وظهر إله آخر على شكل ابن آوى هو "أوب وات WEPWAWET" الذي يشبه "أنوبيس" كثيرًا، ولا يختلف عنه إلاّ في أمر واحد، هو أنّ أنونبيس يصوَّر على شكل حيوان قابع، لذلك يُسمّى "الذي يرقد على بطنه". بينما يمثّل "أوب وات" وهو يسعى

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام،١: ٨٧.

فوق قوائمه. وربّما كان هناك اختلاف آخر بينهما، نظرًا لأنّ اليونان الذين عرفوا المصريّين في ذلك الوقت أكثر منّا، يقسّمون ما نسمّيه ابن آوى إلى قسمَين: "أنوبيس" ويعرّفونه بأنّه كلب، و"أوب وات" بأنّه ذئب. ولقد لعب الإله "أوب وات" دورًا في قصّة أوزيريس، فكان، كما يدلّ اسمه، "فاتحَ الطريق" زميل أوزيريس في كفاحه، يتقدّمه في المعركة، من أجل ذلك نجدّ أحيانًا أنّ هذَا الإلهَ قد صُوّر ومعه دبّوس حربيّ وقوس. ويُذكر "أوب وات" أحيانًا، لا بل غالبًا وكأنّه إله مزدوج، أي بصفة المثنّى، ومن بين ألقابهما: "المتسلّحان بالسهام" والقويّان فوق جميع الآلهة" و"اللذان تغلّبا على مصر في موقعة النصر الحاسم". ومن أجل ذلك درجت العادة في العصور المتأخّرة أن يتقدّم الملك رجل يحمل شارة تمثّل "أوب وات" الذي يعبّد له الطريق بين الأعداء.

وهناك آلهة مُثّلت على شكل الكبش، مع اختلاف بينها، إذ صُوّر البعض بقرون ملتوية إلى أسفل ومستندة فوق الرأس. وكان اليونان يقسّمون هذا النوع إلى قسمَين: أولهما الكبش والثاني التيس. وأهمّ الآلهة الممثّلة على شكل الكبش الإله "حور سافس" معبود مدينة هرقليوبوليس الواقعة حاليًّا بالقرب من أهناسيا، والذي أراد عبّاده أن يجعلوه في العصور المتأخّرة إلهًا للعالم، عيناه الشمس والقمر ويخرج من أنفه الهواء. وكان اسمه "الكائن فوق البحيرة". وكان معبده عند المدخل المؤدّي إلى أرض بحيرة الفيّوم. وتتّصف الآلهة الأخرى التي لها شكل الكبش وتحمل اسم "خنوم" بصفات مختلفة، فأحيانًا يُعتقد أنّ خنوم هو الإله الذي يخلق ويكوّن، كالإله بتاح إله ممفيس، حيث يعمل خنوم عمل الفخّاري، فيجلس إلى دولابه ويخلق البشر [1]، وكلّ طفل يولد هو من صنع يدَيه، ويجب أن يتقدّم بالشكر له على خلق أعضائه السليمة. ويسكن الإله

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٩.

خنوم ومعه آلهة كثيرة تحمل هذا الإسم جزيرة الفنتين، حيث اعتُبروا أسياد المياه الباردة، التي تنبع من هذا المكان، وهي عقيدة قديمة ترجع إلى أوّل العصور، ويبدو أنّ أتباع هذا الإله كانوا في أوّل الأمر مستوطنين الحدود المصريّة الجنوبيّة، وهم الذين أعطوا هذه الصفات لإلههم المحليّ هذا.

أمّا الآلهة التي تصوّر على شكّل التيس، فكانت في شمال مصر، ومنها التيس الذي عُبد في منديس وامتدّ تقديسه حتّى العصر اليونانيّ. والجدير ملاحظته أنّ هذه الآلهة لم تكن مثل الحيوانات المقدّسة الأخرى التي تسمّت بأسماء خاصّة، بل اكتفى المصريّ بأن أطلق عليها اسم التيس ولم يحدث أن صُوّرت على شكل آدميّ. ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الشعب لم يسمح بتطوّر أشكال هذا النوع من المعبودات بل أبقاها كما عرفها منذ أقدم العصور[1].

آلهَة صُغرَى

كان الخوف والرعب عاملَين دفعا المصريّين إلى تقديس كائنات مرعبة ومؤذية كالعقرب، وهي الإلهة المسمّاة "سلكت". والحشرة السامّة الكبيرة ذات الألف قدم التي عُبدت في هليوبوليس تحت اسم الإله "سبا". وأخطر الثعابين السامّة المعروفة باسم "الناشر"، والتي عُبدت في شكلَين مختلفَين: أوّلهما الإلهة "بوتو" حامية ملك مصر، والثاني هو الصلّ حامي إله الشمس وزميله. وفي العصور القديمة كان اسم كلّ إله يُخصّص برسم ثعبان مثل الصقر الذي اعتُبر مخصّصًا لكلمة الإله، في الكتابة المصريّة القديمة، كذلك صُوّرت الإلهة الصغيرة الطيّبة "رنن أوتت" إلهة الحصار،

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٧٧ ـ ٧٨.

على شكل ثعبان، وكانت قديمًا تُعتبر إلهة النسيج. ثمّ درجت العادة في ما بعد أن يحوي كلّ معبد نموذجًا حيًّا من هذه الثعابين. وكانت كلّ مديريّة تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التي لم تُعتبر آلهة، لكنّها كانت ذات صفة إلهيّة. فمدينة هليوبوليس قدّست، بالإضافة إلى الآلهة التي ذكرنا سابقًا، حيوان النمس الذي تشكّل الإله آتوم بشكله عندما بدأ العراك بينه وبينه أبوفيس. كما قُدّست أنواع مختلفة كالأسماك والطيور والفئران والأشجار وغيرها، غير أنّ جدران المعابد لم تحوِ على رسومات لتلك الحيوانات المعبودة. وكثيرًا ما اعتُبرت هذه الآلهة الصغيرة كمساعدة للكبرى أمثال "آبيس" و"ميفيس" و"مافيديت" المرعبة التي ظهرت منذ أقدم العصور، وكان لأوزيريس آلهة رسل يبعثها من عالمه الثاني لتعلن الموت للناس.

هذه القائمة الطويلة من المعبودات المختلفة تعطي فكرة عن ذلك الخلط الذي لا حدّ له، وتشرح دنيا قديمة امتدّ بها التطوّر آلاف السنين، يتميّز كلّ عصر فيها بحضارة مختلفة، نشأت كلّ منها في منطقة مختلفة. ولقد استمرّ بعض تلك الحضارات بلا تغيير في وقت حاول البعض أن يغيّر فيها بضمّ حضارتَي منطقتَين بعضهما إلى بعض، فكان أن زاد ذلك في عدم وضوح الحضارتَين[1].

الآلهة الشعبيّة

كان خيال الشعب المصريّ يضيف إلى الآلهة التقليديّين آلهة أخرى يأمل عونهم في الحياة، وهو يبدأ باختيار أشياء يتخيّلها ذات طابع قدسيّ خاص. وقد سمّى الناس أبناءهم، خلال الدولة الوسطى في أبيدوس، بأسماء على شاكلة: "هبة المركب نشمت"،

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٨٠ ـ ٨٢.

أو "القارب نشمت منح ابنًا"... واستمرّ هذا الاستعمال في خلال الدولة الحديثة، ففي رسالة من طيبة ينصح فيها أحد الأشخاص للمرسَل إليه أن يطلب حماية الآلهة، ونراه لا يذكر آلهة وآلهات المدينة المحليّين الكبار كآمون وخنسو وموت، بل يذكر معبودات من الطبقة الثانية مثل "شجرة على طريق الكباش" و"تامون القردة" الواقعة في هيكل حاتحور وباب باكي الأكبر. ولقد كان لهذه المباني أثرها على الشعب المصريّ بالنسبة لحجمها أو قدمها، ممّا يعطيها روعة وبهاء إلهيّين. فأبو الهول بالجيزة مثلاً أُلّه في نهاية الدولة الحديثة، وهو لم يكن في الأصل سوى صخرة طبيعيّة أعطاها الملك خفرع رأسًا ملكيّة. ولكنّه أصبح كائنًا إلهيًا لدى أهل الأقاليم المجاورة يُعبد بصفته "حرماخيس" أي "حوريس الأفقيّ". وقد أظهرت حفائر "بورخاردت" في جبّانة صير عبارة أخرى مماثلة في إقليم منف. فأمام هرم الملك ساحورع (حوالى ٢٥٥٠ ق.م.) يقوم معبد فخم كانت تُقدّم فيه القرابين إلى هذا الملك، وكان غنيًا بالرسوم والنقوش التي تمجّد حياة الملك وأعماله أو تمثّله متعبّدًا أمام مختلف الآلهة. وقد مُثّل في إحدى اللوحات أمام الآلهة ذات رأس الأسد "سخمت" وكان لهذه الصورة حظوة خاصّة، فبعد رحيل الملك بزمن طويل، وانهيار معبده إلى أنقاض، أصبحت صورة سخمت ساحورع تفوز بالتقديس، وأصبح هذا المعبد المهدّم هيكلاً صغيرًا لسخمت، وكان خلفاء كهنة الملك، الذين كانوا لا يزالون يعيشون بالقرب من المعبد، هم حماة وسدنة هذا المحجّ. وترجع شهرة سخمت، على الأقلّ، إلى عهد الأمبراطوريّة الحديثة، ولم تكن زيارته مقتصرة على عامّة الشعب، بل إنّ نبلاء وأشرافًا لم يأنفوا من تقديم قرابينهم إلى سخمت. وكان الحجّاج يقدّمون، علامة على تعبّدهم، نصبًا يثبّتونها بطريقة بدائيّة في نقوش المعابد القديمة، وقد مُثّلت على عدد كبير من هذه النصب آذان، تعني أنّ الآلهة قد استجابت الدعاء. وهناك نذور أكثر بساطة مصنوعة من

الطين الملوّن. وكانوا يقدّمون تماثيل صغيرة للآلهة أو لبعض الآلهة الشعبيّة الأخرى. ومن العجيب أنّ تماثيل حيوانات مقدّسة أخرى قد تسرّبت إلى هذا المعبد الجديد نسبيًّا، مثل الخراف والسحالى، وهذا ما يتّفق مع استمرار تعلّق الناس في العصور المتأخّرة بهذه الحيوانات المقدّسة. وقد دام معبد سخمت ساحورع هذا أكثر من ألف سنة بنقوشه الرائعة، في وقت تهدّمت فيه تمامًا المعابد الأخرى الواقعة حوله.

ولقد عُبدت في البلاد كلّها آلهة أخرى صغيرة تعين في الشدّة، وهي من خلق الشعب، ولم يكن لها مظهر الآلهة العظام، بل صُوّرت في شكل بدائيّ، وأهمّها:

الإلهة تويريس: ومعنى اسمها "العظيمة"، وهي وحش يتكوّن في نفس الوقت من عجل بحر وتمساح بيدَين آدميّتَين وقدمَي لبوة، تقف على قوائمها وتحمل رمز الرعاية والحماية اللتَين تأتي بهما للشعب. وهي تمثّل في صورة حامل، ومن شأن تماثيلها الصغيرة التي تقدّس في المعابد أن تفيد عن أنّها كانت شفيعة الوضع والرضاع، وقد دخلت تويريس بعد ذلك في محيط الآلهة الكبار وأصبحت الآلهة المحليّة "أوبت" طيبة، وأصبحت صورتها تمثّل بشكل نجم الدبّ الأكبر. أمّا اسمها: "أوبت"، فقد جاء من اسم معبد الأقصر، ومعنى الكلمة "الحريم"؛ ولهذا يظنّ الباحثون أنّه في عيد الإله أمون، إله طيبة، كان الإله يذهب إلى هناك كل عام ليحتفل بزواجه. وكان يتطلّب ذلك القيام برحلة يقوم بها الإله "آمون" مع زوجته الإلهة "موت" وابنهما الإله "خنسو" من معبد الكرنك إلى الأقصر ثمّ العودة مرة أخرى، وهي رحلة نيليّة يشارك فيها حشدٌ غفيرٌ من الناس في النهر وعلى الضفّتَين. وكان الاحتفال يبدأ بتقدمة يرفعها الملك أمام قارب آمون، أي أمام محرابه المحمول قبل أن يغادر هذا المحراب معبد الكرنك، ثم يخرج الموكب من صرح المعبد، والكهنة يحملون القوارب فوق أكتافهم، على ألاّ يقلّ عدد الذين يحملون قارب آمون عن ثلاثين. ويصحب الموكب الغناء ودقّ الطبول، ويتقدّم

المشهد جنديّ ينفخ في النفير. أمّا على الشاطئ فكان هناك موكب طويل يرافق الرحلة المقدّسة، والناس تصيح صياح الغبطة والتهليل[1]...

الإله بس: وهو إله يشيع السرور في قلوب الآلهة الكبار عن طريق الرقص والموسيقى، وهو قزم ملتوي الساقَين، له رأس كبير وذقن منتفشة وذيل كذيل الحيوان، يمكن تشبيهه بمسوخ الأساطير اليونانيّة، وقد تمّ استخدام صورته الهزليّة كمقبض لمرآة أو علبة مساحيق، كما مُثّل على مساند الرأس مسلّحًا بالسكاكين ليحمي النوام. وهناك مجموعة أخرى من الآلهة مصوّرة على هيئة إنسانيّة كاملة ولكنّها ليست مغرية. فمظهرها مظهر أطفال ناقصي التكوين ذوي أعضاء مشوّهة. وهم يُعتبرون مثل بتاح أو أولاد بتاح، وهو ما تشير إليه تسميتهم "باتك" التي نقلها هيرودوت، وهم يساعدون الناس ويحمونهم ضدّ الثعابين مثلاً، وهم في ذلك مثل "بس" تمامًا.

الإله أونوريس: وهو على هيئة أمير يركب عجلة حربيّة ويقتل الحيوانات البريّة، وهو يُسمّى "بالمنقذ"، ويحمي أولئك الذين يحملون صورته كتميمة لتردّ عنهم من الحيوانات والأعداء[2].

الآلهَـــــة

المُستعَارة

كان لدى المصريّين آلهة ومعبودات استُعيرت من البلاد الأجنبيّة. فمنذ زمن طويل كان لمصر صلات مستمرّة بالبلاد الواقعة إلى شمالها وإلى شرقها، ومثلمَا أثّرت تلك

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٠٧؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٧٥.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٠٨ ـ ٢١٠.

الصلات على اللغة الدارجة فزوّدتها بأسماء سامية، فإنّها أثّرت كذلك في الدين، الذي أدخلت إليه معبودات أجنبيّة، ذلك أنّ التجّار والجنود كانوا يعبدونها في منازلهم عرفانًا لفضل حمايتها إيّاهم في البحار أو في المعارك، وحيث أنّ كلّ ما يأتي من الخارج له جاذبيّة خاصّة، فإنّ أناسًا آخرين صاروا بدورهم يضعون آمالهم في هذه الآلهة الجديدة. واندمج بعضها في الآلهة المصريّة التي تشبهها في طبيعتها. وهكذا نرى "عشتارت" ترتبط بإلهة الحرب المصريّة "سخمت" في منف، و"قدش" بـ"حاتحور"، والإله السوريّ "رشف" يختلط بـ"سوتخ" في الدلتا الشرقيّة.

والإله رشف، هو صاحب القوّة في التاسوع، وهو إله محارب مسلّح بحربة ودرع، يلبس تاجًا لمصر العليا، لكنّ لباسه يكفي لإثبات أصله الأجنبيّ، إذ يعلّق شريطًا طويلاً يتدلّى من تاجه الذي يزيّنه من الأمام قرنان أو رأس غزال. وكان هناك أكثر من "رشف" واحد. أمّا الإلهة "كدش"، التي تقف أحيانًا إلى جانب الإله "رشف"، فلها طابع سمح مثل حاتحور، وهي مثلها تُدعى "عين الشمس" أو "ابنة رع"، وحين تقف على الأسود وتُمسك في الوقت نفسه زهورًا وأفاعي، فذلك يعني أنّها متخصّصة في الحماية من هذه الحيوانات الشرّيرة. وفي الوقت الذي كان لرشف وكدش دائرة من المؤمنين بهما، كان لبعل والإلهتَين عنات وعشتارت نفوذ أعمّ.

فالإله بعل: هو كائن مخيف يُقرن، كما تُظهر رسومه وإسمه، بالإله ست. وهو إله العواصف والزوابع، يقف على الجبال ويزأر في السماء. أمّا في الحروب فإنّ الملك كان يُشبّه بالبعل حين يكون ثائرًا. فقد أصبح اسمه يُسبق بأداة التعريف: البعل، كما لو كان اسمًا عامًّا يدلّ على "الإله". وكما كان في كنعان أكثر من بعل واحد، كذلك أصبح في مصر، حيث أصبح هناك "بعل قادش"، و"بعل زيفون" الذي يظهر أنّه كان إلهًا للملاّحين، فقد جاء في المدوّنات أنّ موظّفًا مصريًّا كرّس لبعل زينون حجرًا تذكاريًّا

في رأس شمرة، وهناك مكان على الشواطئ المصريّة يحمل اسمه أيضًا[1]. كما كان في أرض منف معبد للبعل، وكان لهذا الهيكل كاهن في خدمة بعل وعشتارت، وهو يحمل إسمًا أجنبيًا، وإن كان قد دُفن خلال حكم أمنحتب الرابع كمصريّ خالص[2].

و كانت للإلهتَين "عنات" و"عشتارت" شهرة عامّة في مصر خلال الدولة الحديثة على نحو ما كان لبعل. وكلتاهما إلهتا الحرب. وتمثّل منحوتة إحديهما وهي تمتطي حصانًا وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعًا، وقد نقش هذه المنحوتة أحد الضبّاط في صحراء الرديسيّة. وحين أصبحت عنات بعد ذلك إلهة مصريّة بحتة، اضطرّت إلى نبذ تلك الطبيعة الوحشيّة، ونجدها بعد قرون في معبد فيلة وقد تحولت إلى إيزيس، ولها ابنها حوريس، ونرى أغسطس يقدّم لها مرآتَين كهديّة لها. لكنّ هذه الطبيعة المسالمة لم يظهر لها أثر في الدولة الحديثة لدى هاتَين الإلهتَين. فهما درع الملك في حربه، وهما مرتبطتان بعجلته الحربيّة، وحين ينقضّ تحوتمس الرابع، في عربته، على العدوّ، فإنّه يقود حصانه كما تقوده في الوقت نفسه عشتارت. وفي قصّة حوريس وستّ نراهما وقد أُعطيتا لـ "ست" إله الحرب كتعويض لِما أصابه من ضرب. وفي أسطورة أخرى نراهما زوجتَين للإله "ست" وأنّ غريمهما حوريس يمنعهما من الولادة. وفي قصّة أخرى نرى كيف أنّ الآلهة التي أزعجها البحر أحضرت عشتارت من سوريا إلى مصر واستقبلتها رسميًّا، وأعطتها عرشًا جلست عليه، وأنّ "الآلهة الكبار، وقفوا أمامها... والآلهة الصغار انبطحوا على بطونهم"، وهي كذلك تُعتبر ابنة لبتاح، وتوطّنت بسرعة في منف، وقد كان لها في عهد أمنوفيس الرابع معبدًا خاصًّا

---

١ - EISSFELDT, *BAAL ZOPHON*, (HALLE, 1932).

٢ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢١١ - ٢١٢.

بها. وكان هذا المعبد الواقع في الحيّ الفينيقيّ من المدينة قائمًا في زمن هيرودوت. وقد عبد ملوك الأسرة التاسعة عشرة أيضًا إلهتَي الحرب المستعارتَين، فكان الحيّ الشرقيّ من العاصمة الجديدة في عهد رعمسيس الثاني مكرّسًا لعشتارت، بينما كان الحيّ الغربيّ مكرّسًا للإلهة المصريّة بوتو. ولم تكن خيل الملك تُسمّى باسم عنات وحدها، بل إنّ ابنته كذلك كانت تحمل الإسم الساميّ "بنت عنات" أي إبنة عنات.

أمّا الإلهة السوريّة عشتار، فتظهر مرّة مع الإلهة كدش تعطيان الصحّة لواحد من خدم الكاهن الأعظم لبتاح، ومرّة أخرى تظهر بطريقة أدقّ كإحدى الإلهات التي دُعيت لتسدي معونة، فلقد كان بوّاب معبد بتاح مشوّه الساق كما تبيّن لنا صورته في اللوحة، وكان يعتمد على معونة هذه الإلهة، خاصّة لأنّه هو وزوجه من أصل سوريّ.

ويروي باحثون[1] قصّة دخول الإلهة عشتار إلى مصر، بقولهم إنّه حين مرض أمنوفيس الثالث مرضه الأخير، سأل صهره توشراتا ملك يمتاني أن يعيره عشتار من نينوى لأنّه سبق لها أن مارست قوّتها في مصر من قبل في مناسبة مماثلة. وقد أجابه توشراتا إلى سؤاله وبعث بالإلهة التي كانت لا تزال تحتفظ بذكرى التقديس التي حظيت به في مصر، والتي كانت تحبّ البلاد كذلك. وطلب توشراتا إلى أمنوفيس أن يجدّد تمجيد الإلهة حتّى تمنحهما معًا الحماية والعمر الطويل، وأن يردّها بعد ذلك بلقب سمح، وقال: "عشتار إلهتي وليست إلهة أخي". ومن الواضح أنّ توشراتا كان يخشى أن يُحتفظ بمصر بصورتها العجائبيّة. وإذا كانت عشتار مستعارة من إقليم الفرات فإنّنا نستطيع كذلك أن نقرّر أنّ الإلهة "تكر" أو "تكل" التي تُعتبر في أحد النصوص السحريّة زوجة للإله العظم، ليست سوى آلهة بابل المسمّاة "تنجال زوجة الإله القمريّ سن".

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢١٤ - ٢١٥ عن: GARDINER, 43, 97.

الآلهَـــة

الأشجَار

من العبادات المصريّة التي كانت في أقدم العصور، واستمرّت خلال عهد الدولـة الحديثة، عبادة أشجار معيّنة، كالجميز، لأنّ الإلهة حاتحور كانت تسكن تلك الشجرة، طبقًا لعقيـدة قديمـة. ويُظـنّ كذلـك أنّ إلهـة أخـرى كـانت تستقرّ علـى بعـض الأشـجار الأخرى على حدود الصحراء، وهي نوت وحاتحور. وكان المصريّون يـأملون فـي أن تعطي هذه الأشجار للموتى المدفونين هناك الماء والطعام. وقـد عـرف الديـن الرسـميّ للأمبراطوريّة الحديثة طبيعة إلهيّة في بعض أشجار معيّنة في المعبد[١].

التّاسوعَات والثّالوثَات

كـانت الآلهـة المصريّـة تتجمّـع، غالبًـا، فـي مراكـز عبادتهـا فـي "تاسُـوعَات" أو "تُسَاعيّات" على نمط هليوبوليس، لكنّ هناك تصنيفًا محبّبًا آخر تُجْمَعُ فيـه الآلهـة علـى هيئة ثالوث يرتبط فيه الإله المحليّ الرئيسيّ بزوجته وابنه، وهكذا نجد الآلهـة "بتـاح"، و"سخمت"، و"نفرتم"، تتجمّع على هذا النحو في منـف، فقد اتّخذ "بتـاح" إلـه منـف مـن "سخمت"، الإلهة القويّة التي عُبدت في منف أيضًا ومثّلت على شكل لبوة، زوجـة لـه، وأنجبا ذلك المعبود الصغير "نفرتم" الذي لم يكن سوى زهرة، وهكذا تكوّن الثالوث من الزوج والزوجة والابن. كذلك تجمّع الآلهة "آمون" و"موت" و"خنسو" في ثـالوث آخـر، وهذا الثالوثُ من مدينة طيبة، "آمون" فيه الـزوج، و"مـوت" الزوجـة، و"خنسو" الإبنـة، وكانت "موت MUT" "سيّدة السماء" وقد عُبِدت في طيبـة تحـت هـذا الإسم، وإن كـانت

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢١٨.

كلمة موت تعني "الأم"، وقد لُقِّبت في النقوش المتأخِّرة بلقب "أمّ الشمس" التي تشرق منها. أمّا الإله "خنسو" فهو إله القمر، وقد عبده الناس في طيبة أيضًا، وكلمة خنسو "تعني" الذي يجوب السماء، وقد صوّروه طفلاً آدميًّا، وبذلك أصبح ابنًا للإلهة المحليّة التي تمثّل السماء "نوت". أمّا في منف فهناك ثالوث ثالث يجمع بين "بتاح" و"سوكاريس" و"أوزيريس" حيث يتجمّع ثلاثة آلهة للموتى من الذكور. وهناك سمة مذهلة تطبع النصوص المتعلّقة بهذا الثالوث في منف، كما كانت موجودة في ثالوثات أخرى أيضًا، هي النظر إلى هذا الثالوث على أنّه وِحدة[1].

أمّا بشأن "التاسوعات"، فأوّل ما عنيت به تعاليم المدينة المقدّسة هليوبوليس، كان تاريخ بدء الخليقة، فقالوا: عندما تكوّن إله الشمس، أو كما سمّوه في هليوبوليس الإله أتوم، في المياه الأبديّة "نون" قبل أن تتكوّن الأرض والسماء وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة، لم يجد مكانًا ما يقف فيه، فوقف فوق تلّ، ثمّ صعد فوق حجر الـ "بن بن" في هليوبوليس، ووجد نفسه وحيدًا ففكّر في أن يخلق له زملاء فحمل من نفسه، ثمّ، بعد هذا الحمل تفل، فكان الإله "شو" والالهة "تفنوت". وأنجب شو وتفنوت الإلهَين "كب" إله الأرض و"نوت" إلهة السماء. كما أنجب هذان الأخيران "أوزيريس" و"سوف" و"إيزيس" و"نفتيس". وتكاثر أبناء الزوجَين الأخيرَين. وحكموا العالم في أوّل الأمر قبل أن تتجمّع السلطة في يد حوريس فكانوا الآلهة العظام، ولأنّ عددهم كان قد بلغ التسعة فقد سمّاهم المصريّون الـ"تاسوع"، أو الـ"تاسوع العظيم لهليوبوليس". وسبّبت هذه التسمية بعض الاضطراب لأنّه بجانب هؤلاء الأبناء، كان هناك أحفاد وأحفاد أحفاد للإله آتوم، وقد امتازوا بتقديس الناس إيّاهم واعتُبروا آلهة، فاضطرّ الكهنة لأن يؤلّفوا من بينهم

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٧٤.

مجموعات منها الـ"تاسوع" الصغير الذي يتكوّن من "حوريس" إبن "إيزيـس"، و"تحـوت" و"معـات" و"أنوبيـس"، ولكـي يكملـوا العـدد أضـافوا إليهم بعـض الأسـماء لآلهـة غــير مشـهورين. ولقـد حظيـت فكـرة كهنـة هليوبوليـس بتقديـر كهنـة بعـض المـدن الكـبرى الأخرى، وأرادوا أن يكوّنوا من آلهتهم المحليّة تاسوعًا، فوضعوا معبودهـم الأكـبر فـي مقدّمة هذا الـ"تاسوع"، ثمّ أضافوا إليه عددًا مـن الآلهـة كـان أحيانًـا يزيـد عـن التسـعة. ومثلُ ذلك تاسوع طيبة الذي جمع ما لا يقلّ عن خمسة عشر معبودًا. وأحيانًا نجد عددًا من الآلهة يكوّن تاسوعًا ليس من بينهم معبود ممّن قُدّس في هليوبوليس، ومثل ذلك فـي مدينة أبيدوس التي تألّف تاسوعها من إلهَين باسم "خنوم"، ثمّ "تحـوت"، ثـمّ إلهَيـن باسـم "حوريس" وإلهَين باسم "أوب أوات". وممّا يثـير العجـب أنّ المصرييّـن، منـذ العصـور الأولى، أخذوا يتحدّثون عن هذه المجموعة من الآلهة الذين اخترعوهم ليكوّنوا تاسـوعًا كما لو كانوا يمثّلون إلهًا واحدًا. فقالوا مثلاً: إنّ الـ"تاسوع" قد وُلد إلهًا، أو أنّه قد خـرج من بين فخذَي الـ"تاسوع". وواضح أنّهم قد رأوا، في هذه المجموعة من الآلهة، معبـودًا واحدًا. ويرى باحثون وجوب التأكيد على أنّ تعاليم هليوبوليس هـذه، رغـم أنّهـا تبـدو عريقة في القدم، قد ظهرت في عهد كانت عقيدة أوزيريـس فيـه قـد دخلـت وامتزجـت بمعتقدات هذه المدينة. وعندما جعلـت تعـاليم هليوبوليـس الإلـه أتـوم علـى رأس جميـع الآلهة لم تستطع جارتها مدينة منف الأخذ بهذه الحقيقة، خاصّـة لِمـا لإلهها "بتـاح" مـن شهرة وتقديس بين أهلها، ولأنّها كانت في الوقت نفسه مقرًّا للملوك. وفي ذلك الوقـت، أي في أوّل عصور الدولة القديمة، وضع كهنة منف وثيقة أكّـدوا فيهـا علـى أنّ "بتـاح" ومنفيس تفوق منزلتهما ما لأتوم وهليوبوليس من منزلة، لكـنّ القـدر تحكّـم فـي مصـير هذه الوثيقة التي نسمّيها: تعاليم منف الكهنوتيّة، والتي اعتُبرت مـن أهـمّ الوثـائق التـي حُفظت بين كنوز معبد منف آلافًا من السنوات، ثـمّ أتـت الديـدان عليهـا فـاختفت منهـا

معظم القطع المكوّنة لبدايتها ونهايتها، وعندما حكم الملك النوبيّ "شباكا" مصر حوالى العام ٧١٠ قبل الميلاد، تقدّم إليه كهنة منف وطلبوا منه أن ينقذ من الفناء ما بقي من كتاب الأجداد هذا، إذ كان يُعتبر دليل الشرف لمعبدهم. فأمر "شباكا" أن يُحفر ما بقي من الكتاب على لوح من حجر الغرانيت الأسود، وقد دفع الورع بكتبة "شباكا" أن يخلّدوا كذلك على هذا الحجر بقيّة من كتاب آخر، وعلى هذا الشكل وصل لنا هذا الكتاب[1]. والحكمة التي يحويها هذا النصّ أنّ "بتاح" خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سُمّيت باسم "بتاح" وذلك من أجل أن يكوّنوا مع بتاح الأصليّ تاسوعًا يعادل تاسوع هليوبوليس، وأطلق البشر على الثمانية آلهة أسماء أخرى، ولا غرابة في ذلك فهذه هي آلهة مصر الكبرى أو خالقة مصر. من أجل ذلك أرجعوا كلّ آلهة مصر إلى "بتاح". وأطلقوا على الإلهَين الثاني والثالث من هذا الـ"تاسوع" اسمَي "بتاح ـ نون" المياه الأزليّة وزوجته "بتاح ناونت"، وقد أنجبا الإله أتوم. ومعنى ذلك أن الإله أتوم، وهو أعظم آلهة هليوبوليس، أصبح أقلّ شأنًا من الإله بتاح منف.

---

١ ـ تعرّض هذا الحجر للتلف مرّة أخرى، فقد وجد بعض أهالي منف أنّه يصلح قاعدة لرحى، فاستعملوه في هذا الغرض فانمحى جزء كبير من النقوش، ومنذ عام ١٨٠٥ توجد هذه الوثيقة النرية في المتحف البريطانيّ.

الفَصلُ الثَّاني

الأساطيرُ والعِبادَة والمعَابدُ

أسَاطِيرُ الآلِهَة؛

أسطورة أوزيريس؛

العِبادَة والمعَابدُ والكَهَنة؛

المعَابد؛ الطقُوس؛ الكهنة؛ حَريم الإله؛

العبَـــادة في الدَولة الحَديثَة.

أَسَاطِيرُ الآلِهَة

كان المصريّون منذ أقدم العصور يعشقون القصص الخرافيّة، لذلك نجد أنّ قصصهم تلك قد حيكت وتداولها الناس كأساطير محبّبة إلى نفوسهم وقريبة إلى قلوبهم، لأنّ الآلهة فيها تشبّهوا ببني الإنسان، فهم يتعاملون ويحبّون ويكرهون، ومن ثمّ خلعوا رداءهم الذي يجعلهم بعيدين عن متناول يد الإنسان؛ ويبدو أنّ القصّاصين قد استجابوا إلى رغبة عامّة الشعب، وانزلقوا في هذه الاستجابة إلى أنّهم ألصقوا بمعبوداتهم صفات لا تتّفق مع جلالها وعظمتها. وإذا حدث أن تحدّث الناس عن إله في مكان معيّن فلا تلبث القصّة أن تنتشر في البلاد وتختلط وتمتزج بقصص الآلهة الأخرى الخاصّة بالأماكن المختلفة التي تنتشر فيها، كما يحدث أن تصبح هذه الأساطير مشاعًا بين جميع المصريّين، من دون أن يتمكّن الدين الرسميّ الذي يعتنقه الكهنة ويمارسونه من الصمود أمام زحف الأساطير، فتسرّبت الواحدة بعد الأخرى بعد أن نُزع عن الكهنة بعض الأوهام التي ألصقوها بالآلهة، ولو أنّه لم تُنتزع كلّ الصفات التي حاكتها هذه الأساطير حول الآلهة. فالإله "ست" مثلاً بقي معتبرًا في المعبد كمقاتل أوزيريس، ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينزع عن "ست" صفته كإله جبّار قويّ. وبدأ تسرّب هذه الأساطير إلى الدين الرسميّ منذ العصور القديمة واستمرّ بعد ذلك، وكلّما ظهرت أسطورة جديدة بين الشعب وكُتب لها الانتشار كلّما طالب أهل التقوى من الشعب ألاّ يُحرموا منها في المعبد.

هذه الأساطير جعلت من الآلهة كائنـات حيّـة لكلّ منها صفاتـه الخاصّـة. ودفعت الناس إلى الشعور نحو البعض منهـا بـالحبّ ونحـو البعـض الآخـر بـالكره والبغضـاء؛ فالأساطير هي التي جعلت مـن "إيزيـس" إلهـة طيّبـة، ومـن "سـت" إلهًـا مكروهًـا. وإذا تساءل الإنسان عن العالم ونشأته فليس من شكّ في أنّه حاول الإجابة على ذلـك متـأثّرًا بما كان يلاحظه من مظاهر الطبيعة التـي تتغيّر وتختلّ طـوال العـام. فتختفـي حقـول مصر مرّة في لجّة من المياه لا تلبث أن تنحسر عنها رويـدًا رويـدًا، فـاعتقد المصـريّ أنّ الأرض أيضًا قد برزت من الماء، وتصوّروا أنّ مكانًا عاليًا مـن الأرض كـان أوّل ما ظهر على سطح ذلك الخضمّ القديم الذي سمّوه "نون" وكان هـذا المكـان بمثابـة بـدء العالم، فهو التلّ الموغل فـي القـدم أو كمـا قـالوا: "التـلّ المزهـر الـذي ظهـر فـي أوّل العصور"، وحدّدوا مكانه في مواقع مختلفة من مصـر. وفـوق هـذا التـلّ القديـم ظهـرت المعالم الأولى للحياة، إذ سكنت فيه الضفادع والثعابين، وهي مـن الكائنـات التـي تتفّق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة، وسُمّيت هذه الكائنات بأسماء استُمدّت مـن طبيعة هذا المكان: الليل، الظلام، الاختفاء، الذبذبة، وغير ذلـك، وكـان عددهـا ثمانيـة، ومدينة شمون تحمل أسماءها فاسمها يعني "الثمانية[١]". وتحمل مدينة شمون أيضًا اسمًا آخر هو هرموبوليس الذي قـام فيهـا "لاهـوت الخلـق" الـذي كـان وثيـق الصلـة بتعـاليم هليوبوليس[٢].

ومن هنا قيل إنّ الخلق بدأ مع ظهور التلّ الأوّل من مياه العمـاء، وارتبـط أربعـة أزواج مـن الآلهـة فـي الصفـات الكونيّـة "نـون" "ونونـت" بميـاه العمــاء؛ و"حــح HUH"

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٠٠ ـ ١٠١.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٩.

و"حوحت HUHET" باللانهاية؛ و"كوك KUK" و"كوكيت KAUKET" بالظلام. و"آمون" و"أمونيت بالاختفاء". هذه الآلهة الثمانية تتألّف من أزواج لا يتمايز بينها الذكر والأنثى من الناحية النظريّة، وربّما كانت أربعة آلهة ثنائيّة الجنس هي الأشكال الأصليّة. وكان آمون، الذي يعني اسمه "الموجود الخفيّ"، هو رأس الـ"ثمانية OGDOUD"، وهم الآلهة الأول الذين تعاونوا في خلق العالم[1].

وتقول الأسطورة إنّ شيئًا آخر كان فوق هذا التلّ، يتناسب مع طبيعة هذا العالم الطينيّ المجدب، هذا الشيء هو بيضة طائر مائيّ، خرجت منه أوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح، فكانت الشمس التي طارت صائحة فوق سطح الماء، ومن أجل ذلك سُمّيت: "الصائحة الكبيرة". فكان ذلك بمثابة الضوء الأول والصوت الأول الذي أضاء الظلام الدامس، وانطلق في ذلك الصمت الأزليّ الذي خيّم فوق العالم[2].

وفي إحدى الأساطير أنّ خلق الكائنات الحيّة، في مقابل خلق الموجودات الكونيّة، يعزى في الأعمّ الأغلب إلى الإله الصانع "خنوم KHNUM"، فهو الذي يخلق البشر عندما يجلس إلى دولابه الفخّاريّ[3]. وهناك أسطورة أخرى تذكّرنا بالديانة البوذيّة، وهي تقول بأنّ زهرة لوتس نبتت من الماء الأول، وكان يجلس فيها طفل الشمس[4]. أو الإله الشاب "نفر تم". وفي نصوص معبد "إدفو" يرد ذكر "بحيرة اللوتس" بوصفها المقرّ القديم للإله الخالق، وهذه النصوص تُبَجّلُ أيضًا "مجثم الطير"، أي ما يحطّ عليه

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٩؛ قابل: فرنسوا دوماس، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، ص٦٧.

٢ ـ LACAU, *TEXTES RELIGIEUX*, P. 133.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٩.

٤ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٠٢.

الطير بعد طيران طويل، وهو قطعة من الغاب حطّ عليها الإله الصقر "حوريس" لأول مرّة[1].

هذه كلّها تخيّلات استمدّها المصريّ من بيئته أثناء الفيضان. وفي هليوبوليس شاعت تلك الأسطورة التي تقول بأنّ الشمس ظهرت هناك على الحجر المسمّى بن بن. أمّا ما حدث من تطوّر لهذه الأسطورة وكيف أنّ إله الشمس قد أخصب نفسه فولد الآلهة الأولى، ثمّ كيف تزواجت هذه الآلهة فتكاثرت، وكيف خلق إله الشمس البشر من عينه، فقد ذكرناه تحت عنوان آلهة هليوبوليس.

وتقول أسطورة إنّ العالم الذي برز من الماء الأزليّ كان لا يزال مضطربًا إذ لم تكن السماء قد انفصلت عن الأرض. وكانت إلهة السماء نوت مستلقية فوق زوجها إله الأرض "جبّ"، ولكنّ أباها إله الهواء زجّ بنفسه بينهما ورفع السماء إلى أعلى ورفع معها كلّ حيّ خُلق، أي كلّ إله "ومعه سفينته"، فاستحوذت عليها "نوت" وقامت بتعدادها وجعلت منها نجوم السماء، ولم تستثنِ منها الشمس، وأصبحن جميعًا يجبن بسفنهنّ جسم "نوت". وهكذا كانت نشأة عالمنا هذا، إذ إنّه من انفصال السماء عن الأرض اتّخذ الكون وكائناته الشكل الذي نعرفه، ولم يكن هناك من اتّصال بين العالم العلويّ والآخر السفليّ سوى "عظام "شو" الذي تحمل ذراعاه الجميلتان "نوت". وبعد أن انفصل إله السماء عن الأرض عيّن إله الأرض حاكمًا عليها "أعطى كلّ ما ورثه وسلّمه "التاسوعة" أي "الآلهة الكبرى" بأكملها، وهكذا قالت الإلهة عن "كب": أميرنا، أمير الآلهة، إذا نادانا نهرع إليه ونصبح زملاء له يقضي بين الآلهة، كزعيم للتاسوعة، آباءه وأمّهاته، وهو أقوى من كلّ إله. وهكذا حكم "كب" الآلهة فوق الأرض كما

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٩.

استقلّت "توت" بالسماء "فمدّت سلطانها على الآلهة وعلى أرواحها وما ورثوه وعلى أقواتهم وما يملكونه".

ومن الغريب أنّ سيادة إله الشمس الذي كان حاكم العالم، لم تُعتبر من القضايا المسلّم بها، فمنذ العصور الأولى اعتاد أطفال "الضعفاء" أن يكفروا بسيادته هذه، وكانوا ينتظرونه في الصباح عند الشرق، أي عندما يكون طفلاً، ليمزّقوه إربًا، فنشب قتال عنيف في كلّ مكان، في السماء وفوق الأرض، كان النصر فيه إلى جانب إله الشمس، وبعد أن انتصر "رع" على أعدائه ووضع الحقّ مكان الباطل دسّ بأنفه في زهرة لوتس ولم تكن هذه الزهرة سوى "تفر ـ تم" أحد الآلهة الصغرى في معبد ممفيس. وفي هليوبوليس عرف الناس أيضًا أنّ رع قتل الأعداء هناك ولكنّه كان متقمّصًا صورة قطّ كبير، وأنّ ذلك حدث بالقرب من شجرة لا شكّ في أنّ الناس قد صوّروها في المعبد في ما بعد.

وهناك ثورة أخرى حدثت أثناء حكم "رع" تُعتبر أسطورتها أكثر حيويّة وقربًا لِما يحدث بين البشر. هذه الأسطورة وردت في كتاب "هلاك البشر"، وهو كتاب يتعلّق بأمور سحريّة ورد مكتوبًا على كثير من مقابر الملوك من عصر الدولة الحديثة، كما ذُكرت هذه القصّة في حكم "مري كارع"، وهي تقول:

لقد حدث أن بسط رع سلطانه على الآلهة والبشر، وبعد أن شاخ "رع" أصبحت عظامه من فضّة، وأعضاؤه من ذهب، وشعره من اللازورد الحقيقيّ. ولاحظ الناس ذلك فدبّروا له سوءًا، لكنّ الإله اكتشف أمرهم وقال لأحد أتباعه: "نادِ لي عيني، و"شو"، و"تفنوت"، و"كب" و"توت" وكلّ الآباء والأمّهات الذين كانوا معي عندما كنت في الماء "نون"، وكذلك الإله "نون"، وقُدهم بصمت إليّ كي لا يراهم الناس فتهرب أفئدتهم، واحضر أنت معهم إلى القصر". وعندما حضرت الآلهة ورأته ارتمت على

الأرض أمام جلالته قائلة: "تحدّث إلينا لنسمعك"، فقال "رع" لنون: "أنت يا أقدم الآلهة الذي منه خُلقت، وأنتم أيّها الآلهة الأجداد، هل رأيتم بني الإنسان الذي خلقتهم من عيني كيف يأتمرون ضدّي، ماذا أنتم صانعون بهم، لم أودّ قتلهم قبل أن أسمع منكم ماذا ستقولونه أنتم"؟ فتحدّث الإله نون قائلاً: "إبني رع، الإله الذي هو أعظم من أبيه وخالقه، ابقَ أنت جالسًا على عرشك فإنّ الخوف منك لعظيم، وخصوصًا إذا ما صوّبت عينَيك نحو المتآمرين عليك". وكان عندما صوّب "رع" عينه نحوهم هربوا إلى الصحراء وقلوبهم كانت تخشى عاقبة ما بدر منهم، ولكنّ الآلهة نصحوا "رع" بعد ذلك أن يرسل إلى المتآمرين عينه لتبطش بهم، فأرسلها ونزلت على الأرض على هيئة الإلهة "حاتحور"، ثمّ رجعت بعد أن قتلت البشر في الصحراء، فحيّا جلاله هذا الإله قائلاً: "أهلاً بحاتحور"، فأجابته: "وحياتك لقد كنت جبّارة مع الناس وهذا يسعد قلبي". وخشي رع أن تبيد "حاتحور" في اليوم التالي البشر فقال: "نادوا لي على التوّ رسلاً مسرعين يجرون مثل الظلّ"، وحضر الرسل وقال لهم رع: "أسرعوا إلى إليفانتين وأحضروا لي كثيرًا جدًّا من "الديدى"[1] وأعطوا هذا "الديدى" إلى الإله "ذي الضفيرة في هليوبوليس"، وقام هذا الإله بطحنها على حين قامت خادماتها بتحضير الجعة من الشعير، وخلطوا الديدى مع الجعة فأصبح يشبه "دم البشر" فملأوا منها ٧,٠٠٠ إبريق، وعندما أصبح الصباح الذي ستقتل فيه الآلهة الناس قال: "سأحمي الناس منها، فاحملوا هذا إلى المكان الذي تنوي قتل الناس فيه" فنفّذوا الأمر وصبّوا الجعة هناك حتّى غمرت الحقول وارتفعت عنها بمقدار أربعة أمتار، وفي الصباح التالي خرجت الآلهة ووجدت المكان مغمورًا ورأت وجهه معكوسًا على السائل بشكل جميل فشربت منه واستطابت طعمه وقفلت راجعة وهي ثملة فلم تتعرّض للناس. وإذا كان الإله العجوز

---

١ - يبدو أنّها مادّة تصبغ إلى اللون الأحمر.

قد حفظ بني الإنسان من الهلاك إلاّ أنّه لم يرغب في البقاء سيّدًا على هذه المخلوقات الناكرة للمعروف، ولقد قال متململاً: "وبحياتي لقد تعب قلبي من وجودي معهم". وهنا تدخّل "نون" العجوز في الأمر ونادى على ابنته "نوت" التي على شكل بقرة وجلس "رع" على ظهرها فرفعته إلى السماكين وتكوّنت بذلك السماء. وعندما ألقت نون بنظرها إلى أسفل، ارتعشت من شاهق الارتفاع"، فنادى رع الإله "شو" وقال له: "إبني شو، ضع نفسك تحت ابنتي نوت، وخذها فوق رأسك". فنفّذ "شو" ما أُمر به وسند منذ ذلك الحين بقرة السماء التي تلمع النجوم على بطنها وتتحرّك الشمس فوقها في قاربها هنا وهناك[1].

وتحدثنا المدوّنات عن القمر ونشأته فتقول: عندما كان رع يسكن السماء قال مرّة: "نادوا لي تحوت". فأحضروه إليه في الحال، فتحدّث جلالة هذا الإله إلى تحوت قائلاً له: "فلتكن أنت في السماء مكاني إبّان تلك المدّة التي أضيء فيها الدنيا السفلى، فأنت في مكاني كنائب عنّي، ولسوف يدعوك الناس بنائب رع". ويُصاغ هذا الحديث بأسلوب يعتمد على اللعب بالألفاظ فينشأ عن ذلك أشياء مختلفة، فهو يقول: "وسوف أجعلك تحتضن IONH السماء بجمالك وبأشعّتك فينشأ عن ذلك القمر IOH"، ثمّ في مناسبة أخرى خاصّة بتحوت كنائب لرع، يقول: "سأرسل HOB إليك مَن يفوقك عظمة، فنشأ "ايبس طائر تحوت".

وانتشرت في كثير من الأساطير المصريّة طريقة اللعب بالألفاظ، ما أدّى إلى نشوء أشياء كثيرة. وقد نسب باحثون هذه الظاهرة إلى اهتمام المصريّين وتعلّقهم بتحميل اللفظ الواحد أكثر من معنى يحوي كلّ منها شيئًا من كنه الإسم، فمثلاً إله

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٠٢ ـ ١٠٥؛ وردت هذه الأسطورة مع شيء من الاختلاف تحت عنوان آلهة هليوبوليس.

الشمس كإسم أعطى صاحبه صفتَين "الذي خلق نفسه"، و"الذي أنشأ اسمه". والتاريخ الذي نسرده هنا يتعلّق بأسطورة "عين الشمس" التي هي النجم نفسه، ورأى فيها الناس أيضًا ذلك الكائن المخيف الذي أوقف نفسه على خدمة "رع"، وأحيانًا كانت عندهم كواحدة من الآلهات العظمى. وهذه العين اعتُبرت مستبدّة، وهذا ما تشير إليه القصّة التي تقول إنّ رع أرسل عينه يومًا في مهمّة، لا بدّ أنّها كانت مكافحة بعض أعدائه، لكنّها لم ترجع، فأرسل لإحضارها "شو" و"تفنت" فأغضبها ذلك كثيرًا، فبكى "رع" ومن دموعه كانت البشريّة. وهنا نجد لعبًا على الألفاظ بين "رميت" بمعنى دموع، و"رميت" بمعنى البشر، ثمّ "زاد حنق العين عندما رجعت ووجدت عينًا أخرى قد نمت في مكانها، عندئذ وضعها الإله على جبينه كثعبان، ومنذ ذلك الوقت حكمت عين الشمس العالم بأجمعه، ولا غرابة في ذلك فإنّ هذا الثعبان الذي حمله رع فوق جبينه هو رمز قوّته. أمّا "شو" فأصبح هو الآخر، منذ ذلك الحدث، يُسمّى "أونوريس" أي "الذي أحضر البعيدة".

ومن هذه الأسطورة اشتقّت قصّة وصلت إلينا من المعابد وترجع إلى العصر اليونانيّ في مصر، ويبدو أنّها انتشرت بين الناس انتشارًا كبيرًا، وهي تقول: سكنت الإلهة "تفنت" في صورتها كلبوَة متوحّشة الصحراء النوبيّة، وكانت تمزّق أعداءها إربًا والنار تشعّ من عينيها وتخرج من فمها، ثمّ أراد "رع" أن تكون بالقرب منه، فأرسل إلهَين في طلبها هما أخوها "شو" الذي كان على شكل أسد جبّار، و"تحوت" إله الحكمة والطلاسم، وتقمّص هذان الإلهان صورة قردَين ورحلا إلى بلاد النوبة حيث تقابلا مع اللبوَة في الصحراء، وتقدّم "تحوت" في صورة قرد صغير أمام ذلك الحيوان الجبّار، وبدأ بحديث ودّيّ عن الحياة وجمالها في مصر وعن استعداد المصريّين تقديم أنواع صيد البرّ والنبيذ إليها، فرقّت الآلهة لحديثه ورافقتهما إلى مصر، وفي "فيلَه"،

أقصى الحدود الجنوبيّة لمصر، أطفأت نارها في مياه المكان المقدّس، فتحوّلت من لبوَة إلى إلهة جميلة، وهلّل الجميع لها واستقبلوها وأقاموا لها الحفلات، ثمّ رحلت شمالاً على ظهر سفينة وتوقّفت في أماكن عديدة وفي كلّ مكان استُقبلت بالتهليل والفرح، فنزلت في "أومبوس" وفي "ادفو" وفي "الكاب" و"إسنا" و"دندرة" التي أصبحت منذ ذلك الوقت مكانها المختار. ولا غرابة في ذلك فهي ليست إلاّ الإلهة حاتحور أي الإلهة التي احتفل الناس بها تارة كـ "سخمت" الشريرة، وطورًا كـ "باستت" الطيّبة.

أسطورة
أوزيريس

من أهمّ الأساطير المصريّة القديمة أسطورة أوزيريس التي تغلغلت في الدين منذ العصور الأولى، بل وأثّرت في بعض نواحيه، ولو أنّ هذه الأسطورة في أصلها بسيطة جدًّا لا تتعدّى قصّة ملك طيّب قتله أخوه الشرّير، فأحضرت زوجته جثّته ونجحت في أن تردّ إليه الحياة ولكن ليست كاملة، ثمّ عكفت على تربية ابنه في كتمان مطلق، حتّى إذا ما ترعرع وصلب عوده انتصر على قاتل أبيه وجلس على عرشه. وهي كما نرى قصّة جميلة فهم الشعب مغزاها الطيّب. ويبدو أنّ هذه القصّة انتشرت من موطنها الأصليّ وهو شمال الدلتا، على أفواه القصّاصين إلى جميع الأرجاء المصريّة، وأصبحت من بين التراث القوميّ للشعب المصريّ، وأثّرت على الديانة المصريّة تأثيرًا بيّنًا، بحيث أصبحنا لا نتصوّر هذه الديانة من دون قصّة أوزيريس. وهناك عوامل كثيرة أكسبت قصّة أوزيريس كلّ هذه القوّة، منها أوّلاً، الاعتقاد بأنّ الاستبداد والتعسّف ليسا هما القوّتان اللتان تسودان العالم، بل الحقّ والإخلاص؛ وثانيًا، الاعتقاد بانتصار الإله المقتول على الموت، فلو أنّه قد مات حقًّا، إلاّ أنّه قد استرجع

الحياة، ولو أنّه تنازل عن حقّ السيادة على الأحياء إلى ابنه حوريس إلاّ أنّه أصبح سيّدًا على الموتى، فأولئك الذين مثله يستحقّون التمتّع بحياة ثانية.

هذه كلّها كانت أفكارًا يتمسك بها الشعب المصريّ منذ أول عصوره، ولكنّ هذه القصّة كانت بمثابة المثل الواضح الذي تبلورت فيه هذه الأفكار وأصبحت لهم بمثابة الحقيقة الواقعة، وأخذ كلّ مصريّ ينسج لنفسه حياة على منوال أوزيريس وإيزيس. وأصبحت هذه القصّة من صلب الديانة الرسميّة في عصر مبكّر، وبقيت ثابتة الأصول من دون مداخلات أو تغييرات، ولو أنّ تفصيلاتها تغيّرت على مرّ آلاف السنين. ومن الطبيعيّ أن يتساءل الباحث عن صحّة هذه القصّة وعن حقيقة وجود ملك يحمل هذا الإسم. ولقد تحدثنا سابقًا عن أنّه كان لأوزيريس صور مختلفة، فقد صُوِّر تارة كماء الفيضان، وتارة هو الأرض، ثمّ عُبد كإله للموتى. ولقد ورد في أقدم المتون الدينيّة بعض التلميحات لهذه القصّة ولكنّها لا تتّفق مع ما عرفناه عنها؛ فنجد أوزيريس مثلاً ابنًا للإله "كب" والإلهة "نوت"، وأنّ أخاه الشرير "ست" كان يتعقّبه، وشاركه في المؤامرة أخ آخر هو "تحوت" وتمكّن "ست" من أن يهزم أخاه ويقتله، ثمّ رمى به في النيل فسبحت جثّته في الماء وكان لونها أخضر وأسود، ومن هنا أتت تسمية البحار تارة "بالأخضر الكبير" وتارة "بالأسود الكبير". وعندما اختفى أوزيريس حزنت جميع الآلهة وبكت إيزيس وصرخت نفتيس. أمّا إلهة مدينة بوتو، موطن أوزيريس الأصليّ، فقد "أخذت تضرب لحومها وأذرعتها ونفشت شعرها". والإلهان الوحيدان اللذان لم يبكيا هما "ست" و"تحوت". أمّا الجثّة فقد بليت، ولكنّ "نوت"، أمّ أوزيريس، قد انحنت عليها "فضمّت عظامها بعضها إلى بعض وأعادت القلب إلى الجسم ثمّ وضعت الرأس في مكانه. أمّا إيزيس ونفتيس فقد بحثا في كلّ مكان حتّى عثرا على الجثّة الملقاة في الماء، فأمسكت إيزيس بها وأخرجتها، وأسرعت الآلهة لمساعدتها، فرفع "رع" رأسه،

وأمر أوزيريس أن يستيقظ فاستيقظ واستقبل حياة جديدة، فهو الذي هجر النوم وكره التعب، وهكذا لم يتعفّن جسد أوزيريس ولم يبلَ".

أمّا عن حوريس وكيف وضعت بذرتها، فقد تصوّرها الناس كما يأتي:

تحوّلت إيزيس إلى طائر حطّ فوق جثّة زوجها وحملت منه، ثمّ وضعت حوريس وتعاونت مع نفتيس على تربيته، وترعرع حوريس الطفل "الذي يضع إصبعه في فمه"، وتقاتل مع قاتل أبيه الذي انتزع منه عينه، كما انتزع حوريس منه خصيته. وبعد أن انتصر حوريس استرجع عينه من ست، وألصقها بأبيه أوزيريس وفتحها له كي يرى بها. وهذه التضحية كنتيجة للحبّ البنويّ جعلت أوزيريس يحيى ويقوى حتّى أوقع الرعب في قلوب أعدائه.

وهناك رأي آخر يقول إنّ الإبن أعطى الأب ليأكل أيضًا. وعندما دعى كب الآلهة للاجتماع في قصر الأمراء بهليوبوليس للمحاكمة لم يقرّ ست بالحقيقة. ولقد شهدت إلهتا الحقّ المحاكمة كما دُعي "شو" كشاهد. "وقرّرت إلهتا الحقّ أنّ عرش كب هو له". أمّا حوريس فقد جعل ست ينحني تحت أوزيريس، فيحمله بذلك إلى الأبد، واستولى أوزيريس على كلّ تيجانه وأجلسه كب على عرشه، وهكذا حكم كإله ليس له أعداء، وانتهى الحزن وعاد الضحك[1].

ومن بين القصص العديدة التي حيكت حول أسطورة إيزيس نذكر ما تقول إحداها أنّ إيزيس قطعت أيدي حوريس وقذفت بها في الماء، وعندما أرادوا استعادة الأيدي دعوا "سوبك"، وهو الإله على شكل التمساح، ولكنّه لم يتمكّن في بادئ الأمر من العثور عليها واضطرّ أخيرًا أن يستعين بشبكة الصيد ليلتقطها، وكانت هذه الشبكة

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١١٢ ـ ١١٤.

تُعتبر ككنز سريّ محفوظ في معبد هيراكونبوليس. وأهمّ من هذه قصّة أولاد حوريس الأربعة وهم: "أمستي" و"حابي" و"دواموت ـ اف" و"كبح ـ سنو ـ أف". ويقولون إنّ حوريس قد أنجبهم من أمّه نفسها، ولقد عهد إليهم أنوبيس بالقيام بدفن أوزيريس "فغسلوا أوزيريس ثمّ بكوه وفتحوا فمه بأصابعهم النحاسيّة ليتمكّن من أن يأكل ويتحدّث ثانية". ولقد كان أولاد حوريس هؤلاء حقلاً واسعًا ترتع فيه تخيّلات الشعب المصريّ فاعتقدوا أنّهم كنجوم يمكن العثور عليهم في السماء. ويبدو واضحًا من بعض الرسوم التي تصوّرهم أنّهم اعتُبروا، في أساطير أخرى، أنّهم نشأوا في زهرة لوتس ثمّ تفتّحت عنهم.

تُعتبر نماذج العصر المتأخّر عن حياة أوزيريس ونصيبه منها أقوى وأمتع ممّا تتحدّث عنه أساطير من العصور القديمة. ففي الأساطير المتأخّرة أنّ إله الأرض "كب" وإلهة السماء "نوت" أنجبا أربعة أطفال: ولدَين هما أوزيريس وست، وابنتَين هما إيزيس ونفتيس. تزوّجت الأولى من أوزيريس، والثانية من ست. وحكم أوزيريس العالم كملك وعلّم الناس كلّ طبّ مفيد، وورّثه كب فأعطاه ملك القطرَين وأسند إليه قيادة البلاد لسعادته، وسلّمه هذه الأرض في يده: ماءها وهواءها ونباتها وقطعانها وكلّ ما يطير وكلّ ما يسبح في الفضاء وديدانها ووحوشها، كلّ ذلك أُعطي لابن نوت وسعدت مصر بذلك. وكان أوزيريس ملكًا عظيمًا، و"سطع على عرش أبيه كالشمس عندما تشرق في السماء فترسل بأشعّتها لكلّ مَن يعيش في الظلام"، وكان عادلاً "تثبّت من أقدام الحقيقة في مصر"، وحيثما تكون الحرب يظفر بإنهائها لأنّه كملك يُلقّب بـ "الذي يسوّي المعارك الدامية"، ثمّ إلى جانب ذلك كان بطلاً من أبطال الحروب، واسع الشهرة إذا ما أوقع بأعدائه، قويّ الشكيمة إذا ما أردى عدوّه قتيلاً، وكان أعداؤه يرتجفون أمامه، وعمل على توسيع رقعة بلاده"، وكذلك كان مبرّزًا في سيادته على

الآلهـة "كمرشـد لكلّ إلـه بـأوامر صـائبـة مدحتـه التاسـوعة الكـبرى وأحبّتـه التاسـوعة الصغرى". ولم يتحدّث النصّ عن السبب الذي أوغر صـدر "سـت" منـه. وربّمـا اعتُبر السبب منطقيًّا لا يحتاج إلى تنويه، فما دام هناك في أسرة ملكيّـة أخـوان أحدهمـا يملـك فليس من شكّ في أن يصبح الثاني عدوًّا له. وكلّ مـا نعرفـه هـو أنّ أوزيريس حجب "ست"، الذي لم يستطع أن ينال أخاه بسوء لمدّة طويلة، ولا غرابة في ذلك فإنّ إيزيس كانت تحميه "فهي حاميته التي تدفع أعداءه عنه... وكانت ذكيّة، لسانها سليط وبديهتها حاضرة، وأوامرها محكمة"، ولذلك تحايل "ست" على قتل أخيه ونجح في ذلك. وهكذا بقيت إيزيس وحيدة مسكينة لم تعرف حتّى أين المكان الذي استقرّت فيه جثّة زوجها، "وبحثت عنه دون ملل، وجابت الأرض كلّها والهمـوم تمـلأ صدرها ولـم تـدع للقنوط سبيلاً إلى قلبها إلى أن عثرت عليه". ثمّ جلست مع أختها نفتيس بجـانب الجثّة وأخذتـا تولولان بالنشيد الذي أصبح في ما بعد نموذجًا لكلّ الأناشيد الجنائزيّة:

> إرجع إلى منزلك! إرجع إلى منزلك! أيّها الإله "أون" عد إلى منزلك، أنت الذي لا أعداء لك. أيّها الشاب الجميل. إرجع إلى منزلك، لتراني، فـإنّي أختك التي تحبّها. ويجب ألاّ أفقدك. أيّها الطفل الجميل، عد إلى منزلك.. إنّي لا أراك الآن ومع ذلك فقلبي يفيض حبًّا لك، وعيناي تتلهّفان عليك... عد إلى تلك التي تحبّك، التي تحبّك يا "أون نفر" المبرور أو المنعم. عد إلى أختك، عد إلى زوجتك، إلى زوجتك أنت الذي جمد قلبك. عد إلى زوجتك فـإنّي أختك من أمّ واحدة فيجب ألاّ تبعد عنّي فالآلهة وبنو البشر يتوجّهون إليك باكين إيّاك. أناديك وأبكيك حتّى يسمع صوتي في السماء ولكنّك أنت لا تسمع صوتي. وبينما أنا أختك التي أحببتها على الأرض ولم تحبّ غيرها يا أخي، يا أخي.

وهكذا ندبته وعطف عليها أسمى الآلهة مكانًا؛ إذ أرسل إليها "رع" إبنه الرابع أنوبيس فنزل إليها من السماء، لكي يدفن أوزيريس، فجمع أشلاء هذا الإله التي لم يبقَ

منها غير العظام ـ كما ورد في النصوص المتأخّرة ـ أو التي مزّقهـا "ست" ثمّ طواهـا في لفائف وأتمّ كلّ المراسيم التي أصبحت في ما بعد نموذجًا يحتذي به المصريّون. أمّا إيزيس فروّحت بأجنحتها فهبّ الهواء ودبّت الحياة في جسم الإله الميت وحرّك ذراعـه ثمّ انقلب على جانبه، ورفع رأسه، ولمّا كان مـن الصعب عليـه أن يحيـا فـوق الأرض حياته الأولى، لذلك أصبح لزامًا عليه أن يحيا حياة ثانية. وبذلك صار ملكًا للموتى بعـد أن كان ملكًا للأحياء. ولكنّ النصر كان حليفه أيضًا فوق الأرض، إذ تـرك لهـا وريثـه الذي أنجبه من إيزيس. فعندما حملت إيزيس هربت من مطاردة "ست" لها إلى أحـراش الدلتا، وهناك وفـي هـذا المكـان الموحـش حيـث ظهـرت فـي مـا بعـد مدينـة CHEMMIS وضعت ولدًا هو حوريس الذي "رضع في هذه الوحـدة ولا يـدري إنسـان أيـن مكانـه"، ولقد عطفت عليها الإلهة "بوطو" حامية الدلتا، لأنّ الأخطار هدّدت حوريس الـذي كـان ينجو منها باستمرار بيقظة وعناية أمّه إيزيس، ولم يكن أحـبّ إلـى المصـريّ مـن تلـك الصورة التي تمثّل الإلهة الأمّ وعلى حجرهـا رضيعهـا. وهكذا ترعـرع حوريـس فـي الخفاء حتّى "إذا ما اشتدّ ساعده قام يقاتل ست"، ولقد كان قتالاً رهيبًا فقـد فيـه حوريـس عينه وتشوّه فيه "ست"، ولكنّ "تحوت" خلّصهما من بعضهما وطبّبهما. وعندمـا انتصـر حوريس قادته أمّه إيزيس إلى قاعة "كب"، فحيّاه الآلهة المجتمعون هناك فرحين قائلين: "أهلاً بك حوريس يا ابن أوزيريس، أيّها الشجاع، مخلّص حقّـه، إبـن إيزيـس ووريـث أوزيريس". لكنّ "ست" رفـع أمـره إلـى المحكمـة طاعنًـا بشـدّة ـ كمـا ورد فـي الوثيقـة اليونانيّة ـ في صحّة ميلاده، وفي أحقّيّته فـي الوراثـة. فعقد الآلهـة الكبـار جلسـة فـي "قاعـة كـب" وفحصـوا الشـكوى، إلاّ أنّهم أداروا ظهورهم للبـاطل، إذ وجـدوا أنّ الحـقّ بجانب حوريس، فأعطوه ما كان لأبيه "فخـرج متوّجًـا تبعًـا لأمـر كـب وأصبـح حاكمًـا للقطرَين وبقي التاج فوق جبينه". ولقد كانت هذه القضايا تُنظـر باسـتمرار فـي "القاعـة

الكبرى بهليوبوليس"، وتؤكّد المصادر المصريّة على أنّ أوزيريس قد تقدّم أمام هذه المحكمة للدفاع عن تهم وجّهها إليه "ست" وأعداؤه الآخرون، إلاّ أنّ "تحوت" دافع عنه وأظهر براءته، فحكمت الآلهة على "ست" وأعلنت نصر أوزيريس الذي وضع قدمه فوقه ثمّ ارتفع أوزيريس إلى السماء حيث حكم هناك. وإذ اعتقد الإنسان أنّ العالم الثاني كان تحت الأرض، فيكون مكانه في الأعماق حيث حكَم الموتى، "كذلك الذي يأتي إليه الجميع ممّن كانت تدبّ فيهم الحياة، فهو الوريث المحبوب للإله "كب" ملك مصر العليا والسفلى "أون نِفر"، وهذا الإسم: "أون نِفر"، هو اسم أوزيريس كملك لعالم الموتى، فهو أوّل أولئك الذين سكنوا الغرب، أي "عالم الموتى"، بينما كان ابنه حوريس أوّل الأحياء الذين حكموا الأرض، وبه يبدأ عصر الدنيا الحاليّة، ولا غرابة فكلّ ملوك مصر ليسوا سوى خلفائه الذين جلسوا على عرشه. ولقد أحبّ المصريّون هذه القصّة لِما فيها من مشاعر بشريّة، ونظرًا لنزوع أوزيريس إلى الحقّ وولاء إيزيس لزوجها وحبّها لابنها، ثمّ نظرًا لتقوى حوريس الطفل.

والفصل الأخير من هذه الأسطورة، الذي يتعلّق بالكفاح بين حوريس وست، وصفته قصّة كُتبت في العهد المتأخّر من عصر الدولة الحديثة، حفظتها برديّة "بيتي"[1]، من دون أن تأتي القصّة على الكفاح الذي أدّى إلى إصابة كلّ منهما بجروح، وإنّما تعرض الأمر وكأنّه نزاع قانونيّ بعيد عن القوّة والخشونة، وتبدو الآلهة وكأنّها بشر، وفيها صُوّر حوريس كابن فقد أباه، وست كرجل حقير متعسّف يخافه ويخشاه كلّ الآلهة إلاّ "رع حوراختي" "سيّد الجميع" الذي رأس جلسات المحكمة، والذي كان يميل إلى انتصار "ست" واعتبره كساعده الأيمن في سفينة الشمس يقتل الأعداء أثناء

---

١ ـ قصّة حوريس وست، علّق عليها ونشرها غاردنر.

رحلتها. وتروي القصّة أنّ المحكمة تكوّنت من التاسوعَين، أي من أكثر الآلهة إجلالاً واحترامًا، وكان يقود مناقشاتها "شو أونوريس"، ودوّن محاضرها "تحوت"، أمّا "آتوم" إله هليوبوليس، فاعتُبر في درجة عليا يقف على الحياد أثناء النظر في القضيّة. وقد استمرّ انعقاد الجلسات ثمانين عامًا دون أن تستطيع المحكمة أن تصدر الحكم، والواقع أنّ المسألة كانت دقيقة لأنّها تتعلّق بمعرفة ما إذا كان حوريس الذي وُلد بعد وفاة أبيه هو حقيقة ابن له. وعندما اقتنع "شو أونوريس" ابن "رع" بأحقّيّة حوريس، نادى آمرًا بأن يُعطى مكان أبيه، وأعلن تحوت أنّ ذلك "صحيح مليون مرّة"، ثمّ صاحت إيزيس عاليًا من الفرح ونادت ريح الشمال قائلة: "إذهب إلى الغرب، وأبهج نفس "أون نفر" بهذا الخبر". أمّا "رع" كرئيس فكان له رأي آخر، ولاذ بالصمت والغضب يتملّكه من التاسوع، بيد أنّ ست صاح طالبًا أن يُطرد خارجًا مع حوريس وسيُريه حينئذ ماذا يستطيع أن يفعله، وفي الحقّ فإنّه قد أطبق عليه بيده، ولكنّ تحوت قال: إنّه ليس بالإمكان إعطاء منصب أوزيريس لأخيه ما دام يوجد ابن له من صلبه، فغضب "رع حوراختي" بشدّة لأنّه كان يرغب بإعطاء المنصب لست. عندئذ اقترح آتوم إحضار كبش منديس ليكون حاكمًا، والسبب في ذلك عائد إلى أنّ هذا الإله الخاصّ بالنسل هو خير مَن يستطيع أن يعرف ما إذا كانت صحّة نسب حوريس تستند إلى أساس صحيح، ولكنّ كبش منديس امتنع عن التدخّل واقترح إخراج الطرفَين وطردهما، كما اقترح كتابة خطاب إلى "نيت" العظيمة، أمّ الإله، على أنّ ينفّذ الأمر الذي تشير إليه، ففعلوا ذلك، وكان جواب "نيت" هو ضرورة إعطاء منصب أوزيريس لابنه حوريس وإلاّ ستغضب وستُسقط السماء على الأرض، واقترحت أن يأخذ ست، بصفة تعويض، عَنَت وعشترت الإبنتَين الأجنبيّتَين لرع. بيد أنّ "سيّد العالم" غضب لاعتقاده بأنّ حوريس ضعيف وأنّ المنصب لثقيل جدًّا عليه. فاستاء أونوريس جدًّا وكذلك التاسوع

في طبقتَيه، وامتلأت نفس "رع" بالحزن، فألقى بنفسه على الأرض من فرط استيائه، وأمضى الإله العظيم يومًا بأكمله مستلقيًا على ظهره في قاعته والوحدة تحيط به. على أنّ حتحور، سيّدة شجرة الجميّز الجنوبيّة، حضرت إلى والدها سيّد الجميع ومكثت معه وكشفت عن عورتها، فانفجر الإله ضاحكًا وقام واتّخذ مكانه في وسط التاسوع العظيم. ودارت المحاكمة من جديد وكادت أن تنتهي بإعطاء إيزيس وابنها الحقّ في المنصب، فأقسم ست على أن يأخذ صولجانه البالغ طوله ٤,٥٠٠ ذراع وعلى أن يقتل كلّ يوم واحدًا حتّى لا يبقى في المحكمة أحد ما دامت إيزيس باقية فيها. فقرّر "رع حوراختي" نقل المحكمة إلى "الجزيرة الداخليّة" وأمر ملاّح الجزيرة بألاّ يسمح بعبور أيّة امرأة يمكن أن تشبه إيزيس، لكنّ هذه الأخيرة اختفت في شكل امرأة عجوز تسير وقد انحنى ظهرها، تحمل في إصبعها خاتمًا من الذهب، واقتربت من الملاّح وقالت له: "إنّي أحضر إليك ومعي إناء من الدقيق لصغير يرعى الماشية في الجزيرة منذ خمسة أيّام وقد اعتراه الجوع". لكنّه منعها من العبور، فقالت له: "أهذا بسبب إيزيس؟ سأعطيك هذا الخبز". ولمّا استمرّ الملاّح في رفضه أعطته خاتمها الذهبيّ، فنقلها بالرغم من قرار الحظر. ومرّت إيزيس تحت أشجار الجزيرة فرأت التاسوع يتناول طعامه مع سيّد الجميع في قاعته، ولمّا رآها سيّد الجميع من بعيد، تحوّلت إلى امرأة شابّة حسناء رائعة الجمال فوقع الإله في حبّها وترك الطعام واتّجه نحوها، لأنّ أحدًا لم يرها سواه، ثمّ أخفى نفسه وراء شجرة ونادى: "إنّي هنا أيّتها الفتاة الجميلة"، فأجابت: يا سيّدي العظيم، لقد كنت زوجة راعي قطيع وأنجبت له ولدًا، غير أنّ زوجي توفّي وتولّى ابني رعي ماشية أبيه، ولكنّ أجنبيًّا حضر وجلس في حظيرتي وقال لإبني: "ساضربك وآخذ ماشية أبيك وأطردك"، وإنّي أودّ أن تكون له حاميًا ومعينًا. فقال لها ست: "أتعطي الماشية لرجل أجنبيّ، على حين يوجد ابن الرجل على قيد الحياة؟". عندئذ تحوّلت

إيزيس إلى طائر وطارت واستقرّت في أعلى قمّة شجرة "سنط" وصاحت به: "الخزي لك، إنّ فمك نفسه قد قالها، وإنّ مهارتك نفسها قد حمكت عليك، فماذا تريد بعد ذلك؟". عندئذ ارتبك ست وذهب إلى "رع حوراختى" والخزي والعار يجلّلانه وقصّ عليه ما حصل له، فقال له "رع حوراختى": "أجل إنّك أنت الذي حكمت على نفسك بنفسك، فماذا تريد بعد ذلك؟". وبناء على تعليمات ست أُحضر الملاّح، وكان إلهًا صغيرًا، وحوكم أمام التاسوع وعوقب، وأصبح الذهب ملعونًا ومكروهًا في مدينة هذا الإله بسبب خاتم الذهب. بعد ذلك غادر الآلهة الجزيرة واستقرّوا فوق جبل الشاطئ الغربيّ، بيد أنّ "رع حوراختى" و"آتوم" كتبا معًا إلى التاسوع بإعطاء حوريس التاج الأبيض وتنصيبه مكان والده. فاغتاظ ست غضبًا وأقسم قائلاً: "إنّي سأنزع التاج الأبيض من على رأسي وألقي به في الماء حتّى يمكنني أن أقاتله بشأن السلطة". ووافق "رع حوراختى" على هذا الاقتراح، وتحوّل الإثنان إلى فرسَي بحر وكان عليهما القفز والغوص في عرض البحر، على أن يخسر الرهان مَن لا يستطيع البقاء تحت الماء أكثر من ثلاثة أشهر. فتحوّلت إيزيس إلى سنّارة ورمتها في الماء، فأمسكت بخناق حوريس الذي صرخ طالبًا منها تركه فاستجابت، وعادت ورمت السنّارة من جديد في الماء فأمسكت بست الذي صاح بدوره أن تتركه، فأشفقت عليه إيزيس وفعلت. لكنّ حوريس غضب من أمّه وخرج من الماء كالفهد الشرس وقطع رأس إيزيس وأخذه تحت ذراعه وصعد به إلى الجبل، عندئذ اتّخذت إيزيس شكل ملكة من الصوّان من غير رأس[1]، ورأى ذلك "رع حوراختى" ولمّا استفسر عن هذا الشيء الغريب البلا

---

١ ـ يورد إرمان هنا الملاحظة التالية: يتّفق هذا مع أيّ صخرة كانت تبدو كأنّها "إيزيس بغير رأس". وفضلاً عن هذا ينقص هذه القصّة جزء مهمّ نعرفه من برديّة SALL. IV 2: 6 - 3: 6. ومن بلوتارك، فقد منح تحوت إيزيس رأسًا جديدة، وهي رأس بقرة، وقد تعوّدت حملها بصفتها إيزيس ـ حاتحور.

رأس، وعرف ما فعل حوريس، أمر التاسوع بمعاقبته، وصعدوا إلى الجبل فوجدوا حوريس مستلقيًا مستخفيًا تحت شجرة في بلد الواحة، فضربه ست وانتزع عينَيه ودفنهما في الجبل فنبتتا في شكل زهرتَين. وأعلن ست لـ"رع حوراختى" أنّه لم يجد حوريس، فذهبت حاتحور تبحث عنه فوجدته في الصحراء نائمًا يبكي. فاصطادت غزالة وحلبت منها لبنًا وضعته في العين اليمنى وفي العين اليسرى فشُفي. وأبلغت "رع حوراختى" بما حصل، فاستدعى التاسوع حوريس وست أمامه ووجّه "رع حوراختى" الكلام إليهما قائلاً: "إذهبا، فقد سمعنا ما كان عليكما قوله. كُلا واشربا فإنّنا فرحون قانعون، وضَعا حدًّا لهذه المعركة التي ما فتئتم تبدأونها كلّ يوم". عندئذ دعا ست حوريس إلى منزله، وعندما أقبل الليل أعدّ لهما فراش، لكنّ ست اعتدى على حوريس اعتداء منكرًا[1].

واقترح ست من جديد فكرة لتسوية النزاع وإنهاء المعركة، بأن يبنيا قارَبين من الحجر يُبحران بهما، على أن يحصل على منصب أوزيريس مَن يبلغ نهاية الرحلة بسلام. فبنى ستّ قاربه من قمّة الجبل وبنى حوريس قاربه من خشب الأرز وطلاه بالجير، وعندما أبحرا غاصت سفينة ست في الماء وتحوّل هو إلى فرس بحر دمّر سفينة حوريس، الذي تمكّن من طعن خصمه بوساطة مزراق بطريقة بلغ من عنفها أن تدخّل التاسوع طالبًا الرحمة والعفو عنه. عندئذ أبحر حوريس حتّى بلغ "سايس" وذهب لزيارة "نيت" العظيمة، أمّ الإله، والتمس منها المعونة في قضيّته التي استغرقت ثمانين عامًا، لكنّنا لم نعرف الحكم الذي أصدرته نيت. وأخيرًا اقترح تحوت كتابة خطاب

---

١ ـ هذا الفعل المنكر، والحيلة التي أفلحت إيزيس في إنقاذ ابنها من هذه الفضيحة والخزي، كلّ هذا مشروح بدقّة وتفصيل لا يمكن سرده هنا. وإذا استثنينا هذه القصّة، فإنّ اللواط يكاد لا يظهر في مصر القديمة، فيما يبدو أنّ الغرض هو تصوير "ست" تصويرًا سيّئًا للغاية.

إلى أوزيريس ليحكم بينهما، ووافق الجميع على ذلك، فردّ أوزيريس إلى الآلهة صارخًا:

لماذا تخطئون في حقّ ابني حوريس؟ ألستُ أنا الذي أقوّيكم وأخلق القمح والشعير لكي يكون غذاء الآلهة، والماشية بعد الآلهة، ولم يستطع أيّ إله آخر أو إلهة أخرى أن يفعل ذلك؟ إنّه إذا اختفت الحقيقة وغرقت في العالم السفليّ فإنّ على رع أن يفكّر في ما يتعلّق به على وجه خاصّ. ألا يوجد في البلد الذي يقيم فيه أوزيريس رسل لهم نظرات مرعبة لا تخاف أيّ إله أو آلهة؟ إنّي سأجعلهم يخرجون ليرهبوا قلوب أولئك الذين يقترفون الشرّ، وعندئذ سيكون عليهم أن يكونوا هنا معي، وفي الحقّ، ما فائدة وجودي هنا وبقائي في الغرب، على حين تظلّون جميعكم في الخارج؟ مَن منكم أقوى منّي؟ ولكنّهم يخطئون ويكذبون، فعندما خلق بتاح السماء ألم يقل لنجوم السماء: سوف تستريحون كلّ ليلة في الغرب حيث يحكم أوزيريس كملك؟ وفضلاً عن الآلهة فإنّ الناس والشعب عليهم أن يستريحوا حيث تكون أنت، هذا ما قاله لي".

ولمّا سمع التاسوع مضمون خطاب أوزيريس الذي قرأه تحوت قالوا: "إنّ كلّ ما قاله صحيح جدًّا، فهو سيّد الطعام". وأعلنت المحكمة أخيرًا أحقيّة حوريس، وكلّف آتوم إيزيس أن تحضر ست مقيّدًا بالأغلال، ولامه على عدم إذعانه لقرارات المحكمة، واعتلى حوريس عرش أوزيريس وتُوّج بالتاج الأبيض، وحيّت إيزيس ابنها كملك طيّب على البلاد. وأعلن "رع حوراختي" بأن يُعهد بأمر ست إليه لكي يضعه في منزلة الإبن وأن يُسمع صوته في السماء وأن يخشاه الجميع. وهكذا انتظم كلّ شيء وابتهجت السماء والأرض بأكملها[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١١٨ ـ ١٢٩.

ويرى الباحث أنّه من حقّ مَن يقرأ هذه القصّة أن يتساءل عمّا إذا كان يحقّ لنا أن نقربها حقًا من أسطورة أوزيريس التي كانت تستمتع بأهميّة عظيمة في نظر الشعب المصريّ. ويقول: بيد أنّنا لا نعرف هذه القصّة إلاّ من مخطوطة من القرن الثاني عشر، لذلك فقد يداخلنا الشكّ في أنّها لم تكن إلاّ مجموعة من قصص ساخرة لمؤلّف واحد، استخدم فيها أشخاص آلهته. على أنّ هذا الشكّ لا يستند إلى أساس صحيح، إذ إنّ بعض أجزاء من هذه القصّة وصلت إليه عن طريق مصادر أخرى في صورة مماثلة تمامًا، فمثلاً الجزء الخاصّ بأفراس البحر وقطع رأس إيزيس[1]، وكذلك قطعة أخرى من قصّة أطول حُفظت لنا في برديّة ترجع إلى عهد أقدم بستّة قرون، وهذه القصّة تتضمّن بالضبط ذلك الجزء من القصّة الذي اخترنا تجاهله لِما فيه من فحش في القول، لهذا نجد أنفسنا مضطرّين إلى الاعتقاد بأنّ هذه القصص كانت تتعلّق بالأساس وتتناقلها الأفواه فمًا عن فم، إنّما تتناسب وتتّفق مع حاجات المستمعين، فالطبقات الدنيا من الشعب تجد لذّتها في غير ما تجد فيه الطبقات الراقية. وهكذا تشمل الأسطورة الجدّ والسخف والطيّب والخبيث، وتلك صفات ينتمي كلّ منها إلى الأسطورة سواء بسواء. وترينا أسطورة أوزيريس بنوع خاصّ في أحدث صيغة لها وهي ترجع إلى العصر اليونانيّ، كيف تقبّلت الطبقات المختلفة من الشعب فصولها المختلفة. وفي الكتاب الذي خصّصه لها "لوتارك" حذف كثيرًا من التفصيلات التي رآها غير لائقة بل نابية، ومع ذلك فقد كان أحد كبار المخلصين لعبادة إيزيس. والشيء الذي أعجب بلوتارك واستثار شوقه على وجه أخصّ في هذه الأسطورة هي الحوادث والمظاهر التي يمكن تفسيرها بأسلوب وطريقة فلسفيّة. وسنستعرض في إيجاز قصّة أوزيريس كما قرأها بلوتارك في الكتاب الذي زوّده بالأساس الذي اعتمده في تصويره

---

١ - PLUTARCH DE SALLIER, IV: 26FF.

لعقيدة إيزيس. محتفظين هنا لكلّ من ست وتحوت بالإسمَين اللذَين استخدمهما بلوترك وهما "تيفون" و"هرمس".

لقد لعن رع نوت حتّى لا تستطيع أن تلد في أيّ شهر من شهور السنة، ولكنّ هرمس ترفّق لها فخلق "أيّام النسئ الخمسة"[1] التي لا تدخل ضمن أيّ شهر من الشهور، وبهذا تمكّنت من أن تلد في هذه الأيّام أبناءها الخمسة: "أوزيريس" و"حوريس" و"ست" و"إيزيس" و"تفتيس". وعند ولادة أوزيريس ارتفع صوت من معبد طيبة معلنًا أنّ الملك العظيم الخيّر قد وُلد. وعندما استولى على السلطة عُني بالناس وغيّر الطريقة البدائيّة في الحياة التي كان الناس قد ألفوها من قبل حتّى ذلك الوقت، وأدخل زراعة الفواكه وأعطى الناس القوانين وعلّمهم كيف يعبدون الآلهة ويقدّسونها، وأخذ يجوب البلاد جميعها دون حاجة إلى حرب، وكان لا يجتذب الناس إلاّ بالتلطّف والإغراء والموسيقى. ولم يحدث في غيبته أيّ شرّ، لأنّ زوجته إيزيس كانت يقظة ساهرة، بيد أنّ تيفون الذي كان يتّقد بالغيرة دبّر مؤامرة ضدّ أوزيريس اشترك فيها اثنان وسبعون رجلاً، فأخذوا في تنفيذها عقب عودة أوزيريس، فقد صنع تيفون صندوقًا رائعًا بحجم أوزيريس تمامًا وعرضه في خلال مأدبة، ووعد مداعبًا بإهدائه لمَن يستطيع أن يملأه تمامًا، فلم يوافق الصندوق إلاّ أوزيريس فنام فيه، فأسرع في الحال أتباع "ست" المتآمرون ووضعوا الغطاء وأغلقوه بالمسامير وألقوا بالصندوق في النيل، وظلّ عائمًا حتّى بلغ البحر. وعندما اختفى أوزيريس، حزنت عليه أيزيس حزنًا عظيمًا وأخذت تجوب البلاد بحثًا عنه، ودلّها بعض الأطفال على الجهة التي انساق إليها التابوت لأنّهم

---

١ ـ من العقائد القديمة أنّ الآلهة الأوزيريّة ولدت في أيّام النسئ الخمسة، وفي هذا دليل ملحوظ على قدم أسطورة أوزيريس، وعندما ابتُدع التقويم عام ٤٢٤١ ق.م. كانت هذه الآلهة معروفة في هليوبوليس.

كانوا قد رأوا بطريقة الصدفة كيف ألقى أتباع تيفون الصندوق في البحر. وعلمت إيزيس أنّ الصندوق جنح إلى شاطئ فينيقية عند مدخل مدينة بيبلوس - جبيل، ونبتت شجرة نمت بسرعة واحتوته في داخلها، بيد أنّ ملك جبيل أُعجب بضخامة هذه الشجرة واتّخذ من جذعها الذي يضمّ الصندوق عمودًا يدعم سقف قصره. وعندما بلغت الإشاعة إيزيس سافرت إلى جبيل وجلست باكية في حالة شديدة من الذلّ والمسكنة بجوار نبع. وكانت لا تكلّم أحدًا ولا تلاطف إلاّ خادمات الملكة عشترت. فكانت تصفّف شعورهنّ وتعطّرها بالطيب الجميل الساطع الخاصّ بها. فعندما لاحظت الملكة الطيب الذي يفوح من خادماتها أمرت بإحضار المرأة الأجنبيّة واتّخذتها نديمة لها ومرضعة لطفلها. وكانت إيزيس تعطي الطفل إصبعها بدلاً من ثديها، وعندما جنّ الليل حرقت الأجزاء الفانية من جسمه وتحوّلت هي نفسها إلى عصفورة أخذت تحلّق نائحة حول العمود الذي يخفي جثّة أوزيريس. وحدث أنّ الملكة عشترت اكتشفت أنّ طفلها يرقد في النار أثناء الليل، فصرخت، وبذلك فقد الطفل خلوده. عندئذ كشفت الإلهة عن نفسها ونزعت العمود من تحت السقف وأخرجت الصندوق من باطن الشجرة، ولفّت الشجرة في الكتّان وغطّتها بالدهون، ولا تزال تُعرض حتّى اليوم في معبد جبيل على أنّها "خشب إيزيس". وانطرحت إيزيس على التابوت وأخذت تبكي وتندب بحسرة، على أنّ الإبن الأصغر للملك قد مات وأخذت الإبن الأكبر والتابوت وعادت بهما إلى مصر. وهناك في عزلة، فتحت الصندوق ووضعت وجهها على وجه الميت وقبّلته وهي تبكي وتنتحب، وعندها فاجأها الصبيّ فوجّهت إليه إيزيس، ونفسها تفيض بالغضب، نظرة بلغ من رهبتها أن مات من الخوف. وعندما ذهبت إيزيس إلى ولدها حوريس الذي كان يربّى في بوتو، خبّأت الصندوق الذي فيه جثّة أوزيريس، لكنّ تيفون الذي كان يصطاد ليلاً كشف عن مكانه فقطّع جسم أوزيريس إلى أربعة عشر قطعة وبعثرها.

وعندئذ أخذت إيزيس تجوب المناقع بقارب من سيقان البردى باحثة عن أشلاء الجثّة، فعثرت عليها جميعًا ما عدا عضو التناسل الذي لم تعثر عليه لأنّ نوعًا خاصًا من السمك كان قد التهمه، ومن ثمّ أصبح هذا النوع من السمك مكروهًا ومحرّمًا عند المصريّين. ثمّ دفنت جميع أجزاء الجسم الأخرى على انفراد، كلّ جزء حيث وجدته، وهذا هو السبب في تعدّد مقابر أوزيريس في مصر. بعدئذ خرج أوزيريس من العالم السفليّ ليعدّ حوريس للقتال. وقد سأله عن أجمل شيء في الوجود فأجابه الصبيّ: إنّه هو علاج الظلم الذي حاق بالوالد. وامتدح حوريس الجواد، أكثر من الأسد، لأنّه يمكن به مطاردة الهاربين. وعندما اتّخذ حوريس أهبّته للقتال كان تيفون قد هجره عدد ليس بالقليل من رفاقه ومن بينهم فرسة البحر "تويس" خليلته. وبعد قتال استمرّ عدّة أيّام انتصر حوريس على تيفون، بيد أنّ إيزيس التي كانت قد تسلّمت تيفون من ابنها حوريس مقيّدًا بالأغلال عفت عنه وفكّت قيوده وأغلاله، فلم يحتمل حوريس ذلك وأطاح بالتاج من على رأسها. لكنّ هرمس استبدله بقناع على شكل رأس بقرة. فاتّهم تيفون حوريس بأنّه ابن غير شرعيّ، وناصر هرمس حوريس فاعترفت به الآلهة ابنًا شرعيًا لأوزيريس، وفي خلال معركتَين تاليتَين غُلب ست على أمره تمامًا.

وهكذا انتهت رواية بلوترك التي إذا قورنت بالروايات الأقدم عهدًا، لوحظ أنّ هذه الرواية الأحدث من الأسطورة البدائيّة تلائم، من حيث الشكل، ذوق القارئ اليونانيّ. وفوق ذلك فإنّ من بين المظاهر المهمّة التي توحي بها طبيعة أوزيريس، هو ذلك المظهر الذي يجعل من أوزيريس الشكل المثاليّ الأول للميت الذي تُتّخذ له طقوس جنائزيّة لدفنه. فالصندوق الذي كان ينام فيه يذكّر بالتابوت. وجميع حوادث جبيل تشير أيضًا إلى الدفن وإعداد الجثّة، لأنّ كلّ ما يُستخدم في مثل هذه الظروف من خشب وزيت أرز يستورَد من هذا الميناء. وممّا يستلفت النظر أنّه لم يرد ذكر الإله الذي دفن

أوزيريس إلاّ عرضًا، فقد ظهر مرّة واحدة اسم أنوبيس، وهو طفل وُلد من علاقة غير شريفة بين أوزيريس ونفتيس. وخوفًا من تيفون ألقت به نفتيس في جهة ما، لكنّ إيزيس وجدته بعد أن أرشدتها عن مكانه طائفة من الكلاب، فربّته إيزيس وصار هذا الطفل حارسها وتابعها. وكان أنوبيس هو الذي يتولّى حراسة الآلهة كما تتولّى الكلاب حراسة الإنسان. وهناك شخصيّة أخرى أكثر خطورة هي شخصيّة حوريس الطفل التي لم تُذكر إلاّ عرضًا، ولم تكن تمثّل إلاّ إلهًا صغيرًا معيّنًا، وهو "حربوقراط"، كما يسمّيه الإغريق، أي "حر - يا - خرد"، و"حوريس الطفل". وكان يُنظر إليه على أنّ إيزيس قد ولدته بعد موت أوزيريس، وأنّه لهذا السبب قد ظلّ هزيلاً[1].

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٣١ - ١٣٤.

العِبَادَة والمعَابدُ والكَهَنة

أجمع المؤرّخون والباحثون على أنّه من الصعب الخوض في جميع دقـائق العبـادة والتعرّف إلى نظام المعابد وتحديد الفروق بيـن أنـواع الكهنـة المختلفيـن، وذلك بسبب عدد العبادات والمعابد والآلهة الذي لا يُحصى. بيد أنّ الحديث عن الديانـة المصريّـة يوجب التوقّف عند ذلك العصر حين كـانت الآلهـة تتربّع علـى عرش عظمتهـا فـي معابدها الضخمة حيث كانت تقام لها احتفالات فخمة. لكنّ العبادة على هذا النحو حديثة نسبيًا. أمّا حين كان المصريّون لا يزالون شعبًا بدائيًا، كانوا قد استطاعوا نحت التماثيل الخشنة ذات الأشكال الإنسانيّة أو الحيوانيّة، وكانوا يميّزونها بتيجان مختلفة مكوّنة من القشّ وقرون الخراف والأبقار وريش النعـام. وكـانت الآلهـة تحمـل بمثابـة الصولجـان عصا، أو عودًا من الغاب، كما يفعل البدو حتّى يومنا هذا.

المعَابد

كانت المعابد في القديم الغابر عبارة عن أكواخ مصنوعـة مـن العيدان والعصـيّ، وكان يُنصـب فـي الواجهـة حـاجز بـه ساريتان، وكـانوا يستعلون حصيرة من القشّ كمذبح، ويقيمون رواقات لمناسبة الأعياد. وكان معبد الإله موصوف بأنّه "قصر الإلـه" لأنّ المصريّ تصوّر الإله كملك يعيش فـي قصـر لـه تيجـان حيث يؤدّي لـه أتباعـه القرابين، وله خدم يعنون به ويُطعمونه، وهـم الكهنـة الذيـن يُسمّون بخدم الإلـه. وفـي بادئ الأمر كان المعبد مكرّسًا لإله واحد، هو سيّد المعبد، ثمّ أُلحقت به آلهة أخرى كان

لها أتباع في المدينة، لهذا اضطرّوا إلى تخصيص مكان ثانويّ لهم في المعبد. ويذكر المؤرّخون أنّ تلك المعابد اختفت ولم يصلنا شيء عنها إلاّ عن طريق رسومات صغيرة وردت في نقوش قديمة جدًّا. ولم يبقَ إلاّ القليل النادر من الأبنية الكبرى التي ترجع إلى أوائل العصور التاريخيّة، وقد شملها التعديل والترميم خلال العصر المختلفة. وهذا المظهر الذي أعطته الأجيال القديمة للمعبد اتُّخذ كنموذج في جميع العصور، لأنّها اعتُبرت ميراثًا مقدّسًا خلقته الآلهة نفسها. فإنّ "بتاح" و"سشات" كانا قد غرسا قديمًا الأوتاد في الأرض وشدّا الحبال لتحديد تصميم المعبد. وإذا اعتدنا اليوم أن نرى أنقاض المعابد المصريّة قائمة وسط الحقول والحدائق نتخيّل أنّها كانت كذلك في العصور القديمة. والحقيقة أنّ المعابد كانت تُقام في داخل المدن بين أكداس المنازل والحارات الضيّقة في كلّ مدينة من مدن الجنوب، وكانت محاطة بسور عال من اللبن لعزلها عن الضجيج. وكان الطريق المؤدّي إلى المعبد يمرّ وسط الطريق الضيّقة في شوارع المدينة، لينتهي عند بوّابة كبيرة بجانبيها برجان عاليان تميل جدرانهما ميلاً خفيفًا. وينبسط الفناء وراء البوّابة، وهو بناء واسع مكشوف تحيطه أروقة ذات أعمدة، تُقام فيه الطقوس التي كان يُسمح لعدد كبير من سكّان المدينة المشاركة فيها، وخلف الفناء قاعة هي الصالة الكبرى ذات السقف المحمول على أعمدة والمخصّصة لطقوس مختلفة. ثمّ يلي ذلك قدس الأقداس حيث يوجد تمثال الإله. وهناك حجرات أخرى جانبيّة تحوي صورًا للآلهة الأقارب مثل الزوجة والإبن. هذه هي الأقسام الرئيسيّة للمعبد، ومن الممكن أن يحوي كذلك قاعات أخرى ثانويّة تُستخدم لإيداع الأدوات المقدّسة أو تخصّص لطقوس العبادة. كما أنّ أقسام المعبد المختلفة ينخفض ارتفاعها بالتدريج وكذلك قوّة إضاءتها كلّما توغّلنا إلى الداخل. وأمّا زخرفة المعبد في مجموعها فلا تتغيّر. وتمثّل على الجدران الخارجيّة، ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة على

الأقلّ، الأعمال الرائعة للملك الذي يحكم البلاد. أمّا في الداخل فالنقوش متّصلة بالعبادة وتمثّل ما يحدث يوميًا في هذه القاعات. ولا بدّ أنّ هذه النقوش تعود إلى عهد قديم جدًا، والدليل على ذلك أنّ العلامات الهيروغليفيّة المختلفة مُستخدمة بطريقة رمزيّة. واختيار زينة المعبد ليس بغير هدف؛ فأسفل الجدران يشير إلى النيل والأرض، بينما يمثّل السقف السماء تنتثر فيها النجوم وتحلّق فيه عقبان طائرة. وأمام الصرح تقوم المسلّتان وهما عمودان من الحجر، ربّما حملا اسم صاحب الدار، وترتفع ملاصقة لجدران الصرح صواري ترفرِف على قمّتها أعلام مختلفة الألوان. وتقوم تماثيل ضخمة للملك أمام جدارَي الصرح أو في داخل الفناء، الغرض منها حراسة المعبد الذي قام ببنائه. وتنتشر في أجزاء المعبد المختلفة تماثيل أخرى للملك أصغر حجمًا تمثّله يصلّي أو يقدّم القربان للإله. كما يحوي المعبد تماثيل لآلهة أخرى كما لو كانت هي أيضًا تريد خدمة الإله المحلّيّ العظيم. فنرى إلهَي النيل يقدّمان له محصول نهرهما، أو تمثالَين لـ"سخمت" ذات رأس الأسد يُبعدان الأعداء. وقد كان المذبح الأكبر على ارتفاع بسيط تؤدّي إليه درجات من الخلف، يقوم عادة في وسط الفناء ذي البوّابات. وفي قاعات المعبد الأخرى هناك موائد توضع عليها الأطعمة والأشربة، أمّا في قدس الأقداس فقد كان يوضع سراج أمام الإله.

ويعتبر باحثون علماء[1] أنّه هكذا كان النمط العاديّ للمعبد المصريّ، الذي من الممكن التعرّف إليه في الوقت الحاضر في كلّ مكان تقريبًا، ولو اضطرب تخطيطه أحيانًا بسبب إضافات جديدة أو بسبب خاصيّة الأرض التي يقوم عليها. على أنّ هناك معابد أخرى صغيرة تختلف عن هذا الطراز، وهي المعابد الشمسيّة للأسرة الخامسة،

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٣١ ـ ٢٣٨.

وتحاكي معبد الشمس في هليوبوليس الذي انقرض. وهذه المعابد تحمل أسماء مثل "مقعد رع المفضّل" وهي عبارة عن فناء واسع مكشوف تقوم خلفه مسلّة عظيمة ترتفع فوق قاعدة هرميّة الشكل. وهذا الجانب هو مركز الإله. وأمام المسلّة مذبح كبير للإله، أمّا زخرفة المعبد فلا تختلف كثيرًا عمّا عهدناه. ولكن هناك منظر غير متوقّع في ممرّ جانبيّ يؤدّي إلى قاعة المسلّة، يمثّل فصول السنة تحضّر القرابين للملك من كلّ ما تنتجه الأرض والماء معًا، نموّ النبات، توالد الحيوانات، أعمال الإنسان... ولهذه الصور مكانها في المعبد، إذ إنّ إله الشمس هو الذي يحيي كلّ شيء ويدفع به إلى التقدّم. وإذا كانت معابد الشمس قد استغنت عن تماثيل للإله، فمرجع ذلك إلى اعتقاد الناس أنّ المسلّة كانت هي مسكن الإله، فحقّ عليهم عبادتها، مع اعتبار هذا أمرًا شاذًا، لأنّ جميع المعابد المصريّة حرصت على جعل تماثيل الآلهة أهمّ وأقدس ما فيها، وكانت روح الإله، كما تبيّنها نقوش متأخّرة، تستقرّ عليه حين تنزل من السماء كما تجثم على جسمه. ويعتبر العلماء أنّه مهما بلغ عدد الصور الدينيّة وما وصلهم منها صغيرًا كان أم كبيرًا، فإنّهم لا يملكون منها واحدة أصليّة، فقد اختفت جميعها عند انحلال الديانة المصريّة كأثر لضربات المسيحيّين، ورغم ذلك، فإنّ هؤلاء العلماء يعتبرون أنّهم يملكون على الأقلّ في المعابد المتأخّرة أوصافًا وتمثيلات لها، يستطيعون بواسطتها أن يكوّنوا فكرة عنها. فمعبد حاتحور في دندرة كان من بين محتوياته تماثيل للآلهة حاتحور وإيزيس وحوريس وبوتو، وهي من الخشب الملوّن يتراوح ارتفاعها ما بين ذراع وثلاثة أذرع. أمّا التماثيل الحجريّة القديمة، فكان يصعب حملها في الأعياد رغم ضرورة وجودها. ومن الطبيعيّ ألاّ تُستبعد إقامة تمثال حجريّ في قدس الأقداس واستخدامه رمزًا دينيًا. كما أنّ أغلب هذه الصور الدينيّة كانت مصنوعة على نفس النمط ولا تتميّز عن بعضها البعض، كما يتّضح ذلك من صور الآلهة، إلاّ بالرؤوس

والتيجان والعلامات المميّزة. وكانت اللحية على شكل شعر مضفور نهايته معقوفة إلى الأمام، وتشبه اللحية التي تتّخذها قبائل وسط أفريقيا حتّى اليوم. وإذا كانت الآلهة ترتدي ثيابًا فإنّ ثوب الإله كان عادة عبارة عن قميص قصير مشدود بواسطة حمّالات، بينما كانت الآلهات ترتدين زيّ النساء العاديّ. ولم تكن السيقان والأذرع والثياب مبيّنة تمامًا. وكان المنظر العام هو الذي اتّخذته المومياء في ما بعد. وبمضيّ الزمن تطلّبت هذه الصور الترميمات، وكان يحدث أن يقوم بتجميلها أحد الملوك المتديّنين، بمنحها زينة من الذهب والأحجار الكريمة. وهكذا أعاد تحوتمس الأول صنع التماثيل الإلهيّة القديمة بأبيدوس من الذهب، وجعلها أجمل ممّا كانت من قبل. وكانت هناك معامل خاصّة مولجة بهذه الأعمال الدقيقة وتُسمّى بيوت الذهب. وكان مقام الصورة الإلهيّة المعتاد هو الناووس الكائن في أقدس مكان في نهاية المعبد. وكثيرًا ما كان يُنحت من حجر واحد من الغرانيت الصلب محيطًا بالصورة المقدّسة وكأنّه حائط لا يسهل اختراقه. وكان يُقفل من الأمام بواسطة باب ذي مصراعَين متبّتَين في إطار من البرونز. والمكان الذي يقوم فيه هذا المحراب أو كما يُسمّى "المكان العظيم" هو المكان الذي تُقام فيه الطقوس اليوميّة التي كانت في منتهى البساطة. إذ كان يتقدّم الكاهن عند انبثاق الفجر من قدس الأقداس ويبخّره حتّى يمتلئ من عطر البخور، ثمّ يقترب من المحراب ويفتحه ويحيّي الإله بالركوع عدّة مرّات، وبترتيب أو تلاوة بعض الأناشيد. ثمّ يتناول الأدوات الدينيّة الموجودة في الصندوق بالقرب منه ويبدأ في التزيين اليوميّ للإله، فينضح التمثال بمحتويات أربع جرار من الماء، ويكسوه بشرائط من الكتان الأبيض والأخضر والأحمر والمائل للحمرة ثمّ يدهنه بالزيت ويكحّل عينيه بمساحيق خضراء وسوداء وغيرها. ثمّ يُطعم الإله بأن يضع أمامه مختلف أنواع الأطعمة والشراب من خبز وأوز وأفخاذ بقر ونبيذ وماء، كذلك الزهور التي لا يجب

أن تخلو منها مـائدة مصريّـة[١]. وترتبـط بهـذه القرابيـن فكرتـان؛ إذ يُنظـر إليهـا كهدايـا سارّة، تتّحد مع عين حوريس التي يقولون أحيانًا إنّهـا "عيـن الشـمس"، وأحيانًـا أخـرى إنّها "عين القمر" التـي تصغـر رويـدًا رويدًا ثمّ لا تلبـث أن تنمـو بشـكل عجيـب حتـى تكتمل. ومـن الطبيعـيّ أن يعـثر البـاحثون علـى طقـوس دينيّـة متمّيزة تُقـام فـي أعيـاد فرعون أو أعياد الآلهـة، ففـي عيـد الملـك اليوبيلـيّ المسـمّى "سـد SED" يُعـاد الاحتفـال الطقسيّ الذي تمّ فيه توحيد الوجهَين في مصر على يد الملـك "مينـا"، ويصـل الاحتفـال إلى ذروته برقصة يؤدّيها الملك، وهو يرتدي تنّورة قصيرة يعلّق بها مـن الخلـف نيل حيوان، وقد كانت المسيرة أو الموكب أو "ظهور الإله" مظهرًا ملفتًا للنظر في الاحتفال بأعياد الآلهة، إذ يحمل فيه الكاهن تماثيل الآلهة إلى أمـاكن أخرى مقدّسة كيمـا تـزور آلهة أخرى، أو تقوم بأداء دور في قصّة أسطوريّة ترتبط بهذه الأماكن[٢].

الطقوس

تُعتبر "متون الأهرام" القديمـة المرجع الأوحـد الأصيـل عـن طقـوس العبـادة المصريّة، حيث هناك فقرات أو أقوال يجب أن تُتلى أثناء دهن الجثّـة، وغسـل التمثـال الإلهيّ، وطريقة تقديم القرابين. واللافت في تلك الشعائر هو ذبح الحيوانات في سـاحة خاصّة من المعبد كأنّما هي أعداء الإله التي تُقتل لإرضائه. ويُقدّم اللحم نيّئًا أو مشـويًّا. وفي الحالة الأخيرة كان يقدّم للإله نون مواقد فحم صغيرة، الغرض منهـا شـيّ اللحـم وليس إحراقـه، لأنّ القرابيـن المحروقـة لـم يسـتعملها المصريّون فـي طقوسـهم فـي العصور القديمة. ولا تُترك التقدمة تحرق حتّى تختفي. وقد ذُكر في عصور قديمـة أنّ

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٣١ ـ ٢٤٤.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٧٥.

ثورًا أحمر قد قُدّم كقربان لأوزيريس، وهذا اللون له تفسير في عقيدة تعود إلى العهد اليونانيّ، حيث كان يجب بمقتضاها تقديم الثيران الحمر كضحايا، لأنّ "ست" نفسه كان له هذا اللون. وكان المصريّون يعتبرون اللون الأحمر لون شؤم. أمّا في الدولة الحديثة فقد ذُكر حرق القربان في بعض الحالات، وقد جاء في طقس "موت" أنّه كان يجب أن يُحرق غزال فوق الموقد. وقد أصبح ذلك أمرًا عاديًّا في العهد المتأخّر، ثمّ أضيفت إلى هذه التقدمات أشياء أخرى أكثر تهذيبًا وفي مقدّمتها حرق البخور، الذي لم يكن المصريّ ليستطيع أن يفكّر في أنّ العبادة يمكن أن تقوم بدونه، لأنّ رائحته تطهّر المكان وتقدّسه، لذا كانت رائحته تملأ صالات المعبد الداخليّة، وكان البخور يُسمّى "صانع القداسة"، وكان تحضير البخور الأصليّ النقيّ علمًا خُصّصت من أجله كتب في المكتبات يرجع تأليفها إلى الإله تحوت نفسه. وكان يجب كذلك تمجيد الإله بالأناشيد، ويجهل الباحثون عمومًا[1] إذا كان الكهنة يغنّون هذه الأناشيد أو يكتفون بتلاوتها، وفي الواقع أنّ صميم هذه الأناشيد لا يكشف في صورة عامّة سوى عن قليل من الشعر. وهي مؤلّفة، ما عدا بعض الشواذ، على نفس النمط، وهي تعدّد أسماء الإله وتيجانه ومعابده، وتذكّر بطبيعته أو قصصه. كما أنّ التعاويذ كانت تُتلى في أقدم المعابد والقبور، ومنها تعاويذ تضمن استمرار تقديم القرابين، مثلما تضمن الهناء أو السعادة الأبديّة للمتوفّى، وقد آمن المصريّون بأنّها تكفل البقاء السحريّ للبركات الروحيّة والبدنيّة[2].

وكان هناك مظهر آخر للعبادة هو الـ "هنو"، ويلوح أنّه كان عبارة عن تهلّل انجذابيّ أكثر منه تلاوة أناشيد، وكان القائمون به يركعون ويضربون صدورهم بقبضة

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦٣.

أيديهم. ولم تلعب الموسيقى سوى دور ثانويّ في التعبّد، وكانت بصفة خاصّة من اختصاص الكاهنات اللواتي كنّ يطقطقن ويصلصلن بشخاليلهنّ وصنوجهنّ وعقودهنّ الكبيرة أمام الإله، كما اعتادت أن تفعل النساء في رقصهنّ أمام سيّدهنّ. وكذلك كان اللعب بالكرة أمام الإله يهدف إلى تسليته والترفيه عنه. وكان سير التعبّد اليوميّ العاديّ ينقطع في أيّام الأعياد الخاصّة بكلّ معبد. وهذه الأعياد كانت تتضمّن كذلك الأحداث الكبرى للمدينة. وكان خدم الإله، الذين لا ينسون أعياده، يأتون من الضواحي "نحو أولئك الذين يعبدون الإله". وكانت تلك الأيّام في الوقت نفسه أعيادًا شعبيّة. وبالمناسبة كانت تُصنع الجعة تكريمًا للإله، وكانوا يجلسون فوق المنازل في نسيم الليل، ويدور اسم الإله فوق سطوح المنازل، وكان الشعب كلّه يتدهّن ويتناول المشروبات. والملاحظ أنّ هذه الأعياد قديمة جدًّا وقد أنشأها رع بنفسه منذ الأزل، وكقاعدة عامّة كان في كلّ مدينة عيد أو أكثر من عيد رئيسيّ كذكرى لأحداث هامّة من أساطير الآلهة. ويورد باحثون[1] مثالاً على ذلك ذكرى عيد ميلاد الإله أو انتصاره على عدوّه. وكان يُحتفل بأوائل تقسيم الزمن كيوم العام الجديد أو أوّل يوم من الشهر. وكان المصريّ يعطي هذه الأعياد أهميّة كبرى، وتُضاف أناشيد خاصّة إلى الطقوس ويُزخرف المعبد ويُضاء، وتُزاد التقدمات حتّى يتسنّى إرضاء جمهرة النزلاء الذين يتدفّقون على المعبد للإشتراك في الاحتفال. والمهمّ أن يرى الشعب "جمال سيّده" وأن يتطلّع إلى صورة الإله التي كانت تخرج من محرابها وتُنقل خارج قدس الأقداس في ما يشبه صيوانًا خفيفًا بعد تزيينها لهذه المناسبة بالتمائم وقلائد الذهب، وكثيرًا ما كان يتّخذ المحراب السهل الحمل شكل القارب، لأنّ المراكب كانت في نظر المصريّين الوسيلة الطبيعيّة للانتقال. وعندما يخرج الإله من معبده كانت تُحمل أمامه أعلام مزيّنة

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٥٠.

بصور إلهيّة، لا سيّما بنات آوى المنوطة بفتح الطريق للإله كما يدلّ عليها اسمها: "أوب ـ أوات" أي "فاتح الطرق"، وترافق الإله تماثيل للمعبودات المرافقة وللملك، ثمّ يُعرض الإله هنا وهناك في صالات الدخول بالمعبد أو في المدينة على قواعد حجريّة، وتُقدّم له القرابين والبخور والأدعية، ثمّ تأتي اللحظة الحاسمة حينما يزيح الكهنة الستارة التي تحجب جوانب المحراب الصغير المحمول، وهناك تصيح الجماهير المتحمّسة صيحات الفرح للتمثال الصغير الذي يمثّل بالنسبة لهم أقدس شيء في الوجود. ومن الضروريّ الإشارة إلى أنّ الاحتفالات بالأعياد الرسميّة أو الكبيرة كانت تُقام مرتَين: مرّة لملك مصر السفلى والأخرى لملك مصر العليا، ممّا يتّفق والعقيدة التقليديّة التي تكوّنت المملكة المصريّة كأثر لها، حتّى بعد التوحيد، من قطرَين. ومن المسلّم به أنّ الأعياد الملكيّة الكبرى كان يكسوها في نظر المصريّ طابع دينيّ، لأنّ فكرة الدولة تستقرّ على مبدأ أنّ الملك إله. وعلى هذه الفكرة تقوم العبادة كلّها، وهي التي تضع الملك على اتّصال مباشر بالآلهة. من هنا يتّضح الخروج على المألوف الذي يظهر فيه الملك كأنّما يمثّل الشعب كلّه في المعابد. فالملك يقيم للآلهة معابدهم ويقدّم لهم القرابين، والآلهة بدورها تعطي لابنها العزيز لقاء هذه التقوى حياة من ملايين السنين عن طريق النصر الذي يكسبه على أعدائه وعن طريق مجده الأبديّ. وليست الآلهة بعد للشعب... بل هي لفرعون... ابنها... وحتّى هذه الصلة، صلة الملك بالآلهة، قد بعدت عن هدفها الأوّل: فحين يقيم الملك معبدًا، فإنّه لا يقيمه، طبقًا للقرار الرسميّ، حبًّا للمعبود، بل رغبة في شهرته الشخصيّة، أي أنّه يقيم هذا الأثر لنفسه. هكذا تبدأ منذ زمن طويل كلّ النقوش التذكاريّة، وبعد هذه الصيغة فقط يُطلق اسمه على المبنى الذي أقامه الملك لأبيه الإله. وهذه في الحقيقة صيغ تقليديّة، ولكنّ فقر هذه الديانة الرسميّة، يتجلّى في أنّ أمثال هذه العبارات والعادات تكوّنت في العصور

الأولى للشعب. وليس من شكّ في أنّ الملوك قدّموا أشياء عظيمة للمعابد، ولكن العباد الأتقياء لم يتأخّروا هم كذلك عن تقديم هداياهم وعطاياهم، ورغم ذلك فالنقوش لا تذكر عنهم شيئًا. وكنتيجة طبيعيّة لوجهة النظر هذه لم تُرسم صور الكهنة في المعابد، وإنّما استُبدلت صورهم بصور الملك. فعلى كلّ الجدران كانت تمثّل مناظر تقديم القرابين وكلّ الاحتفالات التي حدثت أمام الآلهة، ولكنّ الذي كان يقوم بجميع مراسمها كان الملك بشخصه دائمًا. كما أنّ المحتفلين الحقيقيّين في مصر كانوا الكهنة وإن هم لم يذكروا أنفسهم في الطقوس إلاّ كنائبين عن الملك[1].

الكهنة

منذ أقدم العصور، حتّمت الظروف الطبيعيّة أن يكون شرف إدارة المعابد من حقّ الأسرات الكبيرة القديمة. وكان المنصب الدينيّ في الأمبراطوريّة الوسطى وراثيًّا في عائلات معيّنة كان أفرادها يقومون بهذا العمل كوظيفة ثانويّة فقط. وما دام الكاهن قد ورث وظيفته عن أبيه الذي كان كاهنًا في المعبد، فإنّه يستطيع عمل كلّ التقدمات وأداء كلّ الاحتفالات. وهناك مجموعة أخرى من الكهنة من بينهم عدد يشغلون وظائف معيّنة. ففي الأمبراطوريّة القديمة كان كبار رجال القضاء هم في نفس الوقت كهنة إلهه، كما كان الأطبّاء كهنة "سخمت"، والممتازون من الفنّانين كهنة "بتاح". وهناك فئتان من الكهنة الذين يقومون بأعمال كهنوتيّة معيّنة، فهناك أوّلاً "خدم الإله"، وهم كهنة المعابد الحقيقيّون، ثمّ يليهم "خرحب" أي العلماء وكتّاب كتاب الإله، ويُركن إليهم في منح الإسم للطفل الملكيّ، وهم يقومون خلال الاحتفالات بتلاوة الصيغ القديمة، وهم يعرفون أسرار السحر، ومتخصّصون في فنّ الأدهنة، ويمارسون هذا العمل

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

بصفتهم أطبّاء كذلك. وأمّا عن أصل وظيفة الكهنة المسمّين "وعب"، فاستنتج باحثون معرفتهم عن طريق إسمهم المأخوذ من الكلمة التي تعني "طاهر" أو "تقيّ" وذكروا أنّهم في نقوش الدولة القديمة يُعطون رأيهم ونصيحتهم عن الحيوانات التي تُذبح، فهم يفحصون دماءها ويقولون إنّها نقيّة. وقد اعتُبر كهنة "وعب" في أسفل السلّم الكهنوتيّ، أو بمعنى آخر أصبح اسمهم يعني كاهنًا فحسب. وكلّما ارتفعت أهميّة المعبد ازدادت قيمة الكهنة الذين يخدمونه. ولدى الباحثين وثائق معبد كبير من الدولة الوسطى استطاعوا بفضلها أن يكوّنوا فكرة صادقة عن الظروف التي كانت تنظّم المعبد. وقد وُجد كذلك في مدينة تقع إلى جانب هرم "سنوسرت" الثاني عند مدخل الفيّوم معبد لإله الموتى أنوبيس، وكان عدد موظّفي إدارته أكثر من خمسين شخصًا لم يكن بينهم مَن يشغل وظيفة دائمة سوى ستّة هم: الأمير أو رئيس المعبد، أي الرئيس الأعلى؛ ثمّ "الخرحب" الأوّل مدير العبادة؛ ثمّ حرّاس الأبواب الأربعة وهم موظّفون أقلّ درجة. أمّا باقي كهنة وموظّفي المعبد فكانوا يتناوبون الخدمة الإلهيّة ولم يكونوا يعملون إلاّ في شهورهم فقط. وكانوا منقسمين إلى أربع طبقات، وكانت كلّما بدأت طبقة منها عملها تتسلّم من سابقتها المعبد وكلّ ما يتّصل به. وكان يُكتب محضر لإخلاء طرف الفريقَين، وهذا يسهل فهمه في مصر حيث كان للبروتوكول أهميّة كبيرة. وفي معبد آخر يرجع إلى نفس العهد، هو معبد "أوب وات" في أسيوط، نرى كيف كان رجال الكهنوت الدائمون يتكوّنون من أمير المقاطعة الذي كان في نفس الوقت كاهنًا أكبر، ثمّ من تسعة كهنة. وكان أولئك العشرة كهنة بالوراثة، يكوّنون هيئة المعبد وإلى جانبهم كهنة آخرون يتناوبون، ويُطلق عليهم اسم الكهنة الموقّتون، وهم من غير شكّ موظّفون للملك أو المقاطعة، يفخرون في نقوشهم بأنّهم كهنة هذا الإله أو ذاك. وكان يستطيع أفراد من طبقات أدنى المشاركة في الكهنوت، ومن هنا نجد، في معبد "يوشك" أنّ كبير

صيّادي الأسماك والطيور كان في الوقت نفسه رئيس كهنة معبده. ولم يكن يكفي فقط الانتماء إلى أسرة كهنة لكي يستطيع المرء الحصول على مرتبة الكهنوتيّة، بل تخيّل باحثون أنّه كان يجب أن يكون هناك ما يثبت، على الأقلّ بالنسبة للمراكز العليا، ثقافة خاصّة أو تكريسًا خاصًّا، فإنّ بعض النصوص الأكثر حداثة تذكر أمثال هذا التكريس والتطهير، وقد جاء في الدوّنات أنّ كاهنًا جديدًا استحمّ في البحيرة المقدّسة بالكرنك وتطهّر عن طريق النطرون. وهذا يعني أنّه أُعدّ في المعبد واغتسل وتدثّر، وعند ذاك سُمح له بدخول قدس الأقداس. وإذا كان الكثيرون من الكهنة يفخرون بمعرفة الأمور السريّة "مثل أسرار السماء والعالم السفليّ"، فإنّ علمهم كان قاصرًا على معرفة الصور الدينيّة والتقاليد المقدّسة، لأنّها تُعتبر سريّة. ولم تُبعد السيّدات، في أيّ عصر من العصور، عن خدمة المعبد. ففي الدولة القديمة كنّ كاهنات أو خادمات للإله نوت وحاتحور... ومن اليسير فهم ميل النساء إلى خدمة حاتحور إلهة الحب[1].

أمّا كبار الكهنة فهم الطبقة العليا الروحيّة. وفي المعابد الكبرى كانت لهم ألقاب بالغة في القدم. فالكاهن الأكبر في هليوبوليس كان يُدعى "كبير الرائين"، وفي شمون "كبير الخمسة"، وكاهن منفيس الأكبر كان يُدعى "الكبير لإدارة الفنّانين" لأنّه كان في خدمة بتاح إله الفنّانين. وكان رؤساء هذه الهياكل الكبرى من أرفع الطبقات، وكانوا في الدولة القديمة أبناء الملك عادة، أمّا في المقاطعات التي كانت تحت نفوذ أمرائها المحليّين، فإنّ أولئك كانوا كذلك رؤساء خدم الإله، أي الكهنة الكبار. ولقد اعتبر أحد هؤلاء نفسه مديرًا لكافّة الوظائف الدينيّة، العارف بالكلام والأشياء الإلهيّة، وهو الذي يعطي للكهنة التعليمات لإدارة الحفلات، وله صوت مدوّ حين يسبّح الإله، ويد طاهرة

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢.

حين يحضر الزهور ويقدّم الماء والطعام على المذبح. والمطلوب من الكاهن هو الطهارة لأنّه يقترب من الأشياء المقدّسة. وكان في المعابد أحواض خاصّة للتطهّر. وكان على مَن يريد أن يردّد صيغة سحريّة ألاّ يغتسل فحسب، بل ألاّ يلمس امرأة، وألاّ يأكل لحم الماشية أو السمك. وإذ كانت العبادة المنظّمة تتضمّن القرابين، وكانت تحوي كميّة ضخمة من الخبز واللحم، فمن المؤكّد، بحسب بعض الباحثين، أنّ الكهنة هم الذين كانوا يتناولون الطعام كلّه، ويعتبرون أنّ ما يؤتى به إلى الإله هو دخل ثمين لهم، وأنّهم كانوا يتمتّعون بثمار كلّ ما يملكه الإله من أملاك ثابتة على اسم "التقدمة الإلهيّة". ولم يكتف الكهنة من الأطعمة فقط بل استفادوا أيضًا من الملابس التي كانت تقدّم للإله.

في الدولة الحديثة، تغيّرت أوضاع الكهنة بحيث أصبح لهم لباس خاصّ، فالكاهن لا يرتدي الملابس الحديثة لعصره، وهو يتجنّب أن يرتدي ملابس فضفاضة مثنيّة تغطّي الجزء الأعلى من الجسم، فقد كان يأتزر بمئزر قد يطول أو يقصر طبقًا لما كان ساريًا في الدولتَين القديمة والوسطى، كما لو كان يريد الإشارة إلى أصله الذي يرجع إلى ماض وقور. وكان الكهنة يحلقون رؤوسهم كإشارة إلى الطهارة الخالصة. وهكذا أصبح الكهنة طبقة معيّنة، وكلّما ازداد عددهم في المعابد الكبيرة، ازداد شعورهم بأنّهم طبقة خاصّة. وكان بالقرب من أكبر الآلهة، أمون، ثلاثة مجامع من الكهنة: الطبقة الدنيا وهي المكوّنة من كهنة "وعب" الذين يصحبون الإله في مواكبه ويحملون قاربه، ولا يشتركون في طقوس العبادة؛ وفوق هؤلاء تأتي طبقة الكهنة العلماء الـ "خرحب" وهم بدورهم طبقات مختلفة؛ وعلى قمّة الكهنوت خدم الإله وآباء الإله الذين يسمّون الأنبياء، وهم الذين يفتحون أبواب السماء ويعرفون كلّ أسرار الإله. ويمكن أن التمييز من بينهم، عدا آباء الإله المعتادين، أربع طبقات أكثر سموًّا: النبيّ الأوّل

وهو الكاهن الأكبر الذي لا يحل أيّ لقب خاصّ، وله نائب لكلّ ما هو دنيويّ ويُسمى بالنبيّ الثاني.

حَريم

الإلـه

إلى جانب الكهنة كان للآلهة في الدولة الحديثة هيئة من الكاهنات لم يشغلن سوى دور ثانويّ، وهنّ مغنّيات الإله. وكان عددهنّ كبيرًا في خدمة أمون، وكانت سيّدات العائلات النبيلة يتشرّفن بالانتماء إلى هذه المجموعة. ولمّا كانت الفنون التي يُدخلن فيها السرور إلى قلب الإله هي نفس المتع التي تمارسها فتيات الحريم أمام مولاهنّ، فإنّ هؤلاء السيّدات كنّ يُعتبرن كأنّما هنّ حريم الإله. وكما هي الحال في حريم أيّ أمير أرضيّ لم تكن النساء جميعًا في مرتبة واحدة، وقد كان في حريم أمون كذلك مراتب متفاوتة، فعلى رأسهن "الأكثر عظمة بين المحظيّات" وهي عادةً زوجة الكاهن الأكبر، تلك التي يُسبغ عليها هذا الشرف. ولكن كان على رأس النساء سيّدة من الأسرة المالكة، هي زوجة الإله أو عابدة الإله، أي الزوجة الحقيقيّة للإله ممثّلة الإلهة "موت". وقد ذُهب إلى أكثر من هذا حتّى أنّ عبارة "يد الإله" التي نشأت من أسطورة تلقيح إله الشمس نفسه بنفسه، والتي وجدت سبيلها إلى "موت"، قد استُخدمت كذلك لقبًا لزوجة الإله على الأرض. وكانت أوّل سيّدة عرفها الباحثون المحدثون ارتفعت إلى هذه المرتبة هي "إيحموزه ـ نفر إيري" والدة أمنوفيس الأوّل التي اختيرت في ما بعد حامية لمدينة طيبة الجنزيّة. ولقد كانت الملكة حتشبسوت كذلك زوجة إلهيّة قبلَ اعتلائها العرش، وحينما ارتقته أسبغت هذا الشرف على طفلة هي ابنتها "نفرو ـ رع"[1].

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٧٨.

في الدَولة الحَديثَة

تميّز عصر الدولة الحديثة بأن أصبح العديد من المعتقدات القديمة ليس بذي قيمـة، وقد أصبح يتعذّر المقارنة بين ظروف المعتقدات الحديثـة وأشـكالها السـابقة واللاحقـة. وينطبق هذا على عبادة آمون الذي لا يكرَّم عبثًا كملك للآلهة والذي كـانت معـابده فـي طيبة تُعتبر رمزًا للدولة الحديثة بقدر ما كـانت الأهـرام رمـزًا للدولـة القديمـة. ويكفـي إلقاء نظرة سريعة على معبد الكرنك للتحقّق من عظمة المباني الدينيّة لهذا العهد، فبهـو الأعمدة في معبد الكرنك يشغل مساحة قدرها ٥,٠٠٠ متر مربّع، ولا يقلّ عدد أعمدتها عن ١٣٤ عمودًا، ويفوق ارتفاع الأعمدة الإثني عشر عمودًا منها الكائنـة فـي الصحـن الأوسط عن ٢١ مترًا وقطر كـلّ منهـا ٣,٣٧ مـتر، أمّـا أعمـدة الجـانبيَن فيبلـغ ارتفـاع الواحد منها ١٣ مترًا. ويبدو كما يتّضح من النقوش أنّ هـذه الصالـة الفخمـة والصـرح الـذي يتقدّمهـا شُيّدا فـي الأسـرة التاسـعة عشـرة وخـلال حكـم رعمسـيس الثـاني علـى الأخصّ. وليس من المبالغة أن نذكر أنّه لم يقم في بلد ما ملك في أيّ عصر بنشاط في أعمال البناء يعادل نشاط رعمسيس أكبر بنّائي عصره، إذ أقام المعـابد البالغـة الفخامـة والشموخ في الأقصر والضفّة المقابلة للنيل وفـي مدينـة حـابو، ومـا هـذا العمـران إلاّ للتعبير عن الخشوع الذي كان يحسّه ملوك الدولـة الحديثـة نحـو إلههـم آمـون. وتجـدر الإشارة إلى أنّ هؤلاء الملوك قد أفرطوا في الزهو والزخرفة فـي المعـابد حتّـى كـانت الأعمـدة وإطـارات الأبـواب تلتمـع بـالذهب وكـانت الأرض تكفّـن فـي بعـض الجهـات المقدّسة بالفضّة والذهب، وكذلك الأمـر بالنسبة للوحـات الكبـيرة والأوانـي. كمـا أنشـأ رعمسيس الحدائق الفخمة التي غرس فيهـا أشـجارًا خضـراء وزهـورًا ونبـات الـبردى ليُسرّ آمون برائحتها. وغرس الأشجار التي تنتج البخـور والمرّ، وأكـثر مـن زراعتهـا

في طيبة التي أصبحت تُعـرف باسـم "بـلاد البخـور". ولكـن رغـم فخامـة معـابد الدولـة الحديثة فإنّ العبادة ظلّت تحتفظ بطـابعها القديم. وظلّت طقوس الخدمة اليوميّة وطقـوس أيّـام الأعيـاد علـى حالهـا، ولكـنّ مـا حـدث هـو أنّ كـلّ شـيء قـد ازداد ثـراء وروعـة وفخامة[1].

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٤.

الفَصلُ الثَّالِث

التّعاطي مَع مسألَة المَوت

الحَيَاة بَعدَ المَوت؛

أيدوس المقدّسة؛ المقابر والأهرامات؛

العقائد الجنائزيّة؛ تَحنيط المَيت؛

كُتُب الأوراد؛ إختراعُ الكِتابة في خِدمَة الجنائزيّة؛

الـ"كا" والـ"با"؛ مكَان وُجُود عَالَم المَوتَى.

الحَيَاةُ بَعدَ المَوت

تساءل المصريّ عن الحياة بعد الموت، وسواء قضى الإنسان حياته تحت الأرض أو فوق سطحها فوجوده في المكانَين محزن. وقد تملّك سكّان النيل هاجس الماورائيّات قبل الفراعنة، وكانت حياتهم الدينيّة والسياسيّة موسومة بهذا الطابع. بالنسبة لهم، الموت ليس نهاية بل بداية مرحلة تحوّل الفرد لكي يستطيع الاشتراك في حركة الكون الدائمة. وتُعتبر الميتافيزيقية المصريّة أنّ في الإنسان ستّة أجزاء، ثلاثة منها ماديّة، هي الجسم الماديّ والإسم والخيال، وثلاثة روحيّة هي النفس والروح والجزء من الأبديّة الذي يتلقّاه الإنسان حتّى قبل ولادته، وهو ضمان أبديّته، ويرافقه طوال رحلته نحو حياة جديدة[1].

تفيد "متون الأهرام" أنّ الطامحين إلى حياة مميّزة قد تساءلوا عمّا إذا كان الفقراء وأصحاب السلاطين والأغنياء سيكونون متساوين في الحياة بعد الموت. فمن الضروريّ أن يكون هناك وجود أفضل ومقرّ أحسن للأرواح الممتازة التي "ينبغي أن تعيش وفقًا لأمر الآلهة"، وخاصّة الملوك الذين يُعتبرون في حياتهم كأنّهم آلهة. لقد كان هذا المقرّ في السماء حيث تصوّر المصريّون عالمًا ثانيًا للموتى، أطلقوا عليه اسم "دوات"، على أنّ هذا الإسم أصبح يُطلق كذلك، في العصور المتأخّرة، على عالم

---

١ ـ الدسوقي ناصر، الحياة بعد الموت، جرّوس برس (طرابلس ـ لبنان،١٩٩٣) ص١٨ ـ ١٩.

الموتى السفليّ. وإذ كان تجدّد الحياة النباتيّة قد أصبح رمزًا لتجديد الحياة، فقد قام اعتقاد مماثل على أساس فكرة تجدّد الحياة في السماء، على اعتبار أنّ الشمس بعد غروبها يمكن أن تشرق من جديد.

ربّما كانت قوّة هذا الإيمان بالحياة بعد الموت هي التي دعمت الديانة المصريّة، وجعلتها تبقى قائمة في إحدى صورها المتأخّرة حتّى القرن السادس ميلادي، وإن كان الاحتكاك بالثقافات الغازية قد طوّر وغيّر جانبًا من مضمونها وصورتها. وهكذا فُسّرت ديانة "إيزيس وأوزيريس"، كما صوّرها المؤرّخ اليونانيّ "بلوترك" في القرن الثاني للميلاد تفسيرًا حرًّا بمعاونة الفلسفتَين الأفلاطونيّة والرواقيّة. لكنّ البقايا الأثريّة العديدة والكميّة الضخمة من الكتابات المصريّة الأصليّة تسمح بإدراك التراث المبكّر في صورته الأصليّة التي لم تَشُبْها شائبة[1]. فقد ظهر عند المصريّين تصوّر آخر عن الحياة بعد الموت لم يكن في البداية سوى مركز ثانويّ، لكنّه ساد على غيره في ما بعد، هو عقيدة الإله المتوفّى أوزيريس الذي غدا ملكًا للموتى أجمعين، وسيّد مملكة الموتى، ومثالاً يحتذونه. ولم يُعثر في مقابر الأسرات الأولى على ما يشير إلى وجود هذه العقيدة على وجه أكيد، على أنّ هذا لا يدلّ بطبيعة الحال على أنّها لم تكن إذ ذاك عقيدة شعبيّة. ولم يكن قيام ملك على الموتى بالأمر الجوهريّ، وإنّما الأثر الحاسم على تطوّر العقائد الجنائزيّة في مصر يتجلّى في أنّ المصريّين قد رأوا في الوقت نفسه في الإله الميت مثالاً للشخص المتوفّى. فالرجل الذي كان يُدفن في الأرض يلقى المصير نفسه الذي تلقّاه الإله، فقد اضطرّ هو كذلك إلى أن ينفصم عن الحياة وأن يخلّف وراءه زوجته وأولاده. وأهمّ من هذا كلّه هو أنّ الميت سوف يصحو ثانية على نحو ما بُعث

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٨٠.

أوزيريس للحياة من جديد، على شكل شبح خياليّ، وإنّما في بعث مجسّد، ذلك لأنّ الآلهة، كما ورد في متون الأهرام، قد "جمعت معًا عظام أوزيريس، ثمّ ضمّت رأسه إلى عظامه، وعظامه إلى رأسه"، وعلى هذا النحو سوف يجري مع الإنسان الميت إذا اعتُبر كأوزيريس جديد. ولم يُعرف متى بدأت هذه العقيدة تنتشر بهذا الشكل في الشعب المصريّ، لكنّ المعروف انّها ترجع إلى زمن قديم جدًا، ذلك لأنّ الأوراد التي يتّخذ فيها الميت شخص أوزيريس توجد بكثرة في أقدم ما حُفظ من أدب جنائزيّ أي "متون الأهرام". وفي القرون التالية التي يرجع إليها معظم ما يُسمّى بـ"متون التوابيت" و"كتاب الموتى"، نرى أنّ الحياة السماويّة التي ابتُدعت أصلاً للملوك، توهَب لميت آخر، ثمّ يصبح كلّ ميت إلهًا في العالم السفليّ. وقد امتزجت بهذه الأفكار وغيرها ممّا تواتر من الأزمنة القديمة وأُسيء فهمه، ضروب مختلفة ممّا استُحدث من تصوّرات عن مصير الموتى، وعن مملكة أوزيريس. وتمتاز نصوص "كتاب الموتى" بأنّها صيغ سحريّة، ولكي يتمّ للميت هذا المصير أو ذاك، عليه أن يتلو وردًا يتّخذ فيه شخصيّة أيّ إله، اعتقادًا بأنّه يكتسب صفاته بهذه الوسيلة. وما الخوف من أن يعرف الميت في العالم الثاني شخصه، إلاّ أحد الشجون الكثيرة التي كان على ما في كتاب الموتى من سحر أن يعالجها. وممّا كان يخشاه الميت ألاّ يكون له فم يتحدّث به مع الآلهة، وأن يُسلب منه قلبه، وأن يُقطع رأسه، وأن يفسد جسده بالرغم من تحنيطه، وأن تنتزع بعض الكائنات المعادية منه "مكانه وعرشه"، وأن يضلّ طريقه "فيقع على مذبح الإله" أضحية تعيسة... إلى ما هنالك من الشجون الكثيرة، التي لا تظهر في "متون الأهرام" إلاّ قليلاً، على أنّه لا بدّ أنّها كانت تسود الأوساط، في العصر الذي جُمعت فيه أوراد كتاب الموتى، رغبة متهوّسة لإفادة الميت عن طريق السحر. وقد اعتبر مؤرّخون باحثون أنّ "كتاب الموتى" كان وسيلة توصيل الحماية السحريّة، ولقد ذهب البعض إلى

القول بأنّ ذلك كلّه لم يتجاوز حدود السحر البدائـيّ، فحتّى تَوَحُّد شـخصيّة الميت مـع أوزيريس ـ وذلك هو الضمان الأخير لتبرئته يوم الحساب ـ فقد اعتُبر من هذه الزاويـة خلوًا من العمق الأخلاقيّ. ولا شكّ في أنّ عنصر السحر موجـود، ولكـن يمكـن القـول كذلك إنّ وجود قلق خفيّ حول المعايير الأخلاقيّة والمقاييس الأدبيّة أمـر واضـح أيضـًا وهذا إن لم نجد هنا نوعًا من الاقتراب بشكل غامض من فكرة غفران الذنوب[١].

على أنّ أهمّ من هذا كلّه هو فكرة ضرورة تبرير الميت؛ وهي فكرة حديثة النشأة. وقد رأينـا فـي أسـطورة أوزيريـس أنّ ست قـاضي أوزيريـس المتوفَـى، وأنّ الآلهـة اجتمعت في هليوبوليس لمحاكمته، ووجدته بريئًا، فبرّرته. ويبدو من "كتاب الموتى" أنّ محاكمات شبيهة قد جرت في "أبو صير" و"بوتو" و"أبيـدوس" و"هيراكليوبوليس" وفـي معبد "سكر" في منف وفي أماكن مقدّسة أخرى، وكان تحـوت فـي كـلّ منهـا هـو الـذي "بـرّره". وقـد أدّى هـذا التصـوّر إلـى أن أصبـح يُرجـى أن يـبرّر تحـوت الميت كذلـك بصفته أوزيريس جديدًا. وكما أنّ أوزيريس قـد وُجـد محقًّـا، فقد وجـب لهذا أن يثبـت كذلك أنّ الميت فـي مملكة الموتى طاهر مبرّأ من كلّ إثم، وإلاّ فكيف يمكن استقباله فـي مملكة ذاك الإله الذي كان يدين بسلطته لبراءته مـن الخطايـا؟ وفـي هـذا مظهـر خلقـيّ وجد سبيله من أسطورة أوزيريس إلى العقائد المصريّة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد الرجل القويّ والشريف هو الذي ينتصر في الموت، إنّما هو الرجل المحقّ البـريء مـن كـلّ ذنب. وما تصوّره المصريّـون، فـي أزهـى عصورهـم، عـن مصير الموتـى الأبـرار، تكشف لنا عنه الدعوات في مقابر أشـراف الأسـرة الثامنـة عشـرة، إذ يجتمـع فـي هـذه الدعوات سائر ما يُرجى للميـت مـن مجد فـي السـماء، وقـوّة فـي الأرض، وأن يُمنـح الغذاء والطعام من اللحم الذي على مائدة الإله العظيم، وأن تحوم روحه علـى أغصـان

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٨٠.

الأشجار التي زرعها، وألاّ تُحبس روحه، وأن يكون وسط أهل الثناء، والسماح له بزيارة معبد الإله المحليّ للاستمتاع بالبخور وتقبّل باقات الزهور التي تُقدّم للإله[1]...

أبيدوس

المقدّسة

لقد تيسّر للمصريّين أن يجدوا مكانًا آخر يعقدون عليه آمالهم في الحياة المستقبلة، وهو مدينة أبيدوس المقدّسة. فمنذ أن أقام ملوك الأسرة الأولى في أبيدوس ودُفنوا فيها، نشأ الزعم أنّ أوزيريس "أوّل سكّان الغرب" وكان يُعبد في هذه المدينة، إنّما هو، بنوع خاصّ، إله مقدّس رحيم. وفي أبيدوس كانت أيضًا أهمّ أشلائه، وهي رأسه، مدفونة في صندوق صغير. فطوبى للموتى الذين كانوا يُدفنون غير بعيد من درج الإله العظيم. فهم كانوا يؤلّفون حاشية ملك الموتى، ويُطلق عليهم "عظماء أبيدوس" و"رجال حاشيته". وهكذا كانت أعزّ أمنية لكلّ مصريّ تقيّ أن يُدفن في أبيدوس. وقد آثر كثير من المصريّين من سائر الطبقات، منذ نهاية الدولة القديمة، أن تكون مقابرهم في هذا المكان المقدّس بالقرب من بلاط الملك، أو في موطنهم إذا تعذّر عليهم بناء مقبرة هناك، ولكن يحسن بهم، على الأقلّ، زيارة الإله في أبيدوس، وإقامة حجر فيها "عند درج الإله العظيم"، و"نقش اسمه في مقرّ إقامة الإله"، وبهذا كان يضمن المصريّ لنفسه مكانًا بين الممتازين من الموتى. وتدلّ مجموعات الآثار في العالم على ما كان لهذه العادة من انتشار، فأغلب الشواهد والنصب الصغيرة للدولة الوسطى قد وُجدت في أبيدوس. وفي الدولة الحديثة ظلّ الاعتقاد سائدًا أنّ الميت يحظى ببركة خاصّة إذا انضمّ إلى أوزيريس في أبيدوس[2].

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٩، ٣١٧ ـ ٣١٨.

٢ ـ راجع: الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٥٧؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٦٢.

المقابــــــــر والأهرامات

كانت المقابر الفخمة، والعطايا الوافرة، قاصرة أولَ الأمر على الملوك. فمقبرة نقادة الكبيرة في مصر العليا التي دُفن فيها أحد ملوك العهد العتيق، ولعلّه "مينا" المشهور، هي مبنى مستطيل من اللبن جدرانه قويّة مائلة إلى الداخل، تتخلّلها مشكاوات متداخلة تضفي على البناء شكل القصر، والسقف من جذوع النخل، وكانت تشتمل على غرفة كبيرة للجثّة في الوسط، وعلى أربع غرف أخرى، كانت تحتوي على كمّيّات كبيرة من الأطعمة، وقدور النبيذ والجعة، وأرائك من العاج، وأواني فاخرة من الأحجار، والأثاث المنزليّ. وفي أبيدوس بنى ملوك هذا العهد الباكر مقابر مماثلة، تتمثّل فيها عادة غريبة: ففي الغرف الصغيرة القريبة من غرفة الملك يرقد بعض حاشيته من النساء والرجال والحرس والأقزام، والكلاب، وكان لهم شرف مصاحبة سيّدهم في الموت عند وفاته، إذ من غير الممكن أن يكون في مملكة الموتى من غير خلصائه. وبعد أربعة قرون، نجد أنفسنا في عالم لا يعرف شيئًا من هذه العادات، فقد عمل أشراف البلاط إذ ذاك، على أن يُدفنوا في مقابر عظيمة، ابتنوها من حول مقبرة الملك، التي تسمو في شكل هرم على سائر ما عداها. وأوّل ملك شيّد بناء مدهشًا على هذا النحو هو الملك زوسر. ولم ينسَ المصريّون حتّى في الأجيال المتأخّرة وزيره أمنحوتب، الذي أقام البناء الضخم للهرم المدرّج من الحجر لا من اللبن[1].

---

١ ـ راجع: الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٥٧، ١: ٣١٩، ٢: ١٢٧٣، ٤: ٢٤١٦؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٢٣.

فقد كانت أوّل خطوة اتُّخذت على صعيد بناء الأهرام، بناء هرم الملك "زوسر" من الأسرة الثالثة، الذي صمّمه مهندسه أمنحوتب، وهو أوّل بناء حجري ضخم يُشَيَّد في التاريخ. وقبل ذلك كان المصريّون يدفنون موتاهم، في الأعمّ الأغلب، في بناءٍ من الطوب يسمّى الآن "مصطبة"، وهي من الكلمة العربيّة التي تعني الأريكة، وهي كلمة تناسب الإشارة إلى هيئةِ البناء، كما أنّها معقولة لتفسير شكل هرم سقارة ذي الدرج الضخم، والفكرة الأساسيّة هي تكديس عدد من المصاطب ذات الأحجام المتناقصة بعضها فوق بعض، ويوجد حول الهرم مجمع من المباني الحجريّة الأخرى القصد منها أن تُستخدم في الاحتفالات الدينيّة خلال عمليّة الدفن وبعدها. ومن المحتمل أن يكون التصوّر الرئيسيّ الكامن خلف الهرم المدرّج هو الصعود إلى السماء، وإلى الشمس. ولقد عُدّل التصميم في الأسرة الرابعة لصالح الهرم الحقيقيّ. وأشهر الأمثلة على ذلك هي أهرامات خوفو، وخفرع، ومنقورع في الجيزة[1].

ويرى باحثون أن لا علاقة لهذه المباني بالفنّ المصريّ في ما مضى، ذلك لأنّ هذه الكتل الحجريّة الموحّدة الشكل، ليست في أساسها إلاّ كومة الحصى والتراب، التي كانت تكوَّم فوق الجثّة لتقيها الدمار، والتي زيد في مجموعها إلى حدّ الإفراط. وليس من شكّ في أنّ ما أدى إلى هذه المغالاة هو الاعتقاد بأنّ الإنسان سيُبعث لحياة جديدة إذا ظلّ جسده سليمًا يتصرّف به كيفما يشاء. وهكذا لا يشتمل الهرم في داخله على أيّة غرفة أخرى غير الغرفة التي يوجد فيها التابوت؛ أمّا الدهليز الضيّق الذي يؤدّي إلى غرفة التابوت هذه، فكان يُغلق بعد الدفن إلى الأبد، ولهذا فليس في الهرم نفسه مكان يمكن أن تقدّم فيه للملك المتوفّى الأطعمة، وتؤدّى فيه الشعائر، التي كانت تقتضيها

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦١.

الطقوس، وإنّما كان كلّ هذا يؤدّى في مبنى خاصّ كبير، يقع أمـام الهرم، نسمّيه الآن المعبد الجنازيّ. وكان الملوك في القرون الأولى من بناء الأهرام يتبارون في تشييد الأهرامات الضخمة، وكثيرًا ما كان يُستعاض في أثناء الحكم عن بناء مشروع أوّل متواضع ببناء آخر أعظم وأفخم. وفي حالات معيّنة كان يتوفّى الملك قبل إنجاز الهرم والمعبد، فيقع على كاهل خلفه العمل على إتمامهما، وهو عمل كان يؤدّيه في كثير أو قليل من الإقبال، كما هو الأمر في المعبد الجنازيّ للملك "نفر إير كارع". وقد ادّخرت الأقدار لملكَين من الأسرة الرابعة هما خوفو وخفرع، أن يبزّا إلى حدّ بعيد في مبانيهما سائر مباني أسلافهما وخلفائهما. ولتكوين فكرة عمّا يُسمّى "الهرم الأكبر" للملك خوفو، يكفي أن نتصورّ سطحًا مربّعًا طول جانب منه ٢٣٣ مترًا، وقد أُقيم عليه جرم من الحجر يفوق في ارتفاعه ارتفاع كاتدرائيّة ستراسبورغ. ولم يكن الإنسان ليتصورّ أنّ مثل هذا البناء الضخم قد يكون لحماية جثّة واحدة، لهذا شُغل الخيال بالبحث عن سبب آخر لمثل هذا البناء. على أنّه من اليسير إدراك أنّ هذَين الملكَين اللذَين كلّفا شعبهما مثل هذه الأعمال الضخمة، قد عُرفا عند الأجيال المتأخّرة بانعدام التقوى والصلاح بنوع خاصّ. وهناك شيء آخر جدير بالملاحظة في هذه الأبنية الضخمة للأسرة الرابعة؛ فالأهرام ومعابدها على حدّ سواء تخلو من الكتابات أو الصور، إذ ما كانت تؤثّر في النفس إلاّ بضخامة جرمها. وقد اختلف الأمر في الأسرة الخامسة، وبخاصّة في المعابد الجنازيّة. وإنّنا نعرف الآن تفاصيل أجزائها الفخمة بفضل الحفائر الألمانيّة. فبالاعتماد على ما وُجد في معبدَي "أورني رع" و"ساحورع"، يظهر أنّ رصيف الميناء حيث كانت ترسو السفن، مدخل فخم يخرج منه دهليز طويل مسقوف يبلغ طوله في إحدى الحالات ٤٠٠ متر، يؤدّي صعدًا إلى سطح الهضبة، حيث يقوم المعبد، وفي مقدّمته ردهة، كان يجتمع فيها مَن لهم حقّ الاشتراك في الاحتفالات، ومن ثمّ يمضون

إلى الفناء الواسع ذي الأساطين، حيث كان يمكنهم، إذ فُتحت الأبواب، رؤية تماثيل الملك المخلّد. أمّا الجزء الخلفيّ في المعبد فكان، على نقيض هذا، مخصّصًا للعبادة الجنازيّة بالذات. وهو ينتهي بما يُسمّى الباب الوهميّ، وهو ذاك المكان الذي يُظنّ أنّ الميت يظهر فيه ليستقبل ما يقدّم من طعام. وكذلك تتّفق زخرفة المعبد الداخليّة، مع الأغراض المختلفة من غرفه. فالنقوش المصوّرة في بهو الأساطين وفي الجزء الأماميّ من المعبد تتعلّق بأعمال الملك وحياته. أمّا في الغرف الداخليّة فتحلّي الجدران صور أنوبيس وغيره من آلهة الموتى. وفي عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة ظهر كذلك شيء آخر فيه فائدة علميّة تفوق ما لسائر صور المعابد الجنازيّة كثيرًا، وذلك لأنّ جدران غرفة الدفن والدهليز في هرم هذا الملك وأهرام خلفائه من الملوك تغطّيها كتابات لا تنتهي، وهي التي تسمّى "متون الأهرام"، وهي عبارة عن أوراد قديمة جدًّا يستقي الباحثون من معانيها، بنوع خاصّ، معلوماتهم عن أقدم ديانة للمصريّين. ولقد سُجّل، في واقع الأمر، للملك المتوفّى هنا كلّ ما أمكن أن يساعد على سعادته في الحياة الثانية[1].

وكان بناء الهرم يُعتبر في الدولة القديمة أعظم عمل في حياة الملك، ويدلّ على ذلك ما كانت تجري به العادة إذ ذاك من تسمية مقرّ إقامة الملك باسم هرمه. وكان اسم كلّ هرم يتضمّن الإشادة به باعتباره أثرًا فخمًا خالدًا؛ فكان الهرم الأكبر في الجيزة يُسمّى "الأفق"، والهرم الثاني "العظيم"، وهناك هرم آخر كان يحمل اسم "الأوسركاف المقاعد الطاهرة". ومن حول هرم الملك كان يُدفن أولئك الذين أحاطوا به في الحياة، وهم الأمراء والأميرات وسائر عظماء بلاطه. وكان الدفن حول الهرم يُعتبر منّة

---

١ ـ راجع: الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٤: ٢١٩٠؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨.

خاصّة من الملك. وكانت هذه المقابر تقع حول الهرم كأنّها مدينة ذات شوارع منتظمة، وهي تختلف كثيرًا في حجمها، وفي مادّة بنائها، على أنّها كلّها في جوهرها من طراز واحد، أطلق عليه الفلاّحون في الوقت الحاضر اسمًا غير جليل، ولكنّه وافٍ بالمعنى، وهو "المصطبة"، أي المقعد؛ وتبدو المصطبة في مظهرها الخارجيّ على الشكل المستطيل الذي تتميّز به أقدم المقابر الملكيّة، غير أنّها تجمع إلى هذا سائر الوسائل الاحتياطيّة، التي ابتُعدت حتّى ذلك الوقت لوقاية الجثّة. فكانت تُحفر في الأرض الصخريّة حفرة عموديّة عميقة تسمّى البئر، ثمّ تنقر في نهايتها غرفة صغيرة جانبيّة، كانت توضع فيها الجثّة. ومن فوق البئر كانت تُقام كومة مستطيلة من كتل الحجارة، تُكسى جوانبها من الحجر المنحوت، وبذلك كانت المصطبة تبدو كأنّها بناء مشيّد له جدران مائلة. وكان يُزاد في ارتفاع البئر حتّى يبلغ سطح المصطبة، إذ كان يجب إنزال التابوت منه يوم الدفن إلى سطح المصطبة، وحيث كان يُقام أيضًا الاحتفال الجنازيّ، كان يُنشأ طريق صاعد، يُزال في ما بعد. فإذا تمّ هذا، سُدّ المدخل إلى غرفة الميت ومُلئت البئر حتّى أعلاها بالأحجار ونقارة الأحجار[1].

ولا تكاد المقابر الصخريّة أن تكون أحدث عهدًا من المصطبة نفسها؛ فقد حفر عظماء الأسرة الرابعة مقابرهم في بعض الأحيان في الجدار الصخريّ لهضبة الجيزة، بدلاً من بنائها فوقها. على أنّ هضبة منف، التي شُيّدت عليها معظم المقابر الكبيرة في الدولة القديمة، هي أكثر صلاحية لبناء المصاطب، لهذا ظلّت المقبرة الصخريّة فيها على الدوام أمرًا نادرًا. على أنّ أنسب الأماكن للمقابر الصخريّة هي المناطق الجنوبيّة، التي يحفّ فيها وادي النيل جداران مرتفعان، شديدا الانحدار، حيث كان من أبسط

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣٣٨ ـ ٣٤٠.

الأشياء حفر المقبرة في الصخر في اتّجاه أفقيّ. وتحلّي هذه المقابر الصخريّة الكتابات والصور على نحو المصاطب، ويوجد فيها كذلك الباب الوهميّ والبئر وغرفة التابوت. ومع هذا فقد أخذ نظامها يتطوّر في وقت متأخّر طبقًا لوجهة نظر أخرى. فقد تصوّر المصريّون المقبرة الصخريّة كأنّها بيت الميت، فهي كمسكن الشخص الحيّ، تحتوي من أمام على بهو عريض للاستقبال، ومن خلفه قاعة كبيرة يليها مسكن الميت الخاصّ، وهو مشكاة يستقرّ فيها تمثاله.

وإذ تصوّر المصريّون أنّ مملكة الموتى كانت تقع في الغرب، أو أنّ الدخول إليها كان من جهة الغرب، فهم كانوا يتّجهون إلى هذه الناحية من السماء في كلّ ما كانوا يأتون من أجل الميت. فكانت المقابر تأخذ مكانها على حافّة الهضبة الغربيّة حيثما أمكن، كما كان المكان الذي كان يُقدّم فيه القربان للمتوفّى يتّخذ أمام الجدار الشرقيّ للمصطبة، بحيث كان مقدّم القربان يتّجه إلى الغرب عندما يخاطب الميت.

وكان من المعتاد تمييز مكان تقديم القربان هذا في المصطبة بما يُسمّى بالباب الوهميّ، وهو صورة نمطيّة للباب. وهو يمثّل في الوقت نفسه المدخل إلى داخل القبر، والباب الذي يخرج منه الميت لاستقبال ما يُقدّمه الأحياء من تقدمات. وفي المصطبات الكبيرة كان يؤثر تعميق مكان تقديم القربان على شكل غرفة، يقوم في جدارها الخلفيّ الباب الوهميّ. وكانت هذه الغرفة صغيرة في بداية الأمر. فغرفة مقبرة متن الموجودة في برلين، والتي تنتمي إلى الأسرة الثالثة، ليست في حقيقة الأمر سوى مشكاة عميقة ضيّقة، يتّسع مؤخّرها على شكل الصليب أمام الجدار الخلفيّ. وهي لم تكن لتسع غير الشخصَين اللذَين كان عليهما القيام بالصلاة وتقديم القرابين في المقبرة، كما كانت تسمح لمقدّم القربان بأن يضع الأطعمة على يسار الباب الوهميّ ويمينه. وقد حلّيت

جدران هذه الغرفة الصغيرة بشتّى الصور المناسبة[1]، فأهل الميت يقدّمون لـه الأطعمـة والأثاث المنزليّ، وكلابه (كان الميت رئيس الصيّـادين) تصيد لـه الحيوانـات لقربانـه، والكهنة يؤدّون له الطقوس. وعلى المدخل نصّان طويـلان يتحدّثـان عمّـا أصابـه مـن توفيق في حياته، وعمّا شيّده لنفسه من بيت جميل وحديقة كبيرة[2].

وفي عهد خوفو، أي بعد بضع عشرات من السنين، أصبح مـن المرغـوب فيـه أن تكون الغـرف أكثر اتّسـاعًا والزخـارف أكثر تنوّعًـا؛ وقـد ارتبـط هـرم خوفـو الأكبر بالجيزة في الأذهان ـ كغيره من الأهرامات ـ بأنّه معبـد للموتـى تُقَـام فيـه عبـادة الملـك الميت. وما زال الناس يعدّون هذا الهرم إحدى عجائب الدنيا. وهناك ممرّ مـن الحجـر يؤدّي من هذا المعبد إلى حافّة الصحراء، وهنا يقع "معبد الوادي" الذي يستقبل جثمـان الملك وتُقام فيه الطقوس الواجبة له قبل أن ينتقل عبر الممرّ إلى الهرم، ومن ثم فالهرم فـي جوهـره، "قبرٌ هـائلٌ"، يستهدف حفظ جثمـان الملـك الميت مـن الناحيــة الماديّـة والروحيّة على السواء. ومن ثمّ فمن سخريّة الأقدار ألاّ توجد مومياء ملكيّة واحـدة مـن الدولة القديمة. وتتجمّـع حـول الأهرامـات قبـور حاشـية الملـك مـن النبـلاء علـى هيئـة مصاطب. ومع هذا ظهر مع نهاية الدولة القديمـة نـوعٌ جديدٌ مـن المقابر فـي "مصـر العليا" شُيّدت على أساس قابليّة الحفر في المنحدرات الصخريّة الصلبة. وينحـت هيكـل فـي الصخـرة العليـا يـؤدّي إلـى ممرّ رئيسـيّ، يـؤدّي بـدوره إلـى حُجْـرة الدفن. ولقـد

---

١ ـ يورد الباحث إرمان هنا هذه الحاشية: ليس هناك ما يدلّ على صحّة الرأي الحديث، الذي يذهب إلى أنّ هـذه النقوش إنّما وجدت مكانها في المقابر ليكون لمَن تمثّله من الخدم والحيوان وما إلى ذلك نصيب مع الميت في البقاء بعد الموت، وليقوموا أيضًا بخدمتـه في الحياة الثانية. أضف إلى هذا أنّ هذا الرأي بحدّ ذاته قليل الاحتمال؛ وإلاّ لكانت هذه الصور قـد اختيرت بطريقـة منظّمـة، ولمـا كان للحريّة والاختيار مجال كبير في رسمها. إنّ هذه الصور إنّما ترجع إلى ما ترجع إليه الزخارف في سـائر العالم من أسباب، ألا وهي فرحة الامتلاك ولذّة العمل الفنّيّ.

٢ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣٤٠ ـ ٣٤٢؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٢: ١٠٦٠.

استخدمت سمات متعدّدة من هذا التخطيط في دفن كثير من الفراعنة في الدولة الحديثة، بما فيهم توت عنخ آمون في وادي الملوك بالقرب من طيبة. وأحد هذه القبور المنحوتة في الصخر هو قبر سيتي الأوّل، وهو أكمل وأعظم قبور الفراعنة بجبّانة وادي الملوك. يمتدّ داخل الصخر حوالى ٢١٠ أمتار (٧٠٠ قدم)، ونُقشت على جدران حجراته نصوص "كتاب ذلك الموجود في العالم السفلي"، وهي نصوص تصف الرحلة الليليّة لإله الشمس خلال مروره بالعالم السفليّ، حتّى يظهر مع الفجر في العالم العلويّ. وكان المصريّون يعتقدون أنّ الملك الميت يصحب إله الشمس في رحلته كيما يشرق معه في فجر جديد، ومن الواضح أنّ ذلك ضمان لبقائه حيًّا بعد الموت[١].

وأخيرًا كان في الأسرتَين الخامسة والسادسة أن ابتنى كثير من العظماء بيوتًا حقيقيّة في مصاطبهم. فمقبرة مرروكا وزير الملك بيبي (حوالى سنة ٢٣٧٥ ق.م.) تحتوي على ما لا يقلّ عن إحدى وثلاثين غرفة خُصّص منها واحدة وعشرون غرفة للميت نفسه، وستّ غرف لزوجته وأربع لإبنه. أمّا بالنسبة للصور فكانت تمثّل زراعة الأرض، وتربية الماشية، وصيد الحيوان والطيور، والصنّاع، والملاّحين، والموسيقيّين، والراقصات، وذبح الضحايا من الحيوان، وعصر النبيذ، حتّى أنّ الفنّانين الذين عملوا في المقبرة قد مثّلوا أنفسهم في صور المقابر. وقد كان لكلّ مَن مُثّل في الصور دوره في حياة الميت، فالموسيقى والرقص للترفيه عن الميت، والحيوانات هي ما يقدّم في المقبرة من قرابين... ومن غير المحتمل أن يكون هذا التغيير الزخرفيّ قد حدث بغير سبب قويّ، لهذا يُعتقد أنّه قد سادت في ذلك الوقت عادة إحياء أعياد الموتى بالمآدب البهيجة بما يناسب الغرف الكبيرة ذات الزخارف الزاهية أكثر ممّا يناسب[٢]

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٤١٩؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٢.

٢ ـ راجع: الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٤١٩؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣٤٠ ـ ٣٤٢.

الغرف الضيّقة ذات الصور المملّة. وفي ما عدا ذلك أصبح كلّ شيء يتّصل بإطعام الميت في الدولة القديمة أشدّ أناقة، وأحفل بأطايب الطعام من قرن إلى قرن. وقد سرّ المصريّون، منذ وقت مبكّر، المغالاة على الطريقة الشرقيّة في ما كانوا يتمنّون للميت، إذ كانوا يتمنّون له، على سبيل المثال، ألف رغيف، وألف ثور، وألف أوزة، وألفًا من كلّ شيء طيّب طاهر، يُضاف إلى كلّ هذا كمّيّات أخرى من الطعام تقدّم للميت في الأعياد. وكان من الطبيعيّ أيضًا أن يزداد عدد الموظّفين في المقابر من الدرجات الدنيا والوسطى والعليا لتقديم القرابين، فارتفع عدد الكهنة أيضًا وقد أُحصي في مقبرة مرروكا ٤٧ كاهنًا جنازيًّا. من هنا أصبح من العسير الإبقاء على النظام القديم الذي كان يُعهد فيه إلى الأبناء والأحفاد أمر الاهتمام بالموتى، لأنّهم كانوا غير قادرين على توفير الرعاية المنتظمة للمقبرة. لذا غُضّ النظر عن تقوى الأبناء وبات أمر الاهتمام بالموتى قائمًا على العمل المأجور. وكانت الاتّفاقات تُعقد مع بعض الأقارب أو بعض خدم الأسرة أو مع بعض الأشخاص من غير ذوي القربى، يمنحون فيها ملكيّة بعض الأراضي أو بعض المداخيل، على أن يتكفّلوا، مقابل ذلك، بتزويد الميت بالقربان وتأدية الطقوس الضروريّة والمحافظة على المقبرة في حالة جيّدة[1].

أمّا الأهرامات الصغيرة من اللبن، تلك التي غدت، منذ الدولة الوسطى، الطراز العاديّ للمقابر في مدن المقاطعات، فكانت تقليدًا لأهرامات الملوك الكبيرة، وكانت خاصّة بأوساط الناس، لكنّها أكثر بساطة وأقلّ كلفة. أمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إيجاد مكان لهم ولو في مقبرة عامّة، فلا يعرف الباحثون أين وُوريت جثثهم في الرمال. غير أنّه يبدو أنّهم حاولوا أن ينالوا شيئًا ممّا تتيحه المقابر من نعم. فقد صنعوا

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

دمى صغيرة من خشب تشبه المومياء من بعيد، وكانوا يستكتبون عليها أسماءهم ويلفّونها في خرق من الكتّان، ويضعونها في تابوت صغير؛ فإذا دُفن هذا التابوت بعد ذلك أمام مدخل مقبرة كبيرة، كان يرجى أن ينال الميت، بفضل تلك الدمية التي تمثّله من الخشب، من السعادة التي ينعم بها الميت المدفون في هذه المقبرة. وهذه الحيلة التي عمد إليها الفقراء، نرى لها فكرة مشابهة عند أصحاب المناصب العليا. فعندما ابتنت الملكة حاتشبسوت معبدها الجنازيّ المسمّى بالدير البحريّ، أقام أقوى أصفيائها سنموت، وقد كانت له مقبرة ثانية غير بعيدة من معبدها، أقام مقبرة ثانية تتّصل بدهليز طويل تحت المعبد، وبهذا كان لسنموت أن يصير إليه نصيب من النعم التي كانت من حقّ الملكة[1].

العقائـــد

الجنائزيّة

لقد كانت العقيدة المصريّة القديمة تؤمن بالبعث والحساب، ولذلك عمل المصريّون لذلك اليوم ألف حساب. وكانت للعقائد الجنائزيّة أيضًا مكان كبير في الديانة المصريّة. وكانت هذه العقائد، كما يقول العلماء، خليطًا من الأفكار والخيالات. فكان يُعتقد أنّ الميت، في قبره، يأكل ويشرب، وأنّه يحيا حياة خالدة في مملكة الغرب. وزاد عدد التماثيل الجنائزيّة حتّى كان يودع منها مع الميت مئات في بعض الأحيان. وازداد في نفس الوقت شأن الآلهة المختلفة بما كانت تلقاه من كلّ ملك يتولّى العرش من هبات وعطايا. وكان أبرز هذه الآلهة آمون، إله طيبة، الذي كان كهنته قد بلغوا، خاصّة في عصر الأمبراطوريّة، شأوًا كبيرًا في الغنى والسلطة والنفوذ بحيث أصبح بيدهم التحكّم

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٥٨، ٣٧١ ـ ٣٧٢.

في كلّ شيء من ثروة البلاد وسياستها، فغدوا موضع حقد وغيرة من قبل كهنة الآلهة الأخرى في مصر[1].

وقد أكّدت الدراسات على تميّز الشعب المصريّ عن غيره من الشعوب في العناية التي يوجّهها إلى موتاه. ولعلّ هذه العناية قد نشأت جرّاء استقرار المصريّين في بلادهم منذ أقدم الأزمنة. فالمصريّ القديم كان يفكّر بموتاه بلا انقطاع، ويودّ ألاّ تفنى ذكراهم. وشتّان هنا بين العناية بذكرى الموتى وبين الفخر بالأجداد العظام ممّا يميّز كذلك بعض الشعوب الأخرى، وذلك لأنّه، منذ انتشار الكتابة في مصر، لم يكن حتّى الصعلوك من الناس ليدّخر وسعًا في "إحياء" أسماء ذوي قرباه ممّن لم يكونوا أقلّ منه خمولاً في الذكر. وليس لتلك العناية سبب سوى الإنسانيّة وحبّ الأهل وذوي القربى. وأخذت العناية بالأموات تزداد بازدهار الحضارة المصريّة حتّى بلغت حدّ المغالاة، إذ شُيّدت العمائر الضخمة للموتى، وليس في العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو المقابر المحفورة في الصخر في طيبة، ولم توضَع في مقابر الموتى في أيّ مكان في العالم، ودائع وافرة قيّمة بمثل ما أودع في مقابر المصريّين. ولم يكن الشعب المصريّ ليبذل مثل هذه الجهود على مدى ثلاثة آلاف سنة لو لم تكن قد نشأت تدريجيًّا إلى جانب العامل الأصليّ، وهو التقوى، عوامل أخرى تتجلّى في ما تصوّره المصريّون عن العالم الثاني وعن حياة الموتى، وهي تصوّرات لا يزال من الممكن ترسّمها في الأدب الجنائزيّ القديم، الذي ليس هو في الحقّ، أدبًا بالمعنى المعتاد، أو هو كذلك في أصغر أجزائه، إذ أغلبه أوراد قصيرة أو طويلة، جرت العادة بتلاوتها عند إعداد الجثّة ودفنها، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا له، وعندما تُراد حمايته من كلّ سوء

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٤٧.

بالدعاء والسحر. ويستمدّ الميت عِلمَه من كتاب يضعه الكهنة قرب المومياء، يُعرف عامّة باسم "كتاب الأموات"، وهو يحمل عدّة عناوين منها "الخروج نحو النّور"، و"كتاب الأبواب"... ويحتوي على التعليمات التي تسمح للميت أن يعبر بلاد الأعماق، وتحت حماية الكلمات السحريّة، تُفتح الأبواب، وتحفظ الروح دومًا الإسم الثاني للميت: إسمه في الأبديّة، إذ بدونه لا يستطيع أن يحيا في العالم الآخر حيث لا يعرفه الآلهة إلاّ بهذا الإسم، وهكذا يستطيع بدون خوف أن يبدو أمام الإله أوزيريس، القاضي الكبير، وأمام القضاة الموجودين خلفه. وقبل أن يتوجّه الميت إلى الجحيم أو إلى الجنّة، يوزن قلبه، أي ضميره، في ميزان الآلهة ليُحكم عليه. وهكذا وضع المصريّون فكرة العدالة بعد الموت والحياة الجديدة[1]. والرأي القائل بأنّ حظّ الميت متوقّف على طريقة سلوكه خلال حياته القديمة، رأي متوغّل في القدم، والآلهة التي في مقدورها أن تمدّ يد المساعدة للميت لا تمنح عونها لكلّ شخص. وحين يتقدّم المعتقد الأوزيريّ على سائر المعتقدات، فإنّه يطغى عليها في نهاية الأمر. ومهمّة هذا الإله المبرّأ من كلّ عيب لا يدخلها إلاّ المطهّرون، وعلى كلّ واحد أن يثبت أمام الواحد والأربعين قاضيًا للموتى أنّه لم يرتكب إثمًا قطّ. والآثام هي مجموع ما هو محرّم في كلّ مجتمع إنسانيّ، أي القتل والتحريض عليه والسرقة والغشّ والتزوير والفسق والزنا، ثمّ أُضيف إلى ذلك واجبات أخرى أسمى، فعلى الإنسان ألاّ يكذب، وألاّ يغتاب، وألاّ يتجسّس من وراء الأبواب وألاّ يُهلك نفسه في ما لا يجدي من أسى، وألاّ يؤخذ اللبن من فم الرضّع حتّى لا يجوعوا ولا يبكوا، وهناك أمور أخرى تمسّ الظروف الخاصّة بكيان المصريّ القديم، فيجب ألاّ يعوق الماء الجاري أثناء الفيضان، وألاّ يعتدي على حيوانات أو أسماك أو طيور الآلهة، وألاّ يسرق الأطعمة من المعابد أو المقابر. وما كان يُعتبر

---

١ ـ الدسوقي، الحياة بعد الموت، ص١٩.

فضيلة في مصر قد سجّلته نقوش المقابر القديمة وآداب الدولة الوسطى. فالمرء يفخر قبل كلّ شيء بعمل الخير، يعطي الخبز للجائع، والماء للعطشان، والملبس للعاري، ويساعد الآخر على عبور النهر بقاربه الشخصيّ، ويهدي الضالّ إلى السبيل السويّ؛ فالرجل الطيّب هو ابن للمسنّين، وأخ للمطلّق، وزوج للأرملة، وأب لليتيم، هو كساء لمَن يقرصه الصقيع، وملجأ من الريح، وممرّض للمريض. ويفخر أحد العظماء زيادة على ذلك بأنّه لم يغبن الأرملة ولم يستغلّ ابنة رجل من العوام. لم يسبّب الضيق لمزارع أو راعٍ، وفي أيّام الفاقة ساعد الشعب ولم يفرّق بين كبير وصغير، وقد حاول بصفته قاضيًا أن يجعل المتخاصمَين يخرجان مسرورَين من المملكة، وقد عنى أيضًا بأن يحفظ للإبن مال أبيه وممتلكاته حين يكون في الأمر خلاف، لأنّ واجب الرجل الشريف أن يحفظ للإبن وظيفة أبيه. ويذكر الحكيم بتاح حوتب وزير الملك أسسي (حوالى ٢٥٠٠ ق.م.) كيف يجب على الرجل الشريف والموظّف الصالح أن يعيش. ومن الخير أن يتزوّج وأن يكوّن أسرة. وعليه أن يحترس من النساء في منزل الآخرين، وأن يصغي إلى شكاوى مَن يطلب العون، وأن يكون متواضعًا وكتومًا، وألاّ يذكر الألفاظ النابية، وألاّ يتكبّر بسبب علمه، وألاّ يحتقر الوضيع إذا رفعه الملك، وأنّ البخل عيب قبيح وشهوة قبيحة تدعو إلى اضطراب العلاقلات الإنسانيّة جميعًا[1].

وبشأن تعبير المصريّين عن الصورة المتطوّرة في الإيمان بأنّ كلّ إنسان بعد الموت سوف يُوَاجه "بميزان القلب" أمام أوزيريس والقضاة الإثنَين والأربعين، كما سبق وذكرنا، هناك العديد من الرسوم والنصوص التي تعالج هذه الفكرة وتظهر كفّتَي الميزان: واحدة فيها رمز الإلهة "ماعت"، وهي "ربّة الحقيقة"، وفي الكفّة الثانية قلب

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٢٢١ ـ ٢٢٤.

المتوفّي، فإذا استطاعت فضائله إحداث توازن مع كفّة الحقيقة فسوف يصدر الحكم لصالحه بالسعادة الأبديّة، وإلاّ فهنالك وحش يُسمّى "ملتهم الموتى" يقف منتظرًا القضاء على الشخص المُدان. ولقد خُصّص الورد رقم ١٢٥ من "كتاب الموتى" لموضوع يوم الحساب، وهو يحتوي على عدد من "إعلانات البراءة"، مثل: "لم أسرق حصص الخبز، ولم أتطفّل على شؤون الآخرين، ولم أتجادل إلاّ في شؤوني الخاصّة، ولم أضاجع امرأةً متزوجة". فقد كان ينبغي على كلّ ميت وهو يلج مملكة الموتى أن يعلن أنّه طاهر مبرّأ من كل إثم، حتّى يمكن أن يستقبله الإله العظيم سيّد القضاء "أوزيريس". وهناك نقوش جنائزيّة لنبيل من الدولة القديمة جاء فيها" "لم أتفوّه قطّ بقول سيّء ضد الناس لشخص ذي نفوذ، فقد أردت أن تكون صورتي حسنة أمام "الإله العظيم"، لقد قدّمت الخبز للجائع، والكساء للعاري". والإشارة هنا "إلى الإله العظيم" أي أوزيريس تعني الإيمان بيوم الحساب بعد الموت، فقد ارتبطت المفاهيم الأخلاقية عند المصريّين ارتباطًا وثيقًا بهذا الاعتقاد[1].

إحتفظ علم الآثار، من بقايا مصر القديمة، بالشيء الكثير الذي يرتبط بالدين أكثر من ارتباطه بالحياة الدنيويّة. وهذه المادّة الدينيّة هي في الأعمّ الأغلب جنائزيّة الطابع، وقد لفت باحثون إلى أنّه إذا ورد إلى أذهاننا قبل أيّ شيء آخر: المقابر، والأهرامات، والمومياوات، ونحن نفكّر في هذه الحضارة، فلا بدّ أن نتذكّر أنّ هناك تأكيدًا ليس في محلّه قد نتج بالضرورة عن طبيعة المادّة المتاحة لنا، فمعظم المدن الكبيرة، والقصور، والمدن الصغيرة، والقرى لا يسهل الوصول إليها في عمليّات التنقيب؛ لأنّها شُيّدت في عصور ماضية متأخّرة، وفضلاً عن ذلك فإنّ المادّة التي استخدمها المصريون القدماء

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٧٨ ـ ٧٩.

في إقامة مبانيهم هي في الغالب أرقّ كثيرًا من المواد المستخدمة في تشييد القبور. فقد شُيّدت القبور في الصحراء بعيدًا عن المناطق الآهلة بالسكّان، وبعيدًا عن الأرض الزراعيّة؛ ولهذا كانت فرص بقاء المباني الجنائزيّة على الدوام أكبر بكثير، بغضّ النظر طبعًا عن خطر لصوص المقابر. أمّا أنّ المصريّين قد استهدفوا الدوام لقبورهم، فهذا ما تكشف عنه عبارة "دار الخلود" التي تُستخدم كثيرًا للدلالة على القبر[١].

منذ كشفت الحفريّات عن أقدم جبّانات مصر، تبيّن أنّ الدفن في تلك البلاد التي غالت في الاحتفال بموتاها، كان بسيطًا جدًّا. فكانت الجثّة توضع في حفرة صغيرة بحيث ترقد على جانبها الأيسر على هيئة القرفصاء والركبتان مثنيّتان، وكان التلف يصيب الجثّة التي لا يبقى منها سوى بعض العظام المتناثرة. وقد احتفظت مصر، في ما بعد، بذكرى هذه الطريقة القديمة للدفن، إذ ظلّ يُرجى للميت أن تلتئم أعضاؤه من جديد وأن يلتحق رأسه بعظامه ثانية. ومن بعض قبور العصر السحيق ما يدلّ فيه الدفن على عناية بيّنة بحفظ الجثث، التي وإن هي تحتفظ بوضع القرفصاء، فقد كان يُخاط عليها جلد أو حصير، أو كانت تودع في قدرَين كبيرَين، ولكنّها كانت تكتسب من الأرض الجافّة يبوسة تغدو معها كمومياء طبيعيّة. وهناك المدافن التي كانت تشبه بئرًا في الصخر غير عميقة، تتّصل بقاعها غرفة صغيرة، كانت تُسدّ فتحتها بالبناء، فإذا رُدمت هذه البئر، ثمّ جُمع من فوقها كومة من الحجر، كان في ذلك ما يحمي الجثّة من اللصوص وبنات آوى.

وإذ فُطر الإنسان على ألاّ يترك أهله وأقرباءه الذين أحبّهم وكرّمهم في الحياة دون رعاية بعد الموت، تصوّر أنّ الموتى لا يستغنون عن الأمور التي اعتادوا عليها في

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٦١.

حياتهم، لذلك لم يفت المصريّين تزويد الموتى بما يلزم من أثاث جنازيّ، لذا كان يوضع، إلى جانب الميت، الطعام والشراب حتّى لا يجوع ولا يعطش، والخطاطيف والنصال الحجريّة ليحمي نفسه من الأعداء، ورقعة اللعب ليسلّي نفسه، إلى ما هناك من الحاجيات الغريبة التي وصلت إلى حد ترك قارب صغير من صلصال يمكّن الميت من عبور المياه التي تحيط بحقول الأبرار في السماء. ويبدو أنّ تلك التماثيل التي اكتُشفت في المدافن، وهي تمثّل النساء الجاثيات، إنّما كانت لتمنح سيّدها ملذّات الهوى والحبّ، ولهذا لُوّنت بألوان مختلفة جميلة، وغلظت لديها الأفخاذ والأعجاز، ولا يزال يُعتبر ذلك حتّى اليوم عند سكّان أفريقيا ذروة الجمال في النساء.

وفي ما يخصّ طعام الميت كان المصريّون يسمّون مثل هذا القربان الجنازيّ، "الخروج على الصوت" لأنّ صوت الإنسان الحيّ هو الذي يستدعي الميت من القبر. وكان القيام بها من واجب الأبناء البررة، فإنّ الإبن "يزرع الشعير، ويزرع القمح ليهديهما إلى الأب"[١]. فإذا قُدّم للأبوَين القربان فإنّهما يجلسان في سرور إلى مائدة الطعام على نحو ما كانا يفعلان من قبل في الحياة[٢].

تَحنيط

المَيتِ

لقد كان المصريّون من أقدم الشعوب التي آمنت بأنّ للإنسان حياة ثانية في هذا الكون، وأنّ الروح باقية إلى أن تعود إلى أجسادها فيستأنف الميت حياته من جديد. وكان تقديرهم للمدّة الزمنيّة الواقعة بين حدوث الموت وعودة الروح ثانية إلى الجسم

---

١ ـ متون الأهرام، فقرة ٧٦١.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٣٣٠ ـ ٣٣٤.

بحوالى ثلاثة آلاف سنة. ولم يكن هذا التجسّد في الروح مرتبطًا بحياة صاحبها السابقة، أو مرتبطًا بفكرة الثواب والعقاب، بل هو حياة ثانية توهب للمتوفّي ليعود إلى الحياة يحاسب أمام الآلهة لتقضي له أو عليه. وبعد أن تستنفد الروح أغراضها في رحلة العلم والمعرفة تعود إلى جسدها لتحلّ فيه ثانية، فإذا وجدته قد تحلّل واندثر، ولم تستطع التلبّس به، انصرفت عنه لتحلّ في مولود جديد لتستأنف به حياة أرضيّة جديدة، وإذا وجدته محنّطًا بكيانه حلّت فيه ثانية، وهذا ما يفسّر عادة تحنيط جسد الميت عندهم ليتاح لصاحبه العودة ثانيةً إلى الحياة حين تعود الروح إلى زيارته لاحقًا[١].

وإذ اعتقد المصريون بأهميّة الاحتفاظ بالجسد نفسه، ساعدهم على ذلك جفاف التربة في الأماكن الصحراويّة لدفن الموتى، وقد كان الأسلوب المتقن في عمليّة التحنيط يستلزم إزالة المخّ والأمعاء، كما يستلزم أحيانًا في حالة الذكور إزالة الأعضاء الجنسيّة. ثمّ يوضع على الجسم من الخارج النطرون، أو الصوديوم الطبيعيّ، ثم يُحشى مزيج من النطرون والتوابل والزيت في التجاويف التي أحدثها تفريغ الأمعاء، وتملأ الفراغات بعد ذلك بحشوة من الكتّان، وتوضع التوابل الحارّة والزيوت على الجسم من الخارج أيضًا، ثم يُلفّ بأربطة من الكتّان قبل وضعه في التابوت. ويُحتفظ كذلك بالأعضاء التي أزيلت من الجثة، فيحتفظ بالأحشاء في أربعة قدور صغيرة قيل إنّ أربعة من أبناء حورس يقومون على حمايتها، ويبدو أنّ عملية تحنيط الجسد كلّه، من الناحية العقائديّة، هي محاكاة ضمنيّة لما حدث في الأسطورة لأوزيريس على يد أنوبيس في أبيدوس. فقد كان أنوبيس، وهو الابن الرابع للإله رع، إلهًا للدفن منذ عهد الدولة القديمة، وقد احتلّ هذه المكانة لأنّ والده "رع" أرسله من السماء ليدفن أوزيريس

---

١ ـ الدسوقي، الحياة بعد الموت، ص٥١.

بعد أن قتله أخوه ست، فجمع أنوبيس أشلاء الإله الذي لم يبق منهـا سوى العظـام، ثم طواها في لفائف وأتمّ كل المراسيم التي أصبحت في ما بعد نموذجًا يحتذيه المصريّون، ممّا يعني أنّ الشخص المتوفّي قد اتّحد مع أوزيريس. وتوضع بعض التمائم عادة داخل أربطة المومياء. كما يُعنى عناية خاصّة بجعران القلب الذي يوضع على الصدر. ومن الواضح أنّ المصريين كانوا ينظرون إلى القلب على أنّه أداة للفهم الروحيّ؛ ولهذا لا يزيلونه كما يفعلون مع الأعضاء الداخليّة. ويُكتب في العادة على الجعران نصٌّ قصير يناشد القلب ألاّ يشهد على الميت أثناء محاكمته أمام أوزيريس[١]. وقد حفظ لنا "كتاب الموتى" أورادًا كانت تُكتب على قرطاس من البردى توضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة[٢].

كُتُبُ

الأورَاد

قسّم الباحثون تلك الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة، وذلك بالنسبة لعهد كلّ منها وأسلوب كتابتها، وهي "متون الأهرام"، و"متون التوابيت"، و"كتاب الموتى". فـ"متون الأهرام" قد اكتُشفت في مقابر ملوك الأسرتَين الخامسة والسادسة سنة ١٨٨٠، ونشرها "ماسيرو" عام ١٨٨٢، ومعها ترجمة تدلّ على نبوغ كبير؛ و"متون التوابيت" تعود إلى الحقبة التي تلت انهيار الدولة القديمة حتّى نهاية الدولة الوسطى، وكانت تُكتب على الجدران الداخليّة لكثير من التوابيت التي كانت تُصنَعُ عادة من الخشب، ومنذ بداية الدولة الحديثة أصبح من المألوف تقديم الفوائد التي تتضمّنها هذه الكتابات إلى الميت

---

١ ـ بارنارد، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٧٧ ـ ٧٨.

٢ ـ راجع: كتاب الموتى، نشر نافيل ٨: ١٧٠.

في صورة مختلفة تمام الاختلاف، وكانت نصوصها ومتونها تُكتَب على أوراق البردى ثم تودع القبر مع المتوفّى[1]؛ أمّا "كتاب الموتى"، فهو كناية عن أوراد كانت تُكتب على قرطاس من البردى توضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة. ومع أنّ "متون التوابيت" و"كتاب الموتى" يتضمّنان كثيرًا من الأوراد التي يرجع عهدها إلى أقدم العصور، إلاّ أنّ "متون الأهرام" هي التي احتفظت بالطابع الأصليّ في أصدق صوره. وإليها يجب الاتّجاه لمعرفة أفكار المصريّين في أقدم عصورهم عن الموتى وعن مصائرهم. وبالرغم من هذا فإنّ "متون الأهرام" لا تتضمّن الأجوبة على كثير من التساؤلات، لأنّ الأوراد التي تتألّف منها وهي أكثر من ٧٠٠، قد نشأت في مناطق مختلفة من مصر وترجع إلى عصور مختلفة جدًّا، ويبدو أنّ معظم هذه الأوراد قد نشأ في ذلك العهد السحيق الذي كانت فيه مصر لا تزال تتألّف من مملكتَين منفصلتَين، وخاصّة تلك الأوراد التي يُعتبر فيها الوجه البحريّ بلادًا معادية؛ ومنها ما نشأ في الدلتا، وفي هليوبوليس. ويشتمل الورد الواحد على موضوعات غير متجانسة، لأنّ الكهنة الذي كانوا يرتّلون الأوراد عند المقابر، كانوا يستعينون بالذاكرة بحيث يجمعون بمحض اختيارهم بين الآيات والعبارات التي تجري بها ألسنتهم في سهولة كبيرة، ولم يكن من المهمّ أن تكون الآيات متجانسة في موضوعاتها، طالما هي، في مجموعها، تتحدّث عن أشياء متشابهة؛ وغاية ما كان يُعنى به هو أن تُتلى بجمال ورنين وموسيقى. ولم يكن ممّا يعيب أنّ كثيرًا من هذه الأوراد المختارة ليست معدّة في الأصل للموتى، فمن الأوراد ما يتعلّق بملك حيّ أو بمدى سلطانه، ومنها ما يبدو أنّه يختصّ بمدينة شيّدها الملك؛ ومنها أوراد ضدّ السباع التي لم يكن على الميت ألاّ يخشى بأسها، غير أنّها ضلّت طريقها بين عزائم السحر ضدّ الأفاعي التي ربّما كان

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٣.

للميت أن يخشاها في قبره. وتدور الأوراد في متون الأهرام في مجموعها حول الملك المتوفّى الذي ينبغي أن تعنى الآلهة بشخصه المقدّس بعد موته؛ على أنّ من بينها كذلك أورادًا كثيرة تدلّ في الأصل على مصير أكثر تواضعًا، فهي تتضمّن ما يفيد بأنّ الميت يرقد في الأرض والتراب أو في الرمل، أي أنّه ليس قبر من اللِين على نحو ما كان للملوك القدامى وغيرهم من الأشراف. وهناك ورد يُمتدح فيه الميت بأنّه لم يذنب في حقّ الملك أبدًا، وبهذا لا يمكن أن يكون الميت نفسه هو الملك. وفي ما عدا ذلك، لقد حُرّفت متون الأهرام في بعض أجزائها بسبب ميول وأغراض خاصّة. فقد أخذ أوزيريس مكانة إله الشمس وإلهة السماء، وقد كانا من آلهة الموتى الأقدمين. ومع هذه الصعاب جميعًا، فإنّ الأوراد الجنائزيّة القديمة لا تكشف إلاّ عن القليل من التصوّرات الأولى، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك، لأنّ أقدم ما نعرف من أوراد يرجع إلى عهد ذي حضارة معيّنة[1].

إختِـــرَاعُ الكِتَابـــَة
فِي خِدمَةِ الجنائزِيّة

كان اختراع الكتابة الهيروغليفيّة جزءًا هامًّا من التقدّم الذي تمّ مع بداية العصر التاريخيّ (٣٠٠٠ ق.م)، وتمثّل ألواح "مينا" أو "تامر" مرحلة أوّليّة في الكتابة الهيروغليفيّة. فقد نظر المصريّون إلى الإله تحوت كاتب الآلهة على أنّه مخترع الكتابة، لكنّهم ربطوا بين وظيفته ووظيفة زميلته الإلهة "سشات SESHAT" التي كانت تقاسمه وظيفته ككاتب وعالم، وهي الكاتبة وسيّدة دور الكتب ـ أي المكتبات ـ وكانت هي الإلهة الأولى التي كتبت. وقد كانت في الأصل هي الإلهة "تفتيس" ووظيفتها أن

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٨٤ ـ ٢٨٨.

تسجّل أعمال الملوك وتنقش أسماءهم على شجرة في معبد هليوبوليس، بينما يقوم تحوت بتسجيل سنيّ كلّ ملك على غصن طويل، وقد عُهد إليها بأرشيف الحوليّات الملكيّة. ولا شكّ في أنّ الكتابة كانت دائمًا هامّة في الطقوس الدينيّة، ولقد اعتقد المصريّون أنّ دورها يجاوز الأغراض المباشرة للتسجيل والتوصيل. ويمكن أن نتبيّن، في هذا المجال، تطوّرًا فعليًا في الدولة القديمة، فلا شكّ في أن التعاويذ كانت تُتلى في أقدم المعابد والقبور، ومن المرجّح أنّ الكهنة كانوا يقرأون من نصوصٍ مكتوبة على أوراق البردى، كما احتفظت النقوش المنحوتة على الحجر بأسماء الأشخاص الذين دُفنوا في المقبرة، ثم أُضيِفَتْ بعض التعاويذ التي تضمن استمرار تقديم القرابين، مثلما تضمن الهناء أو السعادة الأبديّة للمتوفّى، ويمكن أن نفترض أنّ هذه النقوش لم تكن مجرّد تسجيل لآمال ورعة، غير أنّهم آمنوا بأنّها تكفل بحضورها الدائم البقاء السحريّ للبركات الروحيّة والبدنيّة المذكورة. ثمّ حدث توسّع ملحوظ في استخدام مثل هذه النقوش في أهرامات الأسرة الخامسة والسادسة في "سقارة"، وكان أقدمها هرم الملك "ونيس WENIS" (حوالى ٢٣٥٠ ق.م) حيث تُغَطَّى جدران غرف الدفن والممرّات المؤدّية إليها بالنصوص الهيروغليفيّة التي تتحدّث عن الحياة المقبلة للملك، وتتضمّن شواهد لها أهميّتها في اللاهوت والطقوس والأساطير، وتُسمّى هذه الكتابات "متون الأهرام"، وهي تشكّل أقدم مجموعة كاملة تتعلّق بالديانة المصريّة، وكان أثرها على الكتابات التالية عميقًا، لأنّ مضمونها يتكرّر كثيرًا في النصوص الجنائزيّة، وبصفة خاصّة في "متون التوابيت" و "كتاب الموتى"[1]، وهكذا أصبح كثير من الأدب الدينيّ في مصر القديمة أدبًا جنائزيّ الطابع.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٢ ـ ٦٣.

الـ"كــا"

والـ"بـا"

كان المصريّون يعتقدون أنّ الموتى يقيمون في مقابرهم أو فـي عـالم خـاصّ بهـم، وكان موتهم يفسّـر بـأنّ قـوّة خاصـّة كـانت تلازمهـم فـي حيـاتهم، وتُسمّى الـ"كـا"، قـد هجرتهم. فإنّ الإنسان، بحسب معتقدهم، كان يستقبل هذه الـ"كا" عند مولده، وذلك بـأمر من الإله "رع"، وما دامت هذه الـ"كا" معه وهو مالكها، فهو حيّ يُرزق. ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الـ"كا"، فالمعتقد أنّهـا تشـبه صاحبهـا تمامًـا. وقـد ورد فـي "متـون الأهرام" أنّه عندما خلـق إلـه الشـمس فـي بدايـة نشـأته أوّل إلهَيـن، وذلـك بـأن تفلهمـا، ففاضت عليهما الـ"كا" التي كانت له، ودبّـت فيهمـا الحيـاة. فـإذا مـات الإنسـان هجرتـه الـ"كا"، على أنّه يُرجى منها أن تظلّ معنيّة بالجسد الذي سكنته أمدًا طويـلاً، وأن تكـون إلى جانب الميت من وقت إلى آخـر علـى الأقلّ، وأن تبـادر إلـى مسـاندته إذا دعاهـا، وتساعده على الفرار مـن الآلهـة القسـاة والمسلّحين بالخنـاجر، وعلـى الانتصـار علـى التجارب التي تواجهه، وعلى اكتشاف الحيَل[1]. ولذا كان يُنعت القبر بأنّـه دار الــ"كـا"، كما كانت تُقدّم الأطعمة وفقًا لصيغة القربان الشائعة إلى "كـا" الميـت. وقـد طفقـت تلـك الفكرة الغامضة عن الـ"كا" تتطوّر في ما بعـد، فكـانت الــ"كـا" تُعتبر تـارة كأنّهـا كـائن إلهيّ، كما يدلّ على ذلك رسم لفظها في اللغة المصريّـة القديمـة، وتـارة كأنّهـا المـلاك الحارس، الذي يهتمّ بالإنسـان ويُعنـى بـأمره، وتـارة كـانت هـي التـي تلـد الإبـن، وفـي أحيـان أخـرى كـانت الــ"كـا" الحيّـة تعبيرًا يوصـف بـه النـاس الأحيـاء، وتـارة أخـرى كانت تعبّر عن قـوى الحيـاة، أي عن الأطعمـة، أو كـانت سـائر النعم التـي يتصـرّف

---

١ ـ الدسوقي، الحياة بعد الموت، ص١٩.

فيها إله الشمس. وفضلاً عن ذلك كان لفظ الـ"كا" يُحشر بكثرة في مختلف التراكيب والجمل[1].

وإلى جانب هذه الـ"كا"، فكّر المصريّون بالنفس، وكانوا يسمّونها الـ"با BA"، وتصوّروها في مختلف الأشكال، بل كان تصوّرهم يتضمّن إمكان تحوّلها إلى أشكال مختلفة، بحيث تستطيع أن تغادر قبرها وقتما تشاء. ولأنّها كانت تترك الجسد عند الموت وتتفلت منه، فقد تخيّلوها كأنّها طائر. وربّما تمثّلوا الميت المبكيّ عليه بين الطيور التي تستقرّ على الأشجار التي غرسها بنفسه من قبل. وقد تخيّل آخرون الـ"با" زهرة اللوتس التي تتفتّح أكمامها وهي تطفو فوق سطح البحيرة أثناء الليل. وفكّر غيرهم في الثعبان الذي يندفع من جحره في غموض كأنّه "ابن الأرض"، أو في التمساح الذي يزحف من الماء إلى الأرض كأنّه ينتمي حقًّا إلى عالم الأرض[2]. وذكر باحثون أنّه إضافة إلى الـ"كا"، وإلى الـ"با" التي هي "النفس"، كان المصريّون يعتقدون بوجود عنصر روحيّ ثالث في الإنسان، هو الـ"أخ AKH"، أي "الروح"[3].

مكَان وُجُود

عَالَم المَوتَى

وتساءل العديد عن مكان وجود عالم الموتى. وبما أنّ الشمس كانت تغيب كلّ مساء في الغرب لتبدو من جديد في الشرق مع الصباح، فلا بدّ أن تكون قد جابت في الليل عالمًا سفليًا، أي سماء ثالثة في أسفل الأرض، لذلك كان من اليسر الادّعاء بأنّ

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٨٨ ـ ٢٩٠.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠؛ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٨٠.

٣ ـ الدسوقي، الحياة بعد الموت، ص١٨.

هذا العالم الذي لا يدخله الأحياء هو عالم الموتى. وعلى ما نحو ما تصنع الشمس ذهب الظنّ إلى أنّ الموتى يهبطون في الغرب ويعيشون في عالم مظلم، لا يتألّق فيه نور، إلاّ إذا مضت من فوقهم الشمس في رحلتها بالليل. وقد شاع هذا التصوّر بين المصريّين في وقت مبكّر، وأدّى إلى تسمية عالم الموتى باسم "الغرب" وتسمية الموتى "بأهل الغرب". وقد تصوّروا أحد آلهة الموتى القديمة حاكمًا على الغرب، وهو "أوّل أهل الغرب".

ونظر المصريّون إلى العدد الهائل من النجوم التي تجوب السماء والتي يعرفون منها بعضها الذي كان ذا وقع خاصّ في نفوسهم، كالشعرى اليمانيّة، والجبّار، ونجمة الصباح، فرأى البعض أنّها آلهة تركت الأرض على نحو ما فعل إله الشمس. أمّا النجوم العديدة الصغيرة فرأوا أنّها أرواح سعيدة لبعض الموتى، وجدت طريقها إلى السماء حيث ظلّت في سناء دائم إلى جانب الآلهة. لقد مدّ إليهم يده "الإله العظيم سيّد السماء"، أي الإله رع، أو لقد أخذتهم إليها إلهة السماء ونظّمتهم بين "ما لا يفنى" من نجوم جسدها، وقد يتمثّل الميت في شكل "ذلك النجم الوحيد الذي يشرق في الجانب الشرقيّ من السماء" بين ما لا يفنى، والذي يجوب السماء في صحبة الجبّار والشعرى اليمانيّة. ولعلّ المصريّين قد قصدوا بذلك منطقة القطب الشماليّ الواقعة في الشمال الشرقيّ، والتي يمكن اعتبار نجومها ممّا "لا يفنى" حقًّا، لأنّها لا تختفي كغيرها من السماء.

وتصوّر الشعب أنّ مقرّ الأبرار كأنّه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه المختلفة؛ ومن السهل أن يتصوّر الإنسان أنّ نهر المجرّة الباهت اللون، الذي تحيط شعابه مساحات قاتمة، هو الذي أوحى بهذا التصوّر. وتُسمّى إحدى هذه الجزر "حقل الأطعمة"، وهي بهذا الإسم تدلّ على أنّ الطعام فيها وفير، ومن ثمّ يستقرّ فيها الآلهة

والمخلّدون. وأزكى منه شهرة هو "حقل يـارو" وهـو حقـل "الأسـل" الـذي ظـلّ المصريّون، حتّى عصورهم المتأخّرة، يعتبرونه مقرّ الممجّدين. وقد تصوّر المصريّون هاتَين الجنّتَين على شاكلة بلادهم نفسها، إذ يغمرها الفيضان ويزدهـر فيهـا الـزرع بمـا يوفّر للموتى طعامهم، وذلـك لأنّ الآلهـة والممجّدين فـي السماء لا يستطيعون كذلك الحياة بغير طعام. وتذكر "متون الأهرام" أنّ فـي الشرق مـن السماء "شجرة الجمّيز السامقة، التي تجلس عليها الآلهة، وهي شجرة الحياة التي يعيشون عليها" والتـي يغذّي ثمرها الأبرار أيضًا[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٢٩١ ـ ٢٩٧.

الفَصلُ الرَّابع

الثَّورَةُ الدِّينيَّةَ وتَداعِيَاتُها

ثَورَةَ أخنَاتُون الدينيَّةَ وفشَلُها؛

عَصـــر الهَرطَقَة !؛ سقوط العَقِيدَة؛

نهايــة الدَولة الحَديثة؛

المَسيحِيَّة في مصْر

ثورة أخناتون الدينيّة وفشلها

مع تكاثر عدد الآلهة والمعتقدات عند المصريّين بشكل يفوق التعداد، من هنا بدأت تظهر بوادر الثورة الدينيّة في مصر في عهد أمنحوتب الرابع (حوالى ١٣٦٩ ـ ١٣٥٣ ق.م.) الذي غيّر اسمه إلى "أخناتون"، تكريمًا لإلهه الأعظم "أتون"، أي قرص الشمس. ولم يكتف بتغيير اسمه، بل إنّه أحدث ثورة دينيّة في مصر وحاول فرض عبادة الإله الواحد، ونقل عاصمته من طيبة، مقرّ عبادة الإله الوطنيّ أمون شمالاً، إلى مكان سمّاه "أخيتاتون"، وهي المعروفة حاليًّا بتلّ العمارنة، حيث عثرت امرأة مصريّة فلاّحة في خرائب قصور هذه المدينة القديمة سنة ١٨٨٧ على كنز تاريخيّ عظيم القيمة. وكان هذا الكنز كناية عمّا يقارب من ٣٠٠ آجرّة عليها كتابة بالخطّ المسماريّ محفوظة في أرشيف أخناتون وأبيه أمنحوتب الثالث. وقد كانت هذه الآجرات رسائل وجّهها ملوك المدن الكنعانيّة وأمراؤها إلى الملكين، وكانت تحتوي على معلومات هامّة عن حالة هذه المنطقة في تلك الحقبة[1].

كان أمنحوتب الرابع عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وثاني أبناء أمنحوتب الثالث، وأوّل من نادى بوحدانيّة الله، الذي يراه في قرص الشمس ولا يشرك به أحدًا. وكان احتفال أمنحوتب الرابع بالجلوس على العرش في "أرمنت" أقدم عواصم إقليم طيبة. ثمّ أخذ يمهّد لإعلان مذهبه، فبنى لربّه معبدًا في ديار الكرنك أسماه معبد "رع ـ

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٩٨.

حمور ـ اختي" أي "معبد رع ربّ المشرق والمغرب". كما بنى لنفسه قصرًا أسماه "مبتهج الأفق". وبدأ الدعوة للإله الواحد[1].

يجدر التقديم لثورة أخناتون الدينيّة بأنّ الكهنة وعامّة الشعب في مصر كانوا قد تمسكوا باستمرار بذلك الخليط من العقائد والعادات، والحقّ أنّ الخاصّة من المفكّرين ما كانوا يرتضون بذلك، بل لعلّهم أحسّوا الحاجة إلى دين واضح مريح، يُعلي من شأن الحقيقة والواقع، ويتحرّر من ربقة التقاليد البالية، ويشمل سلطانه الكون الفسيح، وترضى به الشعوب على اختلافها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا شكّ في أنّ النظرة إلى إله الشمس كان لا بدّ أن تبرز من جديد، فهو إله واضح، عبادته بعيدة عن الغموض والأسرار والظلام والخداع، والرضى به يمكن أن يشمل كلّ الشعوب التي ترى مظهره وقوّته وتلمس أثره وسلطانه. لذلك فهو أحرى الآلهة جميعًا بالعبادة، وهو أحقّ المعبودات ليكون إلهًا عامًّا للأمبراطوريّة في كافّة أنحائها. على أنّ إله الشمس اتّخذ هذه المرّة اسمًا جديدًا هو "أتون". ولم يكن هذا الإسم مجهولاً من قبل، ولكن لم تكن له قداسة أو صفة دينيّة، إذ كان المصريّون يقصدون به قرص الشمس التي لم يكونوا يتعبّدون لها ولكن يرون أنّها مقرّ الآلهة[2]. وفي عهد أمنحوتب الثالث (١٣٩٨ ـ ١٣٦٩ ق.م) ارتسم اتّجاه أكثر وضوحًا، فأصبح أتون إسمًا لإله انتظمت عبادته، مع ما تستلزم من كهنة ومعابد[3]، ثمّ أصبح دين أتون هو الدين الرسميّ للأمبراطوريّة، وكان صاحب هذا الهدف وتلك الأفكار هو الفرعون نفسه أمنحوتب الرابع، الذي تسمّى بعد ذلك بأخناتون، أي "خادم أتون"[4].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٩٥.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٤٧ ـ ٤٨.

٣ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٩٦. ٤ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٤٧ ـ ٤٨.

كان من الضروريّ أن تقوم ثورة تحدّ من الأخطار التي تهدّد الملكيّة التي أسبغت الثروات والامتيازات على كهنة معبد طيبة. وعندما دقّت الساعة لبداية الإصلاح الجذريّ، ارتدى هذا الإصلاح، بشكل غريب، صفة ثورة لاهوتيّة يلازمها اسم الفرعون أمنحوتب الرابع. وكان من بين أهداف الثورة: الحرص على تحرير الملكيّة من نير وصاية الكهنوت الأمونيّ الثقيل، والتصميم الثابت، بالرغم من الغموض الذي يحفّ به ومن مساعي بعض المؤرّخين، على إيجاد توافق دينيّ بين مصر وبين البلدان التي احتلّتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة: النوبة وسوريا. وأخيرًا المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدّد والتي بلغت حدّ المؤامرة، لا بل حدّ التمرّد العلنيّ، فأخذ تصلّبه يتضاعف بشدّة. وتطوّر هذا المذهب الجديد باتّجاه نوع من الحصريّة، جديد في تاريخ مصر الدينيّ[1].

ويلخّص بلاكمان عقيدة أخناتون الدينيّة عندما يقول: "يمكننا أن ندرك أنّ التفكير الدينيّ في المدّة السابقة لحكم أخناتون تميل إلى الوحدانيّة. ولكنّه كان من الضروريّ أن نتقدّم إلى هذه الناحية خطوة أو خطوتَين لنصل إلى التوحيد الحقيقيّ. وهذا هو ما فعله أخناتون حين أكّد، بل قطع نهائيًّا، بأنّ إله الشمس ليس الإله الأكبر والعالميّ فحسب، بل هو الإله الوحيد. وهو توكيد لم يضغط عليه مَن سبقه من المفكّرين الدينيّين، بل كان متشعّبًا ومبهمًا وكانت الإشارة إليه يحوطها الغموض والإبهام وعدم التحديد".

وقد زاد برستد تلك الفكرة وضوحًا حين قال: "إنّ ما كان يؤلّهه الملك هو القوّة التي جعلت من الشمس شيئًا يحسّ به على الأرض. ومهما كان واضحًا أنّ المصدر

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام،١: ٩٦.

الهليوبوليسيّ هو أصل الدين الجديد فإنّ العبادة لم تكن عبادة الشمس نفسها لأنّ كلمة "أتون" استُعملت بدلاً من الكلمة القديمة "إله". وكانت العقيدة في الإله أبعد من أن تكون الشمس العاديّة. وكان الملك، من غير شكّ، يؤلّه الضوء أو الحرارة الحيويّة حين أدرك أنّها تعجب الحياة كلّها".

وكرّس أخناتون حياته لعقيدته الدينيّة والدعوة لها. وانصرف إلى تحقيق أفكاره الدينيّة وشُغل بإعلان معتقداته والترويج لها وهداية شعبه إلى الحقيقة وإلى الدين الصحيح. وبدأ بإقامة معبد لأتون بالقرب من معبد آمون في طيبة، واتّخذ لإلهه الواحد صورة الإله "حوراختي" الذي كان يمثّل بجسم إنسان ورأس صقر يعلوها قرص الشمس. على أنّه لم يلبث أن اهتدى إلى رمز جديد لإلهه قبل هجرة البلاط إلى أخيتاتون، ومعناها "أفق أتون". وكان الرمز الجديد على صورة قرص الشمس، بأسفله الصلّ متدلّيًا وتنزل من القرص أشعّة تنتهي بأيدٍ بشريّة تمسك بعلامة "عنخ" كأنّها تهب الحياة إلى المتعبّدين. وكان الصلّ يرتفع أحيانًا من قاعدة القرص إلى ناحية المركز. وربّما كان ذلك إحياء لمعنى أنّ الإله الجديد لم يكن إلهًا عالميًّا فحسب، بل ملكًا عالميًّا كذلك. لقد كان الرمز رمزًا متسيّدًا معناه قوّة تخرج من فيضه السماويّ وتبسط يدها على العالم وأعمال الناس[1]. وهكذا نرى أنّ الإله يعمل وحده دون آلهة وسطاء، ليس له عائلة أو حاشية، كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزّع القوّة الحيويّة اليوميّة على كلّ الموجودات التي تتجدّد ولادتها، بفضل ذلك، مع كلّ فجر[2].

كان خروج الملك بهذا الدين الجديد ضربة عنيفة لكهنة آمون أصحاب النفوذ الرئيسيّ في طيبة، فما كانوا ليرضوا أن يشغل ذلك الإله الطارئ الملك عن إلههم،

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٤٩.

٢ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٩٧.

وأن يضيع ما كسبوه من مركز وسلطان. وكان لا بدّ لأخناتون أن يقضي على هذه المعارضة وأن يمحو العبادات المختلفة إذا أراد لإلهه القوّة والسلطان، وأن تتحقّق الوحدانيّة التي كان يدعو إليها. لذلك لم يلبث أن أعلن على المعبودات القديمة وخاصّة آمون، حربًا ضارية. فأرسل جنوده وأتباعه يمحون أسماء الآلهة وصورها من على الآثار القائمة، ويهشّمون تماثيلها في المعابد. وقرّر أخناتون أن يترك طيبة ويبني عاصمة جديدة في مكان لم تدنّسه عبادة أيّ إله من قبل. وهكذا انتقل إلى تلّ العمارنة حيث أقام عاصمته "أخيتاتون". وهناك أُتيحت الفرصة للديانة الجديدة أن تستكمل خصائصها دون معوقات من تقاليد وآثار قديمة. وراح أخناتون يصوغ من الأناشيد ما يشيد فيه في حماس شديد بنعيم الإله الواحد على الكائنات المختلفة من إنسان وحيوان ونبات، وما يفيضه عليها جميعًا من قوى وحياة. إلاّ أنّه لم يقدَّر لهذا الدين الجديد البقاء، فقد كانت العبادات القديمة أشدّ رسوخًا في البلاد من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصّل جذورها، تقوم بها أقليّة من المفكّرين وإنْ تزعّمها ملك. وكان رجال الدين، وخاصّة كهنة آمون، قوّة تعتمد على مشاعر العامّة وتمسكهم بتقاليدهم، ولذلك لم يكن من السهل التغلّب عليها، بل كان الأسهل أن ينقضّ الكهنة على الدين الجديد، وأن تنجح المؤامرات في آخر الأمر، في القضاء على دين التوحيد الذي جاء به أخناتون، وأن تتحطّم مع حطام مدينة أخيتاتون دعوة الإله الواحد في مصر القديمة، قبل ظهور ديانات السماء بعشرات كثيرة من السنين[١].

لم تكن أسباب فشل المذهب الجديد سوى أسباب بشريّة. فبوسعنا أن نتراءى مثلاً عداء أولئك الذين لحق الأذى بمصالحهم بعد أن كانوا ينعمون بالعيش في المعابد. كما

---

١ ـ مظهر، قصة الديانات، ص٤٩ ـ ٥٥.

أنّ الملك، بانصرافه كليًّا إلى الأمور الدينيّة، قد أهمل ممتلكات مصر في آسيا إبّان تعرّضها للمزيد من الأخطار. وما من ريب في أنّ أخناتون نفسه أخذ يتراجع شيئًا فشيئًا. وعند وفاته، بعد ولاية دامت عشرين عامًا، انهار مشروعه انهيارًا سريعًا. أمّا خلفاؤه الأوّلون، وبينهم "توت عنخ أتون"، ومعنى اسمه "صورة أتون الحيّة"، فقد اكتفوا بإجراءات تسكينيّة. غير أنّ جلوس "حورمحيب" على العرش، بمساعدة كهنة طيبة، قد كرّس نهائيًّا انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة. فاستهدف الاضطهاد أخناتون وإلهه في صورهما وفي كلّ كتابة ورد فيها اسمهما. وصُبّت اللعنة على عاصمته التي ما كانت لتعرف الشهرة، باسم تلّ العمارنة، لولا الاكتشافات الأثريّة. وعاد آمون وأصبح إله السلالة المالكة، واستعاد ووطّد سيطرته على مصر وعلى الحكومة. فعرفت عبادته ازدهارًا بعيدًا لم تعرفه قبل الثورة، وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتّعوا بسلطة نافذة. ولم يضع حدًّا لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكيّة إلى الدلتا والاحتلال الأجنبيّ في نهاية المطاف[1].

على الرّغم ممّا يذهب إليه بعض الباحثين من أنّ الوحدانيّة البدائيّة قد ظهرت في الديانة المصريّة، والحجّة الرئيسيّة التي يقدّمها هؤلاء هي أنّ لقب "ور WR" ومعناه "الواحد العظيم" قد لُقّب به بعض الآلهة، فإنّ ما يظهر بالفعل، وعلى نحو مألوف، بحسب باحثين آخرين[2]، هو تعدّد الآلهة، ويقول هؤلاء: نحن لا ننكر أنّه قد ظهرت في عهد "أمنحوتب الرابع" أو "أخناتون" صورة من الوحدانيّة الحقّة، وكانت على الأرجح بقيادة الفرعون نفسه، كما كشفت الأبحاث الحديثة عن عناصر متعدّدة في تعاليمه كانت قد ظهرت من قبل، إلاّ أنّ الوحدانيّة الصريحة كانت متميّزة للغاية في عقيدته النهائيّة،

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام، ١: ٩٨ ـ ٩٩.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٧٤.

وكان لا بدّ لها أن تكون قصيرة الأجل، كما لم تنجح الجهود التي بُذلت لبيان تأثيرها على ديانة العبرانيّين المبكّرة. ويرى هؤلاء الباحثون أنّه منذ الدولة الوسطى وما بعدها، أصبح التوحيد ميّزة يحصل عليها كلّ مَن مارس الطقوس الدينيّة المناسبة. وفي العهد الرومانيّ أصبح التوحيد مع أوزيريس يُعبّر عنه بتصوير المتوفّي، في بعض الأحيان، وهو يحمل صفات من أوزيريس. وقد أصبح عُرْفًا سائدًا أن يوضع اسم أوزيريس قبل اسم المتوفّى[1]. وممّا يبعث على الدهشة أنّ المصريّين قد تحدّثوا، إضافة إلى آلهتهم المعيّنة، عن "إله عام"، ويحدث ذلك عادة في الأدب عندما يفكّرون في تلك القوّة التي تتحكّم في مصائر الناس. فيقولون مثلاً: "ما يحدث هو أمر اللّه"، و"صائد الطيور يسعى ويكافح لكنّ اللّه لا يجعل النجاح من نصيبه"، و"ما تزرعه وما ينبت في الحقل هو عطيّة من عند اللّه"، و"مَن أحبّه اللّه وجبت عليه الطاعة"، و"اللّه يعرف أهل السوء"، و"إذا جاءتكم السعادة حقّ عليكم شكر اللّه"؛ وربّما كان المقصود باللّه في كلّ حالة من هذه الحالات على حدة هو "إله الشمس"، أو "الملك"... ولكن على العموم لا بدّ وأن تكون قد ساورتهم تلك الفكرة الغامضة عن اللّه وقدرته وجبروته. ويرى باحثون أنّ هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقّة، ولو أنّهم في الواقع تعلّقوا أيضًا بدينهم الموروث وبقوا عبّادًا أمناء لآلهتهم[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٨٠.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٩٧ ـ ٩٨.

عَصـــــر

الهَرطَقة!

لا ندري لماذا اعتبر الباحث والمؤرّخ المحدث أدولف إرمان ثورة أخناتون الدينيّة التوحيديّة "هرطقة"، ولعلّه اعتبرها كذلك نسبة إلـى الـتراث الدينـيّ المصـريّ، وليست هرطقة في المطلق. غير أنّنا سنعرض في ما يلي رؤية إرمـان مـن دون تصـرّف، وبذلك يكون بوسع القارئ أن يستنتج الأمر بحسب تقديره.

يعتبر أكثر المؤرّخين أنّ أمبراطوريّة مصـر الحديثـة كـانت قـد وصلت إلـى أوج عظمتها في عهد أمنوفيس أو أمنحوتب الثالث (١٣٩٨ ـ ١٣٦٩ ق.م) ففـي هـذا العهـد كانت مصر لا تزال تسبط نفوذها خارج حدودهـا. وكـانت حينـذاك الدولـة الأولـى فـي العالم. وأمّا في الداخل فقد كانت تتمتّع بثرائها وتنعم بالحضارة التي تجلب لهـا الـثراء. وكان الفنّ المصريّ في ذلك الوقت في أوج ازدهاره، ولم يوجد من قبل أو من بعد مـا يمكن أن يُقارن في بساطة جماله بمعبد الأقصر، ولم يسـتطع النحّـات منـذ ذلـك الوقـت بلوغ ما بلغ ذلك الفنّ من جمال ودقّة ومهارة عالية. ولكنّ عهد الإزدهار وفخامة وأبّهة ذلك العهد لم يخلُ من خطر الإنتكاس الذي يكون البطر مصدره، حين يزهد المرء فـي ما يملك ويتوق إلى إشباع نهمه بشيء جديد. ولذلك فنحن نستقبل فـي عصـر أمنوفيـس أشياء لا تمتّ بصلة إلى ما كان خاصًّا بمصر القديمة. وإذا كان الملك حتّى ذلك الوقت يُعتبر كنصف إله في المعابد، فإنّ النصف الإنسانيّ منه كثيرًا ما يتغلّب على النصـف الإلهيّ. ففي تسجيل للحوادث ذات الشأن في عصره نراه يقصّ لنا على جعـلان كبيـرة أنّه "قتل عشرة ومائة من الأسـود"، وأنّـه طـارد قطيعًـا مـن الأبقـار الوحشـيّة، واحتفر بحيرة كبيرة للملكة وافتتحها رسميًّا، كما أرسـل إليـه ملـك ميتـاني إحـدى بناتـه ومعهـا حاشية مكوّنة من ثلاثمائة وسبع عشـرة فتـاة، ولكنّـه يهمّـه، قبـل كـلّ شـيء" أن تذكره

الأجيال المقبلة أنّه وهو الملك العظيم قد تزوّج من "تي" إبنـة "يويـا" و"تويـا"، أي امرأة ليست من الدم الملكيّ، وبوسع المرء أن يدرك أنّ مثل هذه الحوادث لا تليق بالملكيّة المصريّة. وأنّ الملك الذي كان يحبّ أن يظهر بهذا المظهر الجديد كان في طريقه إلى أن يصير حاكمًا دنيويًّا كما كان جيرانه في بابل وميتاني[1]. والواقع أنّ أمينوفيس هذا، لم يكن صاحب حقّ في العرش، وإنّما احتال للوصول إليه بمعاونة الكهّان. وإذا كان عهده قد امتاز بالسلام والاستقرار والرخاء، فقد انصرف هو إلى حياة الترف واللهو، وأسرف إسرافًا شيّخه قبل الأوان حتّى غدا في أواخر أيّامه قعيدًا تدير دفّة السياسة الداخليّة والخارجيّة زوجته "تي" التي سوف يكون لها تأثير كبير على ابنها أخناتون[2].

من ناحية أخرى كانت كثيرًا من الأفكار قد بدأت تتخمّر في عقليّة الشعب المصريّ، لأنّ الثورة الدينيّة الكبرى التي اندلعت في عهد خلفه أخناتون، لا يمكن فهمها بخلاف ذلك. وكأنّ الناس يضيقون بالحياة في ظروف موروثة عن العهود السابقة والتي تظهر كأكاذيب لقوم أحسن استعدادًا. فلم يعد الناس يريدون الكتابة بلغة شاخت منذ أمد طويل، ولم يعودوا يريدون تصوير الناس على هيئة لطيفة بوجوه ذات ابتسامة محبّبة. فقد صاروا قادرين على تصوير تقاسيم الوجه على حقيقتها. وقبل كلّ شيء، كانوا قد ملّوا خدمة ديانة تجرّ وراءها أشياء لا تعني شيئًا لأناس يعقلون، هذه الطبقات المثقّفة التي حرّكت ثورة أخناتون، كان أفرادها يودّون عبادة وحبّ الآلهة التي يرونها ويحسّون بأفضالها، أي الشمس. فقد كان هذا الجيل يسير إذن نحو الحقيقة. وإنّ بناء معبد للشمس في الكرنك عند نهاية حكم أمنوفيس الثالث، يثبت إلى أيّ حدّ يرجع الاتّجاه الجديد إلى هذا العهد، ولا شكّ في أنّ هذه الحركة كانت عامّة،

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٦٠ ـ ١٦١.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٣١٩.

ولو أنّ العلماء كانوا في طريقهم إلى تنفيذها. وكلّ المفكّرين أيّدوا من غير شكّ وريث العرش الجديد حينما جرؤ عند اعتلائه العرش على بدء العهد الجديد. ولا يمكن تقدير الهوّة العميقة التي سيحفرها مثل هذا القرار[1].

وقد رأى باحثون[2] أنّ المميّزات لهذه العقيدة الجديدة، كانت في الصيغة التي عبّرت عنها بوضوح، وهي الإسم الغريب الذي أُعطي منذ ذلك الوقت إلى إله الشمس: "يعيش حوراختى"، الذي يتهلّل في الأفق، في إسمه "شو" الذي هو "أتون ـ الشمس"، واسمه موضوع على هيئة اعتراف بالمعتقد الذي لم يكن يعني شيئًا في واقع الأمر بالنسبة للرجل العاديّ. وكان يجب أن يكون الإله أقرب إلى أذهان الشعب، فلا يمثّل إله الشمس كسابق العهد على هيئة إنسان ذي رأس صقر، بل على صورة الكوكب نفسه. ومن الشمس تخرج أشعّة تنتهي بأيدي، تعني أنّ الشمس تعطي الإنسان الحياة وكلّ ما هو طيّب. وفي بعض الأحيان كان يثبت في الطرف السفليّ للقرص شعاره القديم، الصلّ، كأثر أخير للتصويرات القديمة. وقد وصلت إلينا محتويات هذه العقيدة الجديدة عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة نستطيع قراءتها في مقابر تلّ العمارنة. ولا يوجد فيها شيء متّصل بالعقائد أو اللاهوت. وليس إله الشمس فيها سوى الخالق المحبّب عند كلّ الأحياء.

ويرى هؤلاء الباحثون أنّ الملك الشاب كان معتلاً من الناحية الجسميّة، كما تُظهره لنا صوره، وكان ذا روح قلقة، وقد قام بانقلابه، منذ أوّل الأمر، باهتمام بالغ، فكان لا بدّ معه من إلحاق الأذى به. وفي بدء حكمه تراه يسمّي نفسه الكاهن الأكبر لإلهه

---

١ ـ راجع: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٦٢؛ أبو فاضل د. وهيب، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، نشر دار نوبليس (بيروت،٢٠٠٣) ١: ٥٨ ـ ٥٩.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٦٢.

و"وحيد رع"، ويتابع بناء معبد الكرنك الذي كان قد بدئ به في عهدِ والده. وتظهر لنا العقيدة الأولى كمتممة للتعليم الهليوبوليتانيّ، فإنّ الإله ما زال حوراختي، ويستمرّ تمثيله على هيئة رجل له رأس صقر. وفي المعبد الشمسيّ بالكرنك نرى أنّ أهمّ شيء فيه هو حجر بن بن الذي يمثّل الصخرة التي طلعت عليها الشمس قديمًا. ويحمل الكاهن الأكبر نفسه اللقب "أور - ماو" الذي يحمله كان هليوبوليس، وكذلك لم يكن يجوز أن يخلو المعبد الجديد من العجل المقدّس "منيفس" الذي كان من المعتاد وجوده في هليوبوليس. وقد كان ذلك بغير شكّ في السنة الرابعة عند تأسيس تلّ العمارنة. وحتّى القردة، التي تتعبّد للشمس عند طلوعها، كانت تمثّلها في المعبد الجديد تماثيلها، وعلى هذا النحو ظهرت العقيدة الجديدة التي بشّر بها الملك في بدء حكمه بصفته الكاهن الأول لحوراختي "ذلك الذي يتهلّل في الأفق". وعلى العموم فإنّ اسم إلهه يكشف عن شيء غريب يكمن تحت هذه الظواهر العاديّة، فالإسم القديم لحوراختي الذي تهلّل في الأفق يفسّره ما يقابله في "اسمه شو الذي هو أتون"، وشو وأتون اسمان من أسماء الشمس. وهذه الأفكار ولا شكّ عميقة، وهي كذلك عسيرة الفهم. وإنّ مظهرًا خارجيًا يبيّن لنا كم كانت صدمة عنيفة صورة الإله ذي رأس الصقر في هذا الدور الأول من تطوّر الديانة. لقد كان رع يُرمز إليه منذ آلاف السنين في الإسم الملكيّ برمز الشمس فقط. أمّا هنا فقد أُدخل استعمال العلامة الهيروغليفيّة، وفي كلّ هذا لم يظهر ما يناقض أمون أو ما يمنع من بناء المعبد الأكبر الذي يُزاد على هيكله، وقد افتتح رسميًا مقلع لقطع حجر بن بن، وفي البناء التذكاريّ لهذا المشروع، ظهر بكلّ وضوح كيف يقدّم الملك التسابيح لآمون ويسمّيه هناك "محبوبه". وفي الواقع ليس في عبادة إله الشمس الجديد ما يناهض أمون، لأنّه منذ أن تحوّل إلى أمون رع لم يكن في واقع الأمر سوى صورة جديدة لإله الشمس القديم. وكان كلّ شيء يعبده الناس تقريبًا

فيه موروثًا عنه. ولذا فإنّ الملك لم يظنّ أنّه ارتكب إثمًا نحو إله أجداده حين أرجع من جديد إله الشمس نفسه. ولكنّ هذا الهدوء لم يدم طويلاً، ويقول مؤرّخون[1] "إنّنا نجهل السبب الذي دعا إلى الاضطراب، ولكنّنا لا نخطئ من غير شكّ إن نحن قرّرنا أنّ كهنة أمون كانوا قد كشفوا في المعتقد الجديد عن هرطقة لا تُحتمل، وأنّهم حاولوا القضاء عليها بشتّى الطرق. وتتفجّر فجأة في ثورة عاصفة ضدّ أمون حركات نرى آثارها إلى اليوم في كلّ أنحاء مصر بعد ثلاثة آلاف وثمانمائة سنة. فحيثما يوجد اسم أمون نراه مشوّهًا، ولا نستطيع أن نصدّق أنّ اضطهاد أمون هذا كان من صنع الملك وحده. فقد كانت هناك من غير شكّ مجموعة متعصّبة اقتحمت كلّ المعابد والمقابر لمحو اسم أمون الكريه، غير ملقين بالاً للأضرار التي ألحقوها بأجمل المباني. وقد كان اسم الملك "امن حتب" أي "أمون مسرور" ولكنّ اسمًا كهذا لم يعد مقبولاً فتخلّى الملك عن اسمه وتسمّى "أخن أتون" أي "هذا يرضي الشمس"، ونلاحظ إلى أيّ حدّ أصبح الملك الشاب متعصّبًا لأنّه بتغيير اسمه لا ينكر أمون فقط، بل ينكر أيضًا أسلافه الأمجاد. وعليه فإنّ من المستحيل بعد ذلك أن تقوم إلى جانب الملك آلهة أخرى، فهو يجب أن يكون الإله الواحد الحقيقيّ، ومن الكفر الاعتقاد بوجود غيره إلى جانبه. وهكذا نرى أنّه تمّ حذف أسماء آلهة أخرى إلى جانب حذف اسم أمون، ففي معبد بتاح في الكرنك شُوّهت أسماء بتاح وحاتحور، وفي بهو أعمدة تحوتمس الثالث في الكرنك لحق بهذا المصير جميع الآلهة أوزيريس وإيزيس وحوريس وأتوم ومنتو وكب وغيرهم. وتمّ محو اسم التيس المقدّس. أمّا كلمة إله فإنّ جمعها آلهة، ما يُعتبر كذلك غير مقبول ولا محتمل. ولكنّ اضطهاد الآلهة الأخرى لا تظهر له نتائج قويّة كاضطهاد أمون. ولم يأخذ الأمر صبغته الرسميّة البعيدة بعد، إذ نرى أنّه سُلّم للملك

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٧٠.

في العام الخامس من حكمه تقرير إداريّ يخبره فيه مرسله أنّ معبد الإله بتاح في حال جيّدة، وأنّ التقدمات لكلّ الآلهة والآلهات تقدَّم بانتظام وتُقبل بنفس طيّبة. ولهجة التقرير لا تُظهر أيّ تغيير حدث في الديانة. إذن فليس هناك اضطهاد للآلهة الأخرى، لكنّ الملك قام حينئذ بخطوة حاسمة وقطع صلته بكلّ ما كان له قيمة في الماضي. فأعطى لمصر عاصمة جديدة لمملكة إلهيّة لا يُسمح فيها بوجود إله سوى إله الشمس. ومع ذلك لم يهدم الملك مدينة آبائه ولكنّه لم يطق العيش أكثر من هذا في مدينة أمون، فاختار لنفسه ولإلهه مكانًا جديدًا في المنطقة التي نسمّيها اليوم تلّ العمارنة، وهي تتوسّط مصر إذ قيست كلّ مساحتها. وقد كان يوجد على الضفّة الشرقيّة للنيل سهل واسع صحراويّ، وكان مكانًا مثاليًّا لتشييد العاصمة العظيمة التي كان الملك يريدها والتي سُمّيت "أخت أتون" أي أفق الشمس. وانتقل إليها الملك مع حاشيته في السنة السادسة على الأغلب، وقدّم التقدمات ودعا أصحابه وكبار رجال القصر والقوّاد. وأعلن أنّ هذا المكان هو المكان الذي اختير لإقامة العاصمة الجديدة. وهو لم يأخذ الفكرة عن واحد من مستشاريه، ولكنّ الإله نفسه أراد هذا. كما أنّه، وهو الفرعون، قد وجد كذلك أنّ هذا المكان لم يكن لأيّ إله أو آلهة أو ملك أو ملكة... ولم يكن لأحد حقّ فيه. وقد وافق الكبراء على هذا ورفع الملك يده إلى السماء نحو أبيه وأشهده على قسمه:

> سأبني أخت أتون لأتون أبي في هذا المكان، ولن أبني أخت أتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب. ولن أتجاوز علامات الحدود لا في الجنوب ولا في الشمال. ولن أبني كذلك في الغرب، لكنّني سأبني في الشرق حيث تظهر الشمس أي في المكان الذي أحاط نفسه بالجبال فيه. وإذا قالت لي الملكة إنّه يوجد في مكان آخر موقع أجمل من هذا يليق بأخت أتون فلن التفت إلى كلامها، وإذا قال لي المستشارون أو أيّ شخص آخر مثل ذلك فلن أستمع إلى

> كلامهم... وإذا كان هناك موقع في الشمال أو في الجنوب أو في الغرب أو في الشرق فلن أقول أبدًا إنّي سأترك أخت أتون، أو سأذهب لأبني أخت أتون أخرى في هذا المكان الأفضل...

ويعدّد الملك المباني الكبرى التي يريد إقامتها في مدينته للإله ولنفسه وللملكة. ولا يفوته أن يعلن أنّه حين يموت هو أو الملكة فإنّه يجب أن يُدفنا في أخت أتون. وفي يوم آخر أقسم الملك قسمًا ثانيًا أصبحت بمقتضاه المساحة الواقعة بين نصب حدود أخت أتون، وهي مساحة عرضها ثلاثة عشر كيلومترًا، وطولها عشرون كيلومترًا، ملكًا لأتون جبالاً وصحارى وحقولاً من كلّ الأنواع.. مياه وقرى وشواطئًا وأناسًا وقطعانًا، أي كلّ ما خلق أبي أتون[1].

ثمّ بدأ في مكان لم يكن فيه شيء، بناء مدينة كبيرة بمعابد وقصور وشوارع طويلة على جوانبها بيوت وحدائق. وقد اشترك جميع المهندسين والنحّاتين في هذا العمل الضخم، حيث وجد الفنّ أمامه الطريق خاليًا لينمو كيفما أراد غير عابئ بالتقاليد، ومحاولاً الوصول إلى الحقيقة. وقد ظهرت هذه الحقيقة بطرق مختلفة حسب طبائع الفنّانين. فقد وُجدت بجانب التماثيل العجيبة التي عثر عليها بورخارت في معمل نحّات بعض الرسوم الكاريكاتوريّة، وتلك نتيجة طبيعيّة لتحرّر الفنّ. ويقول باحثون: لا نستطيع أن نصرّ على أنّ اللغة العاميّة حلّت محلّ اللغة الأدبيّة، وأنّ هذه بطل استعمالها، ولكن علينا أن نوضّح أنّ في تغييرات الفنّ واللغة هذه تطوّرت بالمثل في موضوعات الصور والنقوش، وقد تمّ هذا حيث كان الأمر يتعلّق بالملك والملكة. وأمّا الأسلوب الرسميّ الذي فرضته التقاليد من قبل، فقد تُرك جانبًا، وكان يؤمل أن يعيش

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٧٠ ـ ١٧١؛ أبو فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١: ١٥٨؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٩٥

الملك في تلّ العمارنة "حتّى يَسودّ البجع ويبيضّ الغراب، وحتّى تروح الجبال وتجيء، وحتّى يسري الماء نحو المنبع[1]".

ومنذ عصر أمنوفيس الثالث، أبي الملك أخناتون، كانت حياة الملك الخاصّة واضحة للعيان أكثر ممّا كانت العادة عند الفراعنة. وفي عهد ابنه يظهر هذا الطابع أكثر وضوحًا، لأنّ زواج الملك السعيد أصبح موضوعًا عند الفنّانين، فزوجته الشابّة الجميلة "نفرتيتي" موجودة إلى جانبه في كلّ مكان، يلاعبان بناتهما الصغيرات، وتصبّ ابنته له النبيذ ليحتسيه ويجلسها على ركبتيه ويقبّلها. وفي حين كان الفرعون يحيا مع عائلته حياة لاهية، كانت مصر مهتزّة بالإنقلابات. وكان المستشارون القدامى والقوّاد والشيوخ، بعيدين عن تلّ العمارنة. ولمّا كان نبلاء أبيه قد ابتعدوا عنه، استوجب ذلك البحث عن رجال آخرين، واختارهم من بين أعوانه، من بين الذين كانوا يحبّذون مبادئه، لأنّ الملك كان يقاوم كلّ مَن يجهل مذهبه، ويكافئ مَن يعرفه، ولذا كان الجميع يفتخرون بالاستماع إلى مذهبه الجميل في الحياة: مذهب فرعون، وكما يُقال بحماس "المذهب ـ نعم المذهب". إنّهم سمعوا مذهبه وعملوا بمقتضى قوانينه، أو بمعنى آخر تابعوا العقيدة. وأمّا أحدهم فقد علّمه الملك بنفسه واعتنق مذهبه، وأمّا الآخر فيقصّ أنّ الملك قد اهتمّ بتعليمه صباح كلّ يوم لأنّه كان يتصرّف طبق ما يوحي له به مذهبه. ولا يعتقد العلماء المحدثون أنّ هذا المذهب من عمل الملك وحده، فالأسس التي قام عليها هذا المذهب ترجع، من غير شكّ، إلى شخص آخر، ولكن كان من فضل الملك أن عمّمه ودافع عنه، ولذا نراه يسمّي نفسه ابتداء من السنة الخامسة من حكمه "ذلك الذي يحيا من الحقّ"، وبعد ذلك بعام أطلق على نفسه، بطريقة أكثر وضوحًا، "ذلك

---

١ - *El Amarna*, ed. Davies, II: 30, III: 3, III, 29. ef. Litt. P. 363.

الذي يعرّف اسم أتون"، فهو إذن "تبيّ الإلـه"، كمـا يمكـن القـول، مـن واجبـه أن يبشّر بجمال أتون ويمجّـد اسمه وينشـر فـي البـلاد المعرفـة بخالقـه، ويجعـل اسمه واضحًـا للناس، لأنّ أباه الإله تجلّى له وأعطاه هو وحده حقّ فهم أفكـاره وقوّتـه. وقـد زاد هـذا المذهب الذي كان الملك يدعو له، زاد انتشارًا منذ الاستقرار في تلّ العمارنة. ألم يكـن لذلك بقايا أثر للعبادة القديمة التي توبعت فيها عبادة إلـه الشمس القديـم حوراختـى فـي مظهره الإنسانيّ كرجل برأس صقر؟ ثـمّ كيـف أنّ هـذه العلامـة الهيروغليفيّـة القديمـة التي كانت ترمز له ظلّت في إسم هذا الإله؟ لقد أصبح من الضروريّ حذفه كمـا سبق أن حذف العقاب من كلمة أمّ، وقد كُتب بدلاً من الصقر علامتان أبجديّتـان همـا ح، ر، ولم يستطع أشدّ المتعصّبين للمذهب الجديد الاحتجاج علـى ذلـك، وفـي واقـع الأمـر أنّ القراءة الجديدة للكلمة لم تعد سهلة[1].

في السنة الثامنة خطا الملك خطوة أخرى إلى الأمام، فأعطى صـورة جديـدة لاسـم الإله، إذ استبدل أوّلاً اسم حوارختى بعبارة "سيّد الأفقَين" وأصبح اسـم الإلـه، منـذ ذلـك الحين، "يحيا ـ رع ـ سيّد الأفقَين ـ الذي يتهلّل في الأفق ـ باسمه كأب لرع ـ الـذي أتـى بصفة أتون". وإذا حاولنا فهم هذا المذهب على وجه الدقّة في تحليله الأخير نجده يتّجـه الآن نحو الاعتقاد بالتوحيد. فإنّه يوجد إله واحد ليس له شريك. وكلّ ما كانت تقوم بـه جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الآن بعمله لأنّ فيه ملايين المخلوقات. لقد خلق نفسـه بنفسه، وهو يعاود كلّ صباح خلق نفسه. وفـي خـلال النهـار يجـوب السمـاء، ولكـن لا ندري كيف يحدث ذلك، لأنّه لم يؤتَ علـى ذكـر السفينة أو التمثيـلات المتّصلـة بهـذه الرحلة، ولا يُذكر في أيّ مكان تستقرّ الشمس ليلاً، وهي ربّما تكون في العالم السـفليّ. ولـم تعـد للإلـه صفـات مشـتركة مـع الصـور القديمـة لإلــه الشـمس أتـوم وخـبري

---

[1] ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٧٣ ـ ١٧٦.

وحوراختي. وهو في الحقيقة الكوكب نفسه وليس إلهًا على الطريقة القديمة، واعتقد المصريّ قبل كلّ شيء أنّ هذا الكوكب هو الموزّع الأكبر للنعم على كلّ من يحيا. وأصبح الإله الجديد الواحد يتجلّى على أشكال ثلاثة: فهذا هو إله الشمس العام المشترك للعالم كلّه "الإله الطيّب الذي يحبّ الحقّ سيّد السماء والأرض أتون الكبير الذي ينير القطرَين". ولكن يظهر بجانبه شكل آخر لإله الشمس كما يُعبد في تلّ العمارنة "أتون الحيّ في بيت أتون في تلّ العمارنة". ولقد فُهم على أنّه ملاك واسمه مكتوب كالأسماء الملكيّة وهو يحمل كملك لقب "الممنوح الحياة الأبديّة" ويظهر أنّه كان يجب، طبقًا للعادة القديمة، أن يكون هناك إله محليّ خاصّ بالعاصمة، وأمّا الشكل الثالث الذي تتجلّى فيه الألوهيّة فهو الملك نفسه، ذلك الذي طرد الآلهة الأخرى وأصبح من حقّه أن يُعبد هو نفسه كإله. ومن الملاحظ وجود موضوع واحد في العقيدة الجديدة لم يُذكر قط، ولو أنّ المصريّين كانوا يعطونه الأهميّة الكبرى، هو مملكة الموتى. فهذا الموضوع لم يُذكر في مجموعة نقوش تلّ العمارنة، ومعظمها مأخوذ من المقابر، لأنّ هذه العقيدة الصافية لا تتّفق بسهولة مع ذكر الموت والدفن، وليس بالمستطاع إهمالها، ولا إظهار الاغتباط بها. فإذا كانت هناك مقابر جديدة حُفرت في الصخر، فهذا لأنّ العادة تقضي بذلك، ولأنّ الموتى يجب أن يستقرّوا في المكان اللائق بهم، ولكنّ العاطفة الدينيّة القويّة التي دفعت قديمًا إلى بناء الأهرام تنقص هنا، وحتّى قبر العائلة المالكة ليس متّسعًا اتّساعًا كبيرًا. وفي كلّ مقبرة تقريبًا لا يكاد يوجد كاملاً سوى الصالة الكبرى التي تُستعمل للاحتفالات أيّام الأعياد لأنّه، حتّى في المقابر، كانوا يفضّلون التفكير في الحياة بدلاً من الموت، كما ذكروا النهار في أناشيد الشمس وأهملوا الليل. وجدير بالذكر أنّ الملك كان يتكلّم عن تأثيث مقبرته دون الاستعانة بالاصطلاحات والتورية المعتادة، فهو لا يتحدّث عن "الطيران إلى السماء" أو عن

"الرسو"، ولكن يتكلّم عن الدفن بكلّ بساطة. ولم تندثر العقيدة القديمة التي تقول بأنّ الأموات يسكنون في العالم السفليّ، ولكنّهم يتكلّمون عنهم وكأنّهم يسكنون مقابرهم. "هنا في الجبل يتحوّل الميت إلى روح حيّة" كانت تمثّل، حسب الطريقة القديمة، على هيئة طائر وهو يجثم فوق الجثّة التي كان قد خلقها إله الشمس، ولكنّها تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها لأنّها تريد التمتّع بالشمس والدنيا، ويتقبّل الميت كذلك المأكولات، ويُدعى إلى المأدبة التي يقدّمها له الملك وأفراد أسرته، وينال كذلك نصيبه ممّا تبقّى في المعبد، فإذا كانت هذه بالذات هي المعتقدات القديمة فإنّهم يتصوّرون من ناحية أخرى حياة المتوفّي التي تشبه الحياة التي كان يحياها أشراف تلّ العمارنة. فحينما تطلع الشمس توقظ الميت فيقوم مسرورًا ويغتسل ويرتدي ملابسه، ويصلّي للإله عند باب المقبرة، ويذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس ثمّ يتنزّه في الحديقة التي زرعها بنفسه يشرب الماء على شاطئ بحيرته. ولكن ما يدهش في نقوش تلّ العمارنة هو عدم ذكر المحاكمة التي يتعرّض لها الناس بعد موتهم والتي يأملون الخروج منها مبرّرين. و"حين نلقي نظرة، بعد آلاف السنين، على مملكة تلّ العمارنة، فنحن مدفوعون نحو رؤية عالم تظلّله السعادة وتباركه أشعّة الشمس. مدينة مليئة بالمعابد التي تسري بها النعام وقصور ومساكن وبحيرات... كلّ هذا محاط بهالة من الإيمان المرح الذي لا يعرف إلاّ الصلوات لشكر الخالق المملوء طيبة ولا يعرف إلاّ العدل نحو الغير... حتّى إذا كان من شعب غريب. لكنّ هذا السناء لم يعهده العالم من قبل، ولم يكن الفقر والهموم بعيدَين عن بلاط تلّ العمارنة. وبالرغم من جهود الملك فإنّ غالبيّة الناس قد رفضت العقيدة الجديدة وظلّت تعبد آلهتها القديمة سرًّا[1]".

---

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٧٩ - ١٨٢.

سقوط العقيدَة

ويقول الباحث نفسه: "نحن نجد صعوبة في فهم سبب فشل العقيدة الجديدة، إذ يلوح أنّه كان يجب قبولها كوسيلة لتحرير آلاف المواطنين في عصر رائع الازدهار، ولتنقية الديانة من كلّ الحشو الذي تراكم فيها منذ آلاف السنين. ولكن بجانب الطبقة المتعلّمة قامت طبقة الشعب التي كانت لا يمكن أن تجمع شتاتها عقيدة أساسها المنطق. وكان ينقصها شيء آخر لا تستطيع خير ديانة الاستغناء عنه، وهو الناحية التصوّفيّة وناحية ما وراء الطبيعة، ولذا فقد فضّل الشعب البقاء على عقيدته القديمة حيث توفّرت فيها هذه الناحية. تجد هذه العقيدةَ السبيل ميسّرًا بين أفراد الشعب المصريّ. ولم تكن حامية الملك في تلّ العمارنة مكوّنة من آسيويّين وزنوج، إلاّ لهذا السبب. وهناك شيء خطير أيضًا هو أنّ قوّة المملكة الخارجيّة تضعضعت... حقًّا إنّ نقوش تلّ العمارنة لا تشير إلى ذلك "وإنّ الأمراء الأجانب ما زالوا مستلقين عند أقدام الملك"، وإنّ الإله يوكل أمر البلاد كلّها إلى الملك حتّى ينفث بحميته فيهم، وحتّى إنّ هناك واليًا أجنبيًّا يمجّد الملك في رسالة ويصفه بأنّه ذلك الذي يعطي الراحة إلى البلاد بقوّة يده، ويشبّهه ببعل صاحب الصوت الذي يرعب كلّ البلاد، ولكنّ هذه مصطلحات تقليديّة، ونحن نعلم نقلاً عن مصادر أخرى، منها أنّه حين أرسل جيشًا إلى فينيقية لتوسيع الحدود كان ذلك دون طائل. وحتّى إذا نحن لم نشأ التسليم بذلك لأنّه جاء من جهة معارضة فإنّ خطابات أمراء فلسطين المحفوظة في سجلاّت تلّ العمارنة تُظهر بجلاء سير الأمور.

"هكذا كانت مملكة العقيدة الجديدة تتّجه نحو خراب مؤكّد. ولم تسقط هذه المملكة بسبب اضطراب مفاجئ بل تدهورت شيئًا فشيئًا. أصابتها الهزّة الأولى عند موت الملك الذي لم يترك وليًّا للعهد بعد أن حكم البلاد تسعة عشر عامًا. وانتقلت مقاليد

الحكم إلى زوج ابنته الكبرى الذي خلفه صهر آخر أصغر سنًا وهو المعروف بالملك توت عنخ أتون، أي صورة أتون الحيّة. غير أنّه كان على أولئك الذين وضعوا الغلام على العرش أن يتبيّنوا أنّ المذهب الجديد قد خسر المعركة... وكان ردّ الفعل محتومًا. وهناك لوحة تدلّنا على أنّه، في عصر توت عنخ أتون، كانت عبادة أمون وموت مسموحًا بها، وهكذا أُعيد السلام مع أمون. وكعلامة لهذا التوفيق تخلّى الملك الشاب وزوجته عن اسميهما المهرطقَين "فتوت عنخ أتون" أصبح "توت عنخ أمون". ثمّ رجع إلى طيبة وافتتح عهده بمرسوم يلمّح فيه إلى البؤس الذي انحطّت إليه البلاد:

> تهدّمت المعابد في البلاد كلّها وأمّا واجهاتها فقد اختفت معالمها. وهذا هو السبب في أنّ الآلهة استدبرت البلاد، وصار الجيش عاجزًا، وعندما كان المرء يتضرّع إلى إله أو آلهة لاستشارتهم كانوا لا يستجيبون له. لكنّ الآلهة قد أقاموا ملكًا جديدًا على عرش آبائه، طرد الإثم من البلاد... الحقّ يبقى والباطل يُزهق... أصبحت البلاد من جديد كما كانت قديمًا.

"إذن فقد أقام الملك المعابد من جديد وجمّلها وصنع تماثيل لأمون وبتاح من الذهب الخالص ذات حجم كبير، حتّى أنّه وجب زيادة عدد المحفات حتّى يستطاع حملها في الاحتفالات. وأُعيد صنع قوارب الآلهة من خشب الأرز وزُخرفت بكمّيات من الذهب تجعل النهر مضيئًا، وزيدت جميع العطايا، وكرّس الملك للمعابد عبيدًا من الرجال والنساء مغنّيات وراقصات كانوا جميعًا ملحقين ببيت المال، وعيّن كهنة مرؤوسين ورؤساء اختارهم من بين أبناء البيوتات العريقة وأولاده المتعلّمين أصحاب الأسماء المشهورة، ودفع لهم أجورًا مرتفعة. لكنّ توت عنخ أمون مات وهو شاب. ونحن الآن نملك الرسالة التي بعثت بها أرملته إلى ملك دولة الحيثيّين الكبرى تطلب إليه أن يرسل إليها أميرًا من أفراد عائلته ليتزوّج منها، ولكنّه لم يلبّ طلبها، فعاد العرش إلى ذلك الملك الذي كان يشغل الوظائف الكبرى منذ أوّل العهد الهرطقيّ والذي نشكّ في أنّه

هو الذي أقام الملك الشاب على العرش. هذا هو الكاهن "آي" وكانت زوجته "تي" مرضعة الملك الهرطقيّ، فصار هو ملكًا واغتصب المباني والآثار التي أُقيمت لأمون في عهد الملك الشاب. وقد ترك لتوت عنخ أمون المسكين كنوزًا لا تُحصى، كان هذا الملك قد أعدّها لمقبرته خلال حياته كلّها، ولكنّه لم يعطه المقبرة الكبرى التي كانت قد أُعدّت من أجله، بل دفن الجثّة في تسرّع وبغير نظام في قبر ضيّق بعد أن حاول توسيعه بسرعة، وقد كان لهذه المقبرة الوضيعة أغرب مصير، إذ إنّها الوحيدة من بين مقابر الملوك التي لم تُستهدف للسلب طوال آلاف السنين. وعند اكتشافها عام ١٩٢٢ انتشر اسم توت عنخ أمون في العالم بأجمعه. وقد احتجز "آي" لنفسه المقبرة الكبرى التي كانت قد أُعدّت من أجل توت عنخ أمون، ولكنّ ذلك لم يجلب له حظًّا حسنًا، إذ إنّ المقبرة خربت وسُلبت محتوياتها. على أنّ حكم "آي" لم يستمرّ سوى بضع سنين، وخلفه ملك آخر أعظم منه هو "حو محب" القائد العامّ للجيش في منفيس، وكان هو الآخر من المقرّبين للملك الهرطقيّ، وصار على ما يبدو السيّد الحقيقيّ لمصر السفلى. وفي المقبرة التي جهّزها لنفسه في منفيس مُثّل وهو يستقبل سفراء الشعوب الأجنبيّة. وقد ذهب إلى طيبة حيث توّجه أمون ملكًا، ونحن نجهل ما حدث بعد ذلك، ولكن يمكن أن نؤكّد على أنّه عند اعتلاء حور محب العرش كانت الهرطقة قد اختفت حتّى في أبعد مظانّها. وفي نفس الوقت دُمّرت المباني التي كانت تذكّر بالعهد الهرطقيّ في طيبة واستُعملت أنقاضها كموادّ للبناء. وفي ذلك الحين خربت تلّ العمارنة، ولم يُترك شيء من معبدها الأعظم. أمّا موضع ذلك المعبد فقد صار جدبًا بطريقة مغرضة إذ لم يكن من المرغوب أن تنتشر الحياة في هذه البقعة اللعينة. وقد خربت مقابر تلّ العمارنة إذ ذاك ولم تفلت كذلك المقابر الملكيّة من هذا المصير. ولكن لا بدّ أن تمكّن أحد المخلصين لأخناتون في عهد توت عنخ أمون من إنقاذ بعض محتوياتها وإخفائها

في مقبرة قديمة في طيبة. ولقد اختفى تابوت الملك نفسه. ولم يعد الرجل الذي حاول إعطاء شعبه عقيدة جديدة يرقد إلاّ في تابوت من خشب، هو الآن في المتحف المصريّ، ولا يملك المرء إلاّ أن يتساءل بطبيعة الحال عمّا إذا لم تكن الجثّة في خلال "هذا الإنقاذ" قد استُبدلت بغيرها. فإنّ علماء التشريح يقرّون أنّ الجثّة التي عُثر عليها هي لرجل في الثلاثين من عمره، ويبدو أنّ هذه السنّ قليلة لأخناتون الحقيقيّ. وهكذا انتهت هذه الفورة كما تنتهي كلّ الثورات. ومن بين مراحل التقدّم التي أدخلها عصر تلّ العمارنة لم يبقَ سوى مظهر واحد هو استعمال اللغة العاميّة. أمّا من جهة الفنّ فلم يحدث سوى القليل من التحسينات. والحركة الدينيّة الكبرى لم تكن لها إلاّ نتيجة واحدة هي إحداث ردّ الفعل الذي كان دافعًا للإنحطاط الروحيّ في مصر [1]".

نهايـــــــة

الدَولة الحَديثَة

يقول إرمان: بعد عشرات السنين على انتهاء الحركة العظيمة بخاتمة تدمير كلّ ما كان ينكّر بالهرطقة، كان يُتجنّب ذكر اسم أمنوفيس الرابع الذي توارى منذ أمد طويل، ولم يعد الحديث يجري عنه إلاّ ويذكر لقب "مجرم تلّ العمارنة". لكنّ الدين الذي أُعيد ترميمه لم يكن يشبه تمامًا المعتقدات القديمة. فقد استعادت آلهة المدن المختلفة حقوقها، وغُلب على أمر أتون الطاغية، وحلّ محلّه طاغية آخر هو أمون رع. لأنّ إليه وإلى مدينته يعود الفضل في الانتصار في المعركة ضدّ الهرطقة. فبفضله أُحرق عدوّ رع "حتّى استحال إلى رماد"، وبفضل انتصاراته استطاعت طيبة أن تقدّم للبلاد سيّدًا واحدًا، هو أمون رع لأنّه "هو مالك البلاد والحقول كلّها وجميع الشواطئ والأراضي.

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٨٥ ـ ١٨٧.

وله وحده أُنشئت سجلاّت المساحات والمقاييس، ومن أجله تفد جميع السفن من البلاد الأجنبيّة محمّلة بالثروات، ومن أجله ينمو شجر الأرز الذي استُعمل خشبه في بناء قاربه الفاخر، والجبال تزوّده بالحجارة لمبانيه الضخمة...والآلهة الأخرى لا تحيا إلاّ بفضل طيبته، وتطلب منه التزوّد بالحياة وهو يعطيها الخبز من ممتلكاته، وبفضله كذلك كان لها نصيبها من المنشآت والتماثيل والمعابد في مصر. وهو له في كلّ مكان معابد فيستطيع أن يسكن حيثما يطيب له... له العالم بأسره حتّى بلاد أعدائه... الفرات والمحيط يعيشان في وجل منه، وهو ككلّ ملوك عصره يُمدح لأنّه مبعث رعب لدى خصومه... إنّه يلقي بهم على وجوههم ولا يستطيع أحد مهاجمته، هو الأسد الزائر ذو المخالب العظيمة، هو الثور ذو الحوافر الثقيلة، هو الطائر الكاسر الذي يحطّم أعضاء وعظام المعتدي... الجبال ترتعد من تحته والناس يخافونه". لكنّ الواقع أنّ هذه القوّة وهذا الطابع المخيف لم يكونا العنصر الأساسيّ في طبيعة أمون، ورغم اضطراب هذا العهد فإنّه ظلّ نفس الإله اللطيف الذي عرفه الناس من قَبل، مُحسنًا خيّرًا للناس والمخلوقات جميعًا. وهو فقد مشاركته مع "مين" ولم يعد الآن إلاّ مجرّد إله شمسيّ، وعاد يمخر في مركبه عباب السماء بصفته إلهًا شمسيًّا و"يتغلّب على تنّين السحب ويجول في العالم السفليّ حيث يلقى مومياءه... وهو يصنع السنين ويصل الشهور ببعضها البعض... الأيّام والليالي تنتظم طبق مسيره". فأمون "هو أصل كلّ شيء، إنّه وُلد في البدء وليس هناك إله آخر ظهر قبله ولم يكن معه إله آخر ليشير إليه بصورته. لم تكن له أمّ تمنحه اسمه ولا أب ليكون أصلاً له وليقول له: ها أنا ذا. إنّ كلّ شيء آخر صدر عنه: التاسوع والآلهة جميعًا كانوا متّصلين بجسده حين خلق الآلهة الأوّلين في صورته كبتاح تاتنن... وعلى ذلك ليس هناك في الواقع سوى كائن إلهيّ واحد هو أمون". ويمكننا اعتبار العقيدة كنوع من ديانة أمون رع. وفي الواقع لا يجب أن نتمثّل

أمون تحت صورة واحدة بل تحت صورة ثالوث إلهيّ... لأنّ رع نفسه متّحد بجسده، كما أنّ أمون يُسمّى كذلك بتاح تاتنن... اسمه كأمون مخفيّ، رع يخصّه كوجه وبتاح كجسد. ومن الطبيعيّ أن يكون رع متّصلاً اتّصالاً وثيقًا بأمون في مظهره الشمسيّ ولكن من غير شكّ كان دخول بتاح كعضو في هذه الألوهيّة العظمى نتيجة تأثير خارجيّ: لأنّ طيبة كان عليها أن تجامل "حور محب" ما دام هو الرجل الذي أصلح الأمور ولنشأته في منف مدينة بتاح. ولذا فإنّ هؤلاء الآلهة الثلاثة: أمون ورع وبتاح هم الآلهة الذين كانوا يُعبدون في الحقبة اللاحقة مباشرة لعصر الهرطقة، وهم الآلهة الرسميّون في البلاد جميعًا ومدنهم هي الأماكن المقدّسة ومعابدهم هي هياكل الدولة. ولكنّ هذا الشرف يرجع قبل كلّ شيء إلى طيبة التي أصبحت الآن المكان الأكثر قداسة وإن لم تعد مقرّ حكم الملك. أمّا المعبودات الأخرى فتنطمس أمام ثالوث أمون ورع وبتاح الذي يشغل فيه أمون مكان الصدارة. وكان له إيرادات تفوق إيرادات زميلَيه إذ إنّه كان يمتلك حقولاً بقدر خمسة أضعاف حقول رع وبقدر تسعين ضعفًا لحقول بتاح، بالرغم من أنّ هذا الأخير كان في ما سلف إله الدولة الكبير.

ولقد حاول الملك "حور محب" وخلفاؤه، أي الأسرة التاسعة عشرة، أن يعوّضوا بطريقة مفخّمة، الخسائر التي لحقت بأمون ومدينته خلال عهد الهرطقة، فأقاموا تمجيدًا له تلك المباني الضخمة التي لم يستطع أيّ بلد أو أيّ عصر آخر أن يشيد ما يماثلها. ولكن هل استطاعت الفخامة والأبّهة إفادة الدين؟ لا شكّ في أنّ الدين أخذ يفقد رويدًا رويدًا تلك القوّة الروحيّة التي أكسبته البقاء، وأصبح الدين غريبًا على غالبيّة الشعب، بل أصبح دينًا للملك، أو دينًا للدولة ولم يعد دينًا شعبيًا. لأنّ الرجل من العامّة لم يعد يستطيع دخول المعابد، بل وُضعت تماثيل الآلهة على أبواب المعابد حيث يستطيع الرجل من العامّة أن يتقدّم بسؤاله إلى الإله. ورغم العظمة المحيطة بأمون فإنّه لم يكن

إلهًا شعبيًّا، بل إنّ الرجل في الحياة العاديّة كان يفكّر عن طيب خاطر في إله الشمس أكثر من تفكيره في أمون. وإذا كان هناك ما يدعو لذكر اسم إله في قصص ذلك العصر فكان اسم "رع حوراختى" هو المفضّل وحين كان المرء يستعطف الآلهة ويلتمس رضاهم في خطاب من الخطابات فإنّ الحديث كان يوجَّه إليه. وفي الحضّ على التقوى والتعبّد كان يُذكر فقط "إله هذه البلاد شمس الأفق". ومن الطبيعيّ أنّ هذه العبادة الشعبيّة لإله الشمس لم تكن تحمل إساءة نحو الآلهة القدامى الآخرين. فإنّ أهل بوبسطة كانوا يتوجّهون بأدعيتهم، كما كانت الحال منذ القدم، إلى إلهتهم باستت، وأهل الفنتين إلى إلههم أخنون، والكتّاب والعلماء إلى حاميهم تحوت الذي يساعدهم على فهم الكتابة ويسندهم في أعمالهم. وأمّا في الحرب فإنّ الإله منتو هو الذي قاد الملك إلى النصر. وهكذا عادت الحياة إلى جمهرة الآلهة المصريّين، واهتمّ الملوك بعاطفة الشعب هذه، فأعادوا بناء معابد الآلهة القديمة أو أتمّوا بناءها، وقام رعمسيس الثاني على الخصوص بعمل واسع في هذه الناحية. ويمكن القول إنّه قلّ أن يوجد في مصر معبد لا يحمل اسمه. ونفس الرغبة في إرضاء باقي الآلهة يعبّر عنها رعمسيس الرابع في معبد قام ببنائه في أبيدوس بعد حوالى قرن من الزمان، ولم يكن الأمر من قبيل المصادفة أن أغفل ذكر آلهة طيبة وذكر بتاح منف، لأنّ الملك يقصّ علينا أنّه قام بأبحاث مضنية في كتب دار الحياة، ووصل إلى أنّ أوزيريس هو أكثر الآلهة غموضًا وخفاء... هو القمر... هو النيل... وهو ذلك الذي يحكم في العالم الآخر، ويقصّ الملك أيضًا كيف ساهم في أعياد أوزيريس وكيف خدم بذلك جميع آلهة تاسوع أبيدوس... لكنّ ابن رعمسيس الثالث هذا يمرّ مرور الكرام على أمون رع وبتاح رغم أنّ أباه قام بعبادتهما أكثر من كلّ الآلهة الآخرين. والواقع أنّه لم يذكر من بين آلهة الدولة الثلاثة سوى رع خوراختى، وقد ذُكر في مناسبة الدور الذي يلعبه كرفيق يوميّ لأوزيريس.

ولسبب خاصّ نرى الإله ست قد أخذ مركزًا مهمًا في الدولة الحديثة وفي الأسرة التاسعة عشرة على وجه الخصوص. واحترامه لا يقوم على أساس أنّه الإله القديم الذي يحمي مصر العليا ولا على اساس أنّه قاتل أوزيريس، لكنّه هنا الإله الذي قامت بعبادته أسرة المحاربين بدون انقطاع. ولمّا كان أصل الأسرة يرجع إلى شرق الدلتا، حيث كانت تستقرّ عاصمة ملوك الهكسوس من قبل، فإنّ إلهها كثيرًا ما اتّخذ مظهر سوتخ الذي عبده الهكسوس المتبربرون والذي كان ذا طبيعة غريبة عن مصر. ويلاحظ أنّ ملوك هذه الأسرة كانوا يقدّرون هذا الإله لدرجة أنّ جيوش رعمسيس الثاني لم تطلق عليها أسماء أمون ورع وبتاح فحسب، بل واسم ست كذلك. وعلى ذلك وُضع في مرتبة متساوية لمرتبة هذه الآلهة الوطنيّة الثلاثة. بل إنّه في المدينة الكبيرة التي أقامها رعمسيس الثاني في الدلتا، خصّص أحد الأقسام لأمون وقسمًا آخرًا لسوتخ. وكانت هذه المدينة الملكيّة الجديدة، التي سُخّر اليهود في بنائها كما ورد في القصص، واقعة في الدلتا، لأنّ دور طيبة كان قد انتهى. ولأنّه كان يجب عليها أن تفسح المكان أمام عاصمة أخرى ليست مثلها في عزلة. وإنّ جميع المباني التي شيّدها الملوك لتجميلها لم تعد كافية لتغيير حظّها، وهي التي لم تزل أقدس المدن، مدينة أمون كما كانت تُسمّى باختصار، ولكنّها لم تستطع أن تعود فتصبح عاصمة من جديد، لقد ظلّ الملوك يقيمون معابدهم وقصورهم على الضفّة الغربيّة، وحين يموتون كان يجب أن يرقدوا في هذه المدينة المقدّسة في أعماق مقابر احتفروها لأنفسهم. ومنذ ذلك الوقت تصبح طيبة مدينة المعابد والأعياد الرسميّة ويصبح صيت هذه الأعياد كبيرًا ومنتشرًا حتّى لتُسمّى الشهور في البلاد جميعًا بأسماء هذه الأعياد[١].

---

١ ـ راجع: أبو فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١: ٥٩؛ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص١٨٨ ـ ١٩٦؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٥٨٣.

المَسيحيَّة

في مصر

في الحقبة المتأخِّرة، كانت هناك تغيّرات عديدة في الأسر الحاكمة؛ وشهد القرن السادس قبل الميلاد إحياءً واعيًا لعظمةٍ قديمةٍ لكلٍّ من الدين والفنّ، وعلى الرغم من هذه النهضة، فقد كانت مصر ضعيفة عسكريًّا؛ فسقطت عام ٥٢٥ قبل الميلاد أمام الهجوم الضاري للفرس. ومع أنّه قد تمّ التخلّص من الخطر الفارسيّ لمدّة من الزمن، فإنّ غزو الإسكند الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد أدّى إلى نهاية الاستقلال المصريّ. ومن الطبيعيّ أن يكون الأثر اليونانيّ شاملاً على الحضارة المصريّة، إلاّ أنّه قد سمح للعبادات الوطنيّة بالازدهار؛ وقامت عبادةٌ جديدة، هي عبادة "سيرابيس SARAPIS"، وهي التسمية التي أطلقها الإغريق على الإله المصريّ "أوزيريس"، وقد تركّزت عبادته بصورة رئيسيّة على أسس مصريّة، وانتشرت عبادة سيرابيس وإيزيس في العالم اليونانيّ. وعندما أصبحت مصر ولايةً رومانيّة عام ٣٠ قبل الميلاد، وُضعت أرض المعابد تحت سيطرة الحكومة، إلى أن امتدّت جذور المسيحيّة في مصر إبّان الحكم البيزنطيّ من سنة ٣٩٥ إلى ٦٤٠ بعد الميلاد، وشُنّ هجوم مباشر على الديانة المصريّة القديمة. ففي مصر نشأت الرهبانيّات، وربّما كان للديانة القديمة تأثير واضح في هذا التطوّر. كما كانت اليهوديّة والغنوصيّة[1] قوّتَين مؤثّرتَين أيضًا، ولا سيّما في مدينة الإسكندريّة[2].

---

١ ـ الغنوصيّة GNOSTICISM: نسبة إلى GONOSIS أي "المعرفة". وهي حركة فلسفيّة ودينيّة نشأت في العصر الهلنستيّ (بعد وفاة الإسكندر) وأساسها أنّ الخلاص يتمّ عن طريق المعرفة أكثر ممّا يتم بالإيمان والأعمال الخيّرة، تأثّرت بها بعض الفرق اليهوديّة والمسيحيّة. وبعبارة أخرى: الغنوص هو المشاهدة الباطنيّة لعالم ما فوق الحسّ عن طريق المشاهدة أو الرؤية الإلهيّة. والغنوصيّون فلاسفة ورجال دين عاشوا في القرون الأولى للمسيحيّة، وتعرّضوا للأسرار الخفيّة للإيمان من خلال التأمّل الفلسفيّ.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٦٥.

فقد ذكر باحثون أنّ الأقباط، خلال احتلال الإسكندر لبلادهم، والبطالسة من بعدهم، ثمّ الرومان، قد ظلّوا يشكّلون شعبًا قبطيًّا مستقلاً في الجنس واللغة والتقاليد والعبادات... فعلى الصعيد الدينيّ ـ الثقافيّ، عاش المصريّون بدينهم الأوّل آلاف السنين، ورفض كهنتهم الآلهة التي حاول البطالسة والرومان فرضها عليهم، كما قاوم الفلاّحون الأقباط عبادة الإله سيرابيس. وهكذا فلمّا كانت المسيحيّة تبدأ دروب انتشارها في خلال القرنَين الأوّلَين للميلاد، كان الأقباط المصريّون على عباداتهم القوميّة الأساسيّة. ويرى باحثون أنّ المسيحيّة قد انتشرت في مصر، وتحديدًا في الإسكندريّة، منذ منتصف القرن الأوّل للميلاد، على يد أحد تلامذة السيّد المسيح: القدّيس مرقس، الذي قدم البلاد مبشّرًا سنة ٤٨ حسب تقليد كنسيّ قديم يخبر عنه المؤرّخ المسيحيّ الشهير أوسابيوس القيصريّ[1]. وهو يستند إلى أقوال يوليوس الأفريقيّ الذي عاش في أوائل القرن الثالث. والمقول أنّ مرقس، قد وجد في الإسكندريّة، وسط الجالية اليهوديّة، بعض الأشخاص الذين وصلتهم الرسالة المسيحيّة منذ يوم العنصرة. وقد تمكّن بعضهم من معرفة السيّد المسيح، وأخذوا يبشّرون به. فنظّم القدّيس مرقس هذه الجماعة الناشئة ورسم لها شمامسة وكهنة وواصل التبشير في كلّ القطر المصريّ. ثمّ دعته الغيرة الرسوليّة إلى التبشير في ليبيا التي كانت، بحسب بعضهم، موطنه الأصليّ. حتّى أصبح، للمدن الخمس في مصر وليبيا، وهي "قيرينه" و"بطلمايس" و"أرسينوية" و"سوزوزا" و"بردينة"، منذ القرن الثاني، خمسة أساقفة تابعين لأسقف الإسكندريّة. وعند خروج مرقس البشير إلى الإسكندريّة، هاج عليه الوثنيّون، واضطُهد، وفي أثناء الاحتفال بعيد القيامة سنة ٦٨م. هجم عليه الوثنيّون وجرجروه

---

١ ـ أوسابيوس القيصريّ EUSÈBE (نحو ٢٦٣ ـ ٣٣٩): أسقف قيصريّة فلسطين، لُقّب بأبي التاريخ الكنسيّ، أشهر مؤلّفاته وأنفسها "التاريخ الكنسيّ" لِما يحتوي عليه من حوادث ووثائق لولاه لما عُرفت.

في الشوارع حتّى أسلم الروح. وبعد القدّيس مرقس، يذكر أوسابيوس المؤرّخ قائمة تضمّ عشرة أساقفة ترأس كلّ منهم الكنيسة لمدّة اثنَي عشر عامًا دون ذكر شيء عنهم بالتفصيل.

ويرى باحثون أنّ ما ساهم في سرعة اعتناق الأقباط المسيحيّة، وما جذبهم إليها، اعتبار أفكارها سلاحًا للفقراء في مواجهة السيطرة الغربيّة المتمثّلة بجبروت الأمبرطوريّة الرومانيّة الوثنيّة. لذلك، فإلى جانب تطابُق جوهر هذا الدين مع ديانتهم القديمة، كان عليهم، في مقاومتهم للحكم الرومانيّ، أن يتزوّدوا بأفكار تحمل تطابقًا بين الموقف الدينيّ ونزعتهم إلى التحرّر. فقد تحوّل الأقباط، منذ وقت مبكّر جدًّا، إلى المسيحيّة التي كانت تنادي ضدّ ظلم الرومان، وكانت في جوهرها تشبه ديانتهم القديمة. فالثالوث في المسيحيّة يشبه ثالوث "أوزيريس" و"إيزيس" و"حورس" في الديانة المصريّة القديمة. وكذلك الإيمان بالحياة الآخرة، وخلود الروح، والثواب والعقاب، وتحريم الطلاق. وازداد عدد المسيحيّين في عموم مصر، ولا سيّما في منطقة الصعيد حيث تُرجمت الكتب المقدّسة من اللغة اليونانيّة، التي لم يعد يفهمها الشعب، إلى اللغة القبطيّة لغة الشعب. وعليه لم تعد المسيحيّة في مصر مقتصرة على منطقة معيّنة، بل انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث، بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانيّة وتعذيبها الأقباط المسيحيّين، لدرجة أنّ القمع الدمويّ بلغ ذروته في أواخر القرن الثالث، فعُرف ذلك العصر بعصر الشهداء[1].

وممّن تتحدّث عنهم المدوّنات، ديمتريوس (١٨٩ ـ ٢٣٢)، الذي تدخّل في موضوع المشكلة الفصحيّة مساندًا فكتور الأوّل[2] أسقف روما في تحديد يوم

---

١ ـ زخّور، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

٢ ـ فكتور الأوّل: بابا روما ١٨٩ ـ ١٩٨، قدّيس، وُلد في أفريقيا، أقرّ عيد الفصح يوم الأحد في روما.

عيد القيامة يوم الأحد التالي للرابع عشر من شهر نيسان (إبريل)، ردًّا على كنائس آسيا التي كانت تعيّد في يوم الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل). وبتلك المناسبة نُظّم الحساب القبطيّ الذي حدّد عيد الفصح لكلّ سنة، وهو الأحد الواقع بعد اكتمال القمر من الاعتدال الربيعيّ. وكان ديمتريوس أوّل مَن رسم في مصر أساقفة للمدن الأخرى التابعة له، خارج الإسكندريّة[1]. وأوّل مَن اتّخذ في الكنيسة لقب "بابا الإسكندريّة". وخلفه "ياروكلاس"، أحد تلامذة أوريجينِس في مدرسة الإسكندريّة، وكان فيلسوفًا متضلّعًا من شتّى العلوم الفلسفيّة، كما كان خطيبًا مفوّهًا، وكان له تأثير كبير في النفوس، حتّى إنّه استقطب عددًا كبيرًا من الوثنيّين إلى المسيحيّة، وقام برحلة راعويّة طاف خلالها في المدن المصريّة، وبسبب ازدياد عدد المسيحيّين رسم لهم عشرين أسقفًا. وقد برز في تلك الحقبة وجه تفتخر به كنيسة الإسكندريّة هو الأسقف القدّيس ديونيسيوس الكبير (٢٤٨ ـ ٢٦٢)، الذي اشتهر بمؤلّفاته اللاهوتيّة، وحارب القائلين بالنظريّة الألفيّة، ولا سيّما الهرطقة "الصابليّة" التي تنكر الثالوث وتتكلّم عن أقنوم واحد اتّخذ ثلاثة أشكال مختلفة. وكان معتدلاً وصانع سلام بين الأطراف المختلفة، يحارب التشدّد في النسك وفي معاملة المرتدّين. وقد أبرزَ قيمة الزواج المسيحيّ ردًّا على الذين يرون فيه دنسًا وشرًّا، كما أنّه حثّ على قبول الخطأة الراجعين إلى اللّه بتوبة صادقة، بعد أن ارتدّوا عن المسيحيّة بسبب ضعفهم أثناء الاضطهادات، متّخذًا موقف بابا روما إسطفانُس الأوّل (٢٥٤ ـ ٢٥٧) ضدّ نوخاسيوس المتشدّد. كما وقف، في مسألة تعميد الهراطقة، في صفّ البابا إسطفانس ضدّ قبريانس أسقف قرطاجة. وعندما شكاه أخصامه إلى البابا بحجّة أنّه يقلّل من قيمة الإبن بالنسبة إلى الأب، وطلب إليه

---

١ ـ رستم أسد، كنيسة مدينة اللّه أنطاكية العظمى، المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٨٨) ١: ٤٤ ـ ١٤٥ PATROLOGIA GRACCA, VOL. 61, P. 982

البابا إيضاحًا، أفحمه بردّه واعتُبرت الشكوى افتراء. وقد تعرّض هذا الحبر للاضطهاد في عهد الأمبراطور الروماني "داقيوس" التي اغتصب السلطة سنة ٢٤٩ من يد فيليبّس إثر معركة حاسمة وقعت قرب ثيرونة الإيطاليّة قضى بخلالها فيليبّس مقاتلاً. وكان داقيوس من الأباطرة الذين تشدّدوا في اضطهاد المسيحيّين. وبنتيجة الاضطهاد اضطرّ ديونيسيوس إلى الهروب نحو الصحراء، وبعد عودته نُفي إلى الصحراء الليبيّة حيث بشّر وجذب الكثيرين إلى المسيحيّة. ثمّ أُفرج عنه في عهد إليانُس. فرجع إلى الإسكندريّة واستمرّ في خدمة كنيسته بكلّ أمانة حتّى لقي ربّه. ومن بعده انتشرت المسيحيّة في مصر انتشارًا واسعًا، حتّى صار عدد المسيحيّين ثلث عدد السكّان في أواخر القرن الثالث. وزاد عدد الأساقفة على المائة في السينودوس الذي عقده البطريرك ألكسندروس ضدّ آريوس سنة ٣٢٠. وقد ذكر بعض المراجع "أنّ رئيس الإسكندريّة كان، بادئ الأمر، الأوّل بين أقرانه الشيوخ والأساقفة PRIMUS INTER PARES وكان هؤلاء يقيمون رئيسًا بوضع الأيدي... ولعلّ السبب في ذلك أنّ أسقف الإسكندريّة ظلّ الأسقف الأوحد في مصر حتّى أوائل القرن الثالث[1].

إلى جانب انتشار المسيحيّة في مصر باكرًا، ظهر فيها نظام الرهبانيّات أو الأديرة قبل أيّ مكان آخر، وخاصّة ابتداء من عهد الأمبراطور فالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨م.) لذلك دُعيت مصر "مهد الحياة الرهبانيّة". وقد بدأت مسيرة النشأة الرهبانيّة بظهور النسّاك المتعبّدين، إلى أن ظهر القدّيس أنطونيوس الكبير (نحو ٢٥٠ ـ ٣٥٦) الذي وُلد في مصر، فتتلمذ على "باولا" أوّل الحبساء، ثمّ تنسّك في الصعيد فجذب الكثيرين إلى الحياة النسكيّة، ولمّا كثر عدد هؤلاء، وضع أنطونيوس قوانينه الشهيرة للحياة

---

١ ـ المرجع السابق.

الرهبانيّة، وهي القوانين التي انتسب إليها أوائل الرهبان في مصر، ثمّ شاعت في الشرق والعالم ولا يزال معمولاً بها إلى اليوم، وأساسها نذر الفقر والطاعة والعفّة من قِبَل الرهبان الذين يعيشون حياة مشتركة في الأديار. ثمّ كان نظام الشركة الذي يرقى تأسيسه إلى الأنبا "باخوم"، الذي وُلد سنة ٢٩٢ من والدَين وثنيَّين بـ"إسنا" في صعيد مصر، وتثقّف بالعلوم المصريّة، ولكنّه كان يشعر بنفور من عبادة الأصنام. وفي العشرين من عمره، اضطرّ إلى الالتحاق بالجيش الرومانيّ بإمرة الأمبراطور "مكسيمينُس[1]" لمحاربة جيش "ليقينيُوس[2]" وقسطنطين. وفي أثناء تأدية خدماته بالجيش، تأثّر بمعاملة المسيحيّين للجنود حتّى الغرباء منهم وبتجرّدهم وسخائهم في سبيل الآخرين. وبعد انكسار مكسيمينس وخروجه من الجيش، لم يشأ باخوم الرجوع إلى أهله، بل أخذ يتعلّم الديانة المسيحيّة حتّى قبل العماد في بلدة "شنسيت" وقصد أن يحيا حياة تليق بالمسيحيّ. فذهب إلى أحد المتوحّدين المشهورين المدعو "بلامون". وبعد اختبارات كثيرة قبله كتلميذ له وعاش مع معلّمه حياة الصلاة والنسك. وكان من عادة باخوم أن يبتعد في الصحراء إلى مكان يُدعى "طابنيس". فسمع يومًا صوتًا من السماء يقول له: "أمكث في هذا المكان وابنِ ديرًا لاستقبال كلّ مَن يرسلهم اللّه إليك لخدمته". وشجّعه بلامون على ذلك بعد أن عاش معه سبع سنوات، وكان أخوه يوحنّا أوّل تلميذ انضمّ إليه، وتبعه كثيرون. وقد أدرك باخوم مساوئ الحياة الانفراديّة من ملل وغرور وخطر التطرّف في التقشّفات وعدم ممارسة فضيلة المحبّة، فجمع تلاميذه في حياة جماعيّة. وهكذا ظهرت للمرّة الأولى حياة الشركة. ولُقّب باخوم بأبي الشركة

---

١ ـ مكسيمينُس الثاني دايا MAXIMINUS DAIA: أمبراطور رومانيّ على الشرق ٣٠٥ ـ ٣١٨، غلبه مناوزه ليقينيُوس فانتحر.

٢ ـ ليقينيُوس أو ليسينيوس LICINIUS: أمبراطور رومانيّ في الشرق ٣٠٧ ـ ٣٢٤، اتّفق مع قسطنطين على سياسة التسامح مع المسيحيّين ثمّ تراجع عنها فحاربه قسطنطين وقتله.

الرهبانيّة. ولقي نظام باخوم نجاحًا كبيرًا أسهم في زيادة عدد الرهبان، فأسّس في حياته تسعة أديرة للرجال واثنَين للنساء، وكان لكلّ دير رئيس ومدبّر. ووضع باخوم قانونًا بإرشاد سماويّ كُتب باللغتَين القبطيّة واليونانيّة، ثمّ تُرجم إلى اللاتينيّة. وقد حدّد هذا القانون واجبات كلّ منهم وواجب كلّ راهب نحو الرئيس، واتّسم بالاعتدال، مراعيًا حالة كلّ فرد. ونظّم الحياة الرهبانيّة لجهة المأكل والمشرب والملبس والصلاة وقراءة الكتب المقدّسة. وكان للشغل اليدويّ في تنظيمات باخوم النصيب الأوفر، فكان من الرهبان نجّارين وخبّازين وحدّادين وحائكين وفلاحين. وعلى منوال باخوم قام "شنودة الأتريبي" بتأسيس "دير البيت الأبيض" بالقرب من "أخميم". وكان شنودة راهبًا مثقّفًا يعرف اللغة اليونانيّة، وملمًّا بالفلسفة اليونانيّة والشعر. إلاّ أنّه عُرف بصرامته نحو الرهبان والراهبات، إذ تشدّد في تطبيق القوانين الباخوميّة، وبمحاربته الشديدة للهرطقة والوثنيّين. وقام شخصيًّا مع رهبانه بهدم الكثير من معابدهم، ووصل عدد الرهبان عند الفتح العربيّ إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف راهب. ومن ثمّ انتشرت القوانين الباخوميّة في أثيوبيا حيث نجد ترجمة حبشيّة لقوانين الأنبا باخوم، ثمّ انتقلت إلى فلسطين وسوريا مع "هيلاريون[1]"، وإلى آسية الصغرى مع "القدّيس باسيليوس[2]"، وإلى الغرب مع "هيرونيمُس[3]" و"يوحنّا كاسيان". وإذ أثّر هذا النظام الرهبانيّ سلبًا على

---

١ ـ هيلاريون (ت٣٧١): ناسك قدّيس، ولد في غزة فلسطين، أسّس الحياة النسكيّة فيها.

٢ ـ القدّيس باسيليوس: أسقف قيصريّة قبدوقية ٣٢٩ ـ ٣٧٩، سنّ قوانين رهبانيّة للنسّاك انتظم الجميع فيه سنة ١٢٢٤، أقرّه ١٢٤٥ البابا إينوشنسيوس الرابع ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤، يلحظ الصلوات الليليّة والقطاعة الدائمة والصوم والصمت والاستعطاء، إلاّ أنّ البابا أوجين الرابع ١٤٣١ ـ ١٤٤٧ رأى في قانون الرهبانيّة من الصرامة ما لا يتحمّله عامّة المتنسّكين فخفّف منها بعض الشيء واضعًا لها نظامًا جديدًا.

٣ ـ القدّيس هيرونيمُس أو إيرونيمُس JÉRÔME HIERONYMUS (حوالى ٣٤٧ ـــ ٤٢٠): من آباء الكنيسة، ولد في دلماتيا (يوغوسلافيا)، تنسّك في شمال سورية ثمّ في بيت لحم، مؤرّخ ومفسّر للأسفار المقدّسة التي ترجمها بكاملها إلى اللاتينيّة وأصبحت النصّ المعتمد عليه في الكنيسة الغربيّة.

تجنيد المصريّين في الجيش الرومانيّ، ناهض بالأمبراطور الرهبان الذين تمّت ملاحقتهم، فنشبت ثورة في الإسكندريّة قام خلالها المصريّون بنهب أملاك الأغنياء، وهاجموا الأحياء اليهوديّة[1]. نلك أنّه لمّا شهدت مصر قيام الحركة الرهبانيّة أو الديريّة، وكانت أهمّ مراكزها الإقليم طيبة في منطقة الصعيد، وبلغت هذه الحركة أوسع انتشارها في القرنَين الثالث والرابع للميلاد على أيدي القدّيسَين بولس وأنطونيوس في الصحراء الشرقيّة، ومع تحوّلها في القرن الخامس إلى نظام "رهبان الشركة" مع القدّيس باخوم، أصبح الدير أشبه بمستعمرة اقتصاديّة تتمتّع، إلى حدّ ما، بالاكتفاء الذاتيّ. ومع الوقت انتشرت الأديرة من أعالي الصعيد إلى مصر الوسطى، ثمّ إلى شمال مصر عند وادي النطرون. وشكّل رهبان وادي النطرون ومريوط في الإسكندريّة فرقًا منظّمة ساندت غالبًا بطاركة الإسكندريّة في صراعهم ضدّ المذهب الرسميّ للدولة. ومن جهة أخرى، وانطلاقًا من الإقليم الطيبيّ أيضًا، عمل القدّيس شنودة الأخميميّ على محو آثار الوثنيّة وعبادة الإله سيرابيس، وحوّل المعابد الوثنيّة القديمة إلى كنائس مسيحيّة قبطيّة[2].

---

١ ـ زخّور، قصّة الأقباط ص٢٩.

٢ ـ زخّور، قصّة الأقباط ص٣١.

الفَصلُ الخَامِس

تَصدِيرُ الدِّيانَة المَصريَّة القَديمَة

إمتِدَاد الدِّيَانَة المَصريَّة إلى خَارِج مصر؛

في بلاد النُّوبَـة؛

في كنعَان وفينيقيَـا؛ في الصحرَاء الغربيَّـــة؛

في أوروبَّا.

إمتِدَاد الدِّيَانَة المَصرِيَّة

إلى خَارج مصر

إمتدّت بعض المعتقدات المصريّة كما انتشرت عبادة بعض الآلهة المصريّين إلى البلدان المجاورة لمصر وإلى بلاد أبعد منها، ذلك بسبب الحروب والغزوات المصريّة، وبفضل ما كان للاتّصال السلميّ بين الشعب المصري وبعض شعوب المناطق. فالمصريّون، وإن لم يكونوا شعبًا تجاريًّا، فهم لم يكونوا ليستطيعوا الاستغناء عن مثل هذا الاتّصال. فقد كانت بلادهم، على غناها، تفتقر إلى بعض المنتجات الهامّة، التي لا يمكنهم إلاّ استيرادها من الخارج. فكانت العطور والبخور تُجلب من البلاد الواقعة في جنوب البحر الأحمر، والأحجار الثمينة والنحاس من سيناء، وأخشاب البناء، وكانت أهمّ الواردات جميعًا، من لبنان. ومَن كان يذهب إلى هذه البلاد، مخترقًا الصحارى والبحر المخيف، كان يستودع نفسه عند قيامه برحلته آلهة مصر؛ وفي عودته آلهة البلد الأجنبيّ، وذلك لأنّها تحكم المناطق التي عليه أن يخترقها، وهكذا فقد كان التأثير الدينيّ متبادَلاً بين المصريّين والشعوب الساميّة بشكل خاص، والشعب الكنعانيّ ـ الفينيقيّ بشكل أخصّ. ولكن قبل الانتقال إلى هناك، لنرَ كيف كان تأثير الديانة المصريّة القديمة على المناطق الأكثر قربًا.

في بلاد

النُوبَــة

في النوبة، وهي منطقة ممتدّة على شاطئ النيل، قسم منها في مصر وقسم في السودان، شيّد الفراعنة كثيرًا من المدن والحصون والمعابد لتأمين الطرق التجاريّة إلى السودان، والدروب الموصلة إلى المناجم في الصحراء، وقد بدأت صلة مصر بالنوبة منذ فجر التاريخ، وفي أيّام الأسرتَين الخامسة والسادسة أوفد إليها الملوك بعثات لارتياد مناطقها والبلاد الواقعة جنوبها. وفي أيّام الأسرة الثانية عشرة، شيّدوا الكثير من الحصون والمعابد، وأقاموا الحاميات، وجعلوا حدّ مصر الجنوبيّ بعد الشلال الثالث، وامتدّت حدود مصر أيّام الأسرة الثامنة عشرة إلى ما وراء الشلال الرابع، وأصبحت "نبتا" عند جبل "برقل" عاصمة للبلاد، أقام فيها الحاكم المصريّ، وكان يُسمَى "الإبن الملكيّ في كوش"، وأخذت الحضارة واللغة والديانة المصريّة تنتشر في الجنوب[1].

على أنّ الديانة المصريّة قد وجدت أرضًا شكورة وانتشارًا واسعًا في البلاد التي فُرضت فيها على قبائل ذات حضارة منحطّة ومواهب محدودة جدًّا، وهي بلاد النوبيّين والزنوج.

وإذا كان ملوك الدولة الوسطى عندما غزوا بلاد النوبة قد تركوا لها إلهها "دون"، أو "ددون"، فقد ضمّوا إليه "خنوم"، إله الشلاّلات المصريّ. وفي الدولة الحديثة التي فيها امتدّ الغزو كثيرًا ونظّمت بلاد النوبة كولاية تابعة، تمصّرت العبادة أيضًا. وقد شيّد تحوتمس الثالث نفسه في أحد الحصون الذي كان يحمل الإسم الحربيّ "تحر

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٤: ٢٤٧٨.

الشعوب الأجنبيّة"، معبدًا لآمون رع، معبود الكرنك، وقد استحال هذا المعبد في القرون التالية إلى معبد آخر شبيه بالكرنك. وكان يقع حيث يبرز في هضبة النوبة العليا جبل وحيد صعود، كان يُسمّى "الجبل الطاهر"، ويُدعى الآن جبل بركال. وفي هذا المكان نفسه كانت تقع "نباتا" عاصمة النوبة ومقرّ الملوك الأثيوبيّين في ما بعد.

وإلى جانب آمون رع انتقل كذلك إلى بلاد النوبة الإلهان المصريّان بتاح ورع حراختي، وكذلك إيزيس وحاتحور؛ وقد أُضيف إليهم الملوك المصريّون كآلهة للبلاد أيضًا. ففي سمنة كان على النوبيّين أن يعبدوا الإله سيزوستريس الثالث، وهو الفاتح الأوّل لبلادهم، وكذلك تحوتمس الثالث، الفاتح الجديد؛ وفي صولب فرض أمينوفس الثالث نفسه إلهًا، وفي أبي سنبل جلس رمسيس الثاني بجوار الآلهة في قدس الأقداس في المعبد الكبير، على حين كانت زوجته تُعبد مع الإلهة حاتحور في المعبد الصغير. وفي ما عدا هذا كان من عادة النوبيّين كذلك عبادة الأشخاص، وهكذا كانوا يعبدون في الدولة الحديثة في دبود "وي" الياور الذي ربّما كان ضابطًا في الدولة الوسطى. وقد شُيد في هذه البلاد القليلة السكّان المعبد تلو المعبد، حتّى في عهد الإلحاد. وفي عهد رمسيس الثاني خاصّة شُيّدت المعابد الكبيرة في أبي سنبل وجرف حسين وبيت الوالي وغيرها. ولمّا كان الوادي الضيّق لا يهيّئ مكانًا فسيحًا لهذه المباني، فقد اتُّخذت هنا الوسيلة التي اتُّبعت في هذا العهد بالذات في المقابر الضخمة. فنُحتت المعابد في باطن الصخر، وبهذا ابتُدعت أعمال مدهشة يمكن أن تقارَن بالمباني ذات الشهرة العظمى في الأراضي المصريّة.

ومن الواضح أنّ رجال كهنوت هذه المعابد قد تلقّوا أوقافًا مناسبة من حقول ودخول، وإن كانت مثل هذه المنح لا تتّفق مع فقر البلاد. بل كان يُعتمد على هذا

القطر الفقير في النفقة على بعض المعابد التي لم تكن في بلاد النوبة. فعندما أقام سيتي الأوّل لأوزيريس معبده الكبير في أبيدوس منحه إقليمًا في بلاد النوبة.

من اليسير أن نقدّر أنّ هذا التوسّع العظيم للديانة المصريّة قد خلّف تأثيرًا دائمًا على السكّان الفقراء في البلاد الجنوبيّة. فعندما انفصم الرباط الذي كان يجمعهم بعد نهاية الدولة الحديثة كان لا بدّ أن تتخلّى اللغة المصريّة بسرعة عن مكانها للغة الشعبيّة، غير أنّ الديانة المصريّة بقيت وعظمت قوّتها بين النوبيّين والزنوج إلى حدّ تجاوز مدى قوّتها في وطنها الأصيل. وقد تحقّقت بين ظهراني هؤلاء البرابرة على أوسع مدى تلك المملكة التي لم يتمكّن كهنة طيبة من إقامتها في مدينتهم الأصليّة إلاّ لأمد قصير. وكان الحاكم الحقيقيّ لبلاد النوبة هو آمون نباتا برأس الكبش. فبوحيه كان الملك يختار أو يُعزل أو يؤمر بموته؛ وبأمره خرج الملك لاستخلاص الأراضي المصريّة المقدّسة من الأيدي النجسة، ذلك لأنّ الأثيوبيّ في هذا العهد كان يعتبر نفسه الممثّل الحقيقيّ للعقيدة المصريّة الصحيحة، بينما كان يعتبر المصريّين أنفسهم أنجاسًا مرتدّين. ولمّا ذهب عظماء المصريّين المغلوبين ليقدّموا خضوعهم للملك الأثيوبيّ، لم يسمح ذلك البربريّ إلاّ لواحد منهم بدخول سرادقه، أمّا الآخرون فكانوا "غير مختونين، ويأكلون السمك، وهو رجس عند القصر". وكان الملك في كلّ مدينة تقهرها له شرانمه المتوحّشة، يزور الآلهة ويهب لها الهدايا، وذلك لأنّ آلهة مصر كانت آلهته أيضًا. وقد حظيت طيبة قبل غيرها بمكان ملحوظ باعتبارها المدينة المقدّسة في نظر الأثيوبيّين، وقد ظلّت مدّة طويلة في قبضتهم وحكمتهم أميرات أثيوبيّات بصفتهنّ زوجات الإله[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٨.

ولمّا أشرقت أيّام أبسماتيك المجيدة على مصر في القرن السابع وتمّ إجلاء الأثيوبيّين عنها، ارتدّ وادي النيل الأعلى إلى الهمجيّة القصوى مرّة أخرى. وفي القرن الثالث قبل الميلاد تفكّكت حقًّا عرى مملكة آمون التي قامت بين الزنوج والنوبيّين، وذلك عندما اقتحم الملك إرغامينس، ذو الثقافة الإغريقيّة، بجنوده قدس الأقداس، حيث كانت المقصورة الذهبيّة، وقتل الكهنة. ومع ذلك فلم يتغيّر الطابع الدينيّ للمملكة الأثيوبيّة كثيرًا، ولم يكن لثقافة الحاكم الإغريقيّة أيّ تأثير على شعبه. وقد حلّت مروى مكان نباتا مدينة مقدّسة، وهي أكثر توغّلاً في الداخل، وتقع إلى الشمال قليلاً من الخرطوم؛ وبهذا غدت الآلهة أكثر بربريّة وأكثر أفريقيّة في طابعها. ومَن يرى صور معبدَي بحراويه وبنّاجا وما تمثّله من متوحّشين في أكداس من الحليّ وهم يتعبّدون بطريقة الفراعنة لآلهة جافية في لباس نصف مصريّ، يلاحظ إلى أيّ حدّ من التدهور انحطّت هذه السلالة من الديانة المصريّة. وكان هؤلاء البرابرة يعاملون أيضًا موتاهم وفق التقاليد المصريّة؛ فقد كانت تُقام لهم الشواهد الجنازيّة وموائد القرابين، وتُبنى للملوك أهرامات بشكل مشوّه غريب. وكما يبدو من صورها كان لأوزيريس وأنوبيس وإيزيس ونفتيس السلطة على الموتى أيضًا.

وكانت منطقة الحدود بين بلاد النوبة ومصر ممّا يلي الشلاّل الأوّل جنوبًا تدين، في بداية الأمر، للإله العظيم خنوم، الذي كان يحمي منابع النيل في إليفانتين. وقد جاء أنّ الملك زوسر، اعتمادًا على مشورة الحكيم إمحتب، وهب لهذا الإله منطقة المراحل الإثنتَي عشرة على ضفتَي النهر بكافّة مواردها ومكوسها، ليُفيض من جديد نيلاً غزيرًا إلى مصر، التي كانت إذ ذاك في السنة السابعة من المجاعة. وعندما سيطر أوزيريس على قلوب الناس شيئًا فشيئًا، بلغ هذان الإلهان أيضًا أسمى اعتبار لدى النوبيّين، وطفق معبد إيزيس في جزيرة فيلة الصغيرة الواقعة عند الطرف الأقصى للشلاّل، يبرز أكثر

فأكثر على هيكل إليفانتين المجاور. وفي عهد بطليموس فيلادلفوس بُدئ بتشييد المعبد الجديد، الذي كان يُعتبر بحالته السليمة وبموضعه في بيئة مهيبة من أجل ما عرف زماننا، ولكنّ برابرة أوروبّة أغرقوه في خزّان من المياه. وكان لهذا المعبد الواقع عند حدود البلاد المصريّة مركز خاصّ، لأنّه كان يكفل الحاجات الدينيّة لشعبَين في وقت واحد. وكان سادته هم ملوك الإغريق وأباطرة الرومان، غير أنّه كان يُسمح للأثيوبيّين كذلك بدخوله والانتفاع به. وقد شيّد فيه الملك الأثيوبيّ إرغامينس بالإشتراك مع بطليموس فيلوباتور هيكلاً لإلهه أرسنوفس. وتدلّ النصوص العديدة باللغة الأثيوبيّة على مدى ما أبداه أهل الجنوب من حماس في الحجّ إلى فيلة. وفي هذا المعبد وجدت آلهة البرابرة أيضًا مكانها، ومنها أرسنوفس وإله الشمس مندولس، وكان محلّه المقدّس في تاليس، التي كانت تقع كذلك من داخل منطقة الحدود، وكان المتعبّدون الوطنيّون يُطلقون عليه في الأناشيد الإغريقيّة "الربّ مرسل الأشعّة".

وكان بدو صحراء بلاد النوبة، البليميّون، يحجّون إلى إيزيس في فيلة، ولم يكن للحكومة الرومانيّة، التي سبّب لها هؤلاء الرحّل كثيرًا من المتاعب، إلاّ أن تسمح لهم بممارسة عبادتهم في فيلة. ومع أنّ المسيحيّة كان قد كُتب لها الفوز في مصر منذ أمد بعيد، فقد ظلّت عبادة إيزيس في فيلة حبيبة للنوبيّين والبليميّين. وعندما عقد القائد مكسيمينوس سنة ٤٥٢ للميلاد معاهدة سلام مع الشعبَين، سمحت بيزنطة التقيّة لأولئك الوثنيّين بحريّة الحجّ إلى معابد فيلة، وأن يستقدموا منها تمثال إيزيس كلّ عام للاحتفال به. وبعد قرن كامل، عندما نقضت هذه المعاهدة، أمر جوستينيان بإيصاد معبد فيلة كذلك، وحبس كهنته، ونقل تماثيل الآلهة إلى القسطنطينيّة. وهكذا كانت فيلة آخر مركز للديانة المصريّة، وفيها آخر آثارها التي خطّتها يد مصريّ بنصوصها اليونانيّة والديموتيقيّة والهيروغليفيّة المتأخّرة. ويبقى أصحاب هذه النصوص القصيرة المحفورة

مجهولين، ولكنّ المعروف أنّ "الكاهن سمت" و"سمتخم" القيّم الأوّل على ملابس الإله ومظهره الخارجيّ، كانا آخر مَن عُرف من كهنة الآلهة المصريّة[1].

في كنعَان

وفينيقيَــا

بمـا أنّ العقـائد الجنازيّـة القديمـة للمصريّيـن تعتمـد علـى فكـرة وجـوب إطعـام الخلَـف للموتى، وهـذه الصـورة نفسـها نجدهـا فـي نقـوش المقـابر القديمـة فـي شـمال سـوريا، تلك التي ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد، فقـد اعتـبر بـاحثون أنّ عـادة دفـن الجثّة فـي تـابوت أو تـابوتَين لحمايتهـا، لا معنـى لهـا إلاّ عنـد شـعب يعتقـد أن مـن الضروريّ حفظ جثّـة الميـت، وأنّ هـذه العـادة التـي نجدهـا فـي أوروبّـة وفـي الشـرق مقتبسة من مصر[2].

غير أنّ هـذا الاعتبـار لا يوافـق عليـه علمـاء الديانـات الساميّة القديمـة، إذ إنّهـم يعتبرون أنّ ما وجد في قبور الفينيقيّين من سُرج وجرار وصحون وآنية أخرى للأكـل والشرب تعود إلى أزمنة بالغة القدم، تفيد بأنّ الميت، بحسب معتقدهم، يظلّ يتمتّع بعد موته بنوع من العيش يشبه عيشه على الأرض. فكان الفينيقيّ يدفن مـع النسـاء الخـرز والمجوهرات وأدوات أخرى للزينة. وكانت الأسلحة تُدفن مـع الرجـال، وكـان للمقـابر في جبيل وصيدا منزلة رفيعة واحترام عظيم. فإنّ القـبر كمـا كـان يظهـر مـن النقـوش التي كانت تُحفر على النواويس كان يسمّى "مكان الراحة"، والناووس الحجـريّ العظيـم

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٦٦ ـ ٤٧٢.

٢ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٥٩.

الذي دُفن فيه أحيرام مزخرف بالنقوش والتماثيل التي تصوّر لنا جنازة كبيرة تظهر فيها النساء النادبات الحاملات القرابين. ومن الواضح أنّ هذا الناووس يدلّ على أنّ الفينيقيّين كانوا يحرصون على حفظ الجسد من الفناء. بيد أنّ الأثر المصريّ يظهر في كنعان بتحنيط بعض ملوكهم[1].

ويقف باحثون[2] على أساس أشدّ متانة في فلسطين وسوريا، حيث العبادات المصريّة والوطنيّة جنبًا إلى جنب. ففي "بيت شيّان" مثلاً شيّد ملوك الدولة الحديثة، أو بالأحرى "حكّام الحصون"، معبدًا للإله المحلّيّ "مِكِر" وزوجته حيث كان يُعبد كذلك رشف وعنات إلى جانب آمون ـ رع وحوراختي. وإلى الشرق من بحيرة طبريّة صخرة منعزلة جاء عنها أنّ أيّوب اعتمد عليها، وقد مثّل عليها رمسيس الثاني وهو يمجّد إلهًا متبربرًا. وقد افتخر رمسيس الثالث كذلك صراحة بأنّه شيّد في فينيقيا معبدًا لآمون، كان "بيتًا مليئًا بالخفايا والأسرار، وكان يشبه الأفق السماويّ الذي في السماء". وكان اسمه "بيت رمسيس في كنعان". وقد صنع الملك كذلك تمثالاً كبيرًا لآمون يستقرّ فيه" يُسمّى "آمون رمسيس تأتي إليه شعوب سوريا بتقدماتها، وذلك لأنّه إلهي". ويعتبر هؤلاء الباحثون أنّ الحضارة المصريّة، في عهد الدولة الحديثة، كان لها تأثير كبير في هذه البلاد وكذلك على الديانة فيها. وقد أصبحت الأختام تحمل صور الآلهة المصريّة، كما أصبحت المقابر تحلّى على الطريقة المصريّة. على أنّ الأمر لم يبلغ عند هذه الشعوب أن تكون للديانة الأجنبيّة السيادة على الديانة الوطنيّة وعلى ما ورد إليهم قبل ذلك من عقائد من بابل. ولم يحدث ذلك حتّى في جبيل، التي كانت على صلات قويّة

---

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص١٦٨.

ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص٤٦١ ـ ٤٦٢.

بمصر من أجل تجارة الأخشاب. فقد كان ملوك الدولة القديمة ومن بينهم "منكاورع"، باني الهرم الثالث، يهدون إلى هذه المدينة التقدمات، التي ما يزال العمل جاريًا لكشفها.

ولم تنقطع هذه الصلة الدينيّة مطلقًا، وقد وجدت جبيل سبيلها إلى أسطورة أوزيريس، وكذلك ذكرها أحد كتّاب الدولة الحديثة كأنّها مدينة مليئة بالأسرار، يمكن أن يُقال الشيء الكثير عن آلهتها. وكانت هذه الإلهة، وهي بعلة جبيل أو "سيّدة جبيل" كما تُسمّى في اللغة المصريّة، الحامية العظيمة للملاّحين، ومنهم كذلك الملاّحون المصريّون. وقد سوّى هؤلاء بينها وبين إلهتهم حاتحور، ولهذا كانت حاتحور تُسمّى منذ ذلك الوقت "سيّدة جبيل". وفي الدولة الوسطى نفسها كان يُطلق اسمها على الفتيات الصغيرات. وكانت حاتحور تُعتبر كذلك حامية الملاّحين وإن كانوا لا يبحرون إلى جبيل وإنّما في البحر الأحمر؛ بل إنّ السفينة التي كان الميت يُبحر فيها إلى السماء كانت تقودها حاتحور سيّدة جبيل[1]. وأخيرًا كان أهل جبيل أنفسهم يعبدون إلهتهم في شكل حاتحور؛ وحوالى عام ٤٠٠ قبل الميلاد، كانت الإلهة التي كان ملك جبيل يقدّم لها دعواته تشبه حاتحور المصريّة تمام الشبه، وإن كانت هي بعلة جبيل.

على أنّ باحثين آخرين[2] يعتبرون العكس صحيحًا، ويجدون أنّ العلاقات بين مصر وفينيقيا كانت تجاريّة وحضاريّة تتميّز بكثير من المودّة والإخاء، فقد كان أمراء جبيل يتبادلون الهدايا الثمينة مع فراعنة مصر، وها إنّنا نجد اسم الفرعون "خوفو" باني الهرم

---

١ - LACAU, *TEXTES RELIGIEUX*, NO. 20.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٨٧.

الكبير في الجيزة، محفورًا على مزهريّة من المرمر مرفوعة إلى الإلهة "بعلة جبيل" التي كان لها هيكل ترسل إليه القرابين والتقدمات والنذور من الفراعنة الذين سبقوا خوفو والذين خلفوه. ويكتشف هؤلاء أنّ ما جاء من مصر إلى جبيل، إنّما هو عبادة الإلهة المصريّة "إيسيس" حيث أسفرت الحفريّات في جبيل عن اكتشاف معبد لها. وفي الواقع أنّه على مرّ الزمن أصبحت الإلهتان إلهة واحدة. إلاّ أنّ أمراء جبيل كانوا يزيّنون أسلحتهم وحلاهم برسوم ونقوش مصريّة. وبعضهم كان يفخر بأن يسمّي نفسه من "أبناء رع" الإله الشمسيّ الأول لمصر. أمّا بعلة جبيل فإنّها كانت تُعرف بـ"عشترت"، أي عشتروت زوجة أدونيس، إله المدينة وسيّدها غير المنازع، الذي يعود إلى أصل بابلي[1]. وقد استعار المصريّون الإلهة عشترت وجعلوها الإبنة الأجنبيّة للإله رع.

لقد كانت جبيل، في الواقع، مدينة مقدّسة لديانتَين. وفي العهد الرومانيّ نسمع كذلك أنّ رأسًا مصنوعة من لحاء البردى يدفعها الريح كلّ عام بطريقة عجيبة تحت إرشاد الآلهة من مصر إلى جبيل. وكان آمون يُعبد في الدولة الحديثة في جبيل أيضًا، لكنّ عبادته لم تتأصّل فيها، وذلك لأنّه عندما سافر أونامون، أحد الموظّفين في معبد طيبة، حوالى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد، إلى جبيل، ليجلب منها الخشب اللازم لصنع سفينة مقدّسة جديدة، لم يكن فيها شيء من احترام الديانة المصريّة. ولم يكن هنا أثر كبير لإيفاده رسولاً لآمون حاملاً له تمثالاً. وكان من العبث أن يستشهد بأنّ أبا أمير جبيل وجدّه كانا يعتبران آمون "سيّدهما"، وأنّهما "قضيا حياتهما يقدّمان له القرابين"، وأنّ الأمير نفسه "خادم آمون". وقد اعترف الأمير بهذا كلّه وسلّم كذلك بأنّ الفنون والتعاليم

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص٨٧ - ٨٨، ١٦٢.

إنّما وردت من مصر إلى فينيقيا، ولكنّ هذا لم يحرّك فيه ساكنًا، إذ لمّا كان آمون لم يرسل مالاً، لهذا لم تكن رغبة الإله تساوي عنده شيئًا. وقد حفظت لنا النقوش الكتابيّة سجلاً عن الاستقبال البارد والمعاملة الفظّة التي لقيها المبعوث المصريّ في قصر أمير جبيل، ويقول هذا المبعوث في تقريره: "قضيت تسعة عشر يومًا في ميناء جبيل، وكان الملك يرسل إليّ كلّ يوم قائلاً: إنصرف عنّي[1]". وهذا الإباء يختلف اختلافًا تامًّا عن الخنوع الذي كان يبديه أمراء مدن لبنان في رسائل تلّ العمارنة عند مخاطبتهم فراعنة مصر. وهكذا وجد مبعوث مصر نفسه أمام أمير جبيل "زكر بعل" ذليلاً يائسًا من القيام بمهمّته خائفًا على حياته من القتل. كان ينزل إلى الشاطئ ويجلس هناك لساعات نادبًا حظّه. ويبدو أنّ "أوراق اعتماده" لم تكن صالحة للمثول أمام أمير جبيل. ونعني بأوراق اعتماده هنا أنّه لم يكن لديه المال الكافي لدفع أثمان الأخشاب التي قدم لأجلها. وعندما حنّ قلب الأمير على المبعوث فاستقبله قال الأمير: أمّا أنا فلست لك ولست بخادم للذي بعث بك إلي. فإنّني إذا ناديت لبنان تتفتّح أبواب السماء وتتدحرج جذوع الأرز من أعالي هذا الشاطئ. فيجيب المبعوث "خادم أمون" مدافعًا عن إلهه: "البحر له، ولبنان، هذا البلد الذي تقول إنّه ملك لك هو له أيضًا". ولكن يظهر أنّ كلام المبعوث والدفاع عن إلهه لم يجديا نفعًا. فإنّ أمير جبيل يعترف بتفوّق مصر الثقافيّ ولكنّه يرفض بشدّة الاعتراف بسيطرة مصر على جبيل. وقد رفض أن ينزل عند طلب "خادم أمون" قبل أن يقبض ثمن الخشب من المال وخمس مئة طومار من الورق البردي. عندها أرسل أمير جبيل ٣٠٠ رجل و٣٠٠ ثور ليقطعوا جذوع الأرز وينقلوها إلى شاطئ البحر[1].

---

١ - BREASTED, VOL. IV, SEC. 569.

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص١٠٨.

في الصحراَء

الغربيَّـــــة

وفي واحات الصحراء الغربيّة كان يُعبد في الزمـن القديـم الإلـه "آش"، الـذي كـان يشبه "ست" عند المصريّين. وقد حلّ محلّه في مـا بعـد "سـت" و"سـوتخ". وفـي الدولـة الحديثة أصبح آمون الإله الرئيسيّ للمعابد في الواحات؛ وكذلك في العهد المتأخّر، الذي أخذ فيه آمون في مصر يتقهقر تدريجًا إلى الوراء، تمسّك الليبيّون في الواحات به في إخلاص. وفي القرن الخامس ازدهرت عبادته في الواحات بطريقة ملحوظة. وفي عهد ملوك الفرس بُدئ بإقامة معبد كبير في الخارجة، كما أنّ إقامة المعابد في الواحات الأخرى ترجع إلى العصر المتأخّر جدًّا. ولمّا لم يكن سكّان هذه الواحات من الثراء بحيث يستطيعون تشييد مثل هذه المباني بوسائلهم الخاصّة، لهذا يعتقد علماء أنّ المال اللازم ورد إليهم من مصر، وأنّه ليظنّ أنّ هذه المعابد في الصحراء كانت تُعتبر عند المصريّين مقدّسة حافلة بالأسرار بنوع خاصّ، وأنّها لهذا قد استفادت من الاعتقاد في التنبّؤ بالغيب في العصور المتأخّرة. وليس من شكّ في أنّ الأمر كان على هذه الحال في تلك الواحة التي تقع أبعد ما تكون عن مصر، وهي واحة جوبيتر ـ آمون التي تُسمّى الآن "سيوه". وكان لمهبط وحي آمون في سيوه بين الإغريق النازلين في برقة، والذين كانوا يعيشون على بعد سفر أيّام قليلة منه، جمهور عارف بفضله نشر شهرته في عالم البحر الأبيض المتوسّط. فكان الناس يقصدونه من آسية الصغرى، ومن بلاد الإغريق، وقرطاجة لاستشارته. وقد رفع من مجده كذلك مناسبة خاصّة حسنة، فإنّ الإسكندر عندما ذهب إلى مصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، راقه أن يشاهد هذا المكان، فقام بتلك الحملة في الصحراء التي كان لها على الإغريق أثر كبير. ولمّا حيّاه الكاهن الأعلى وفقًا للعادة المصريّة كأنّه ابن الإله، أعجب الملك أن يرى في هذه

التحيّة ما هو أكثر من مجرّد عبارة تقليديّة؛ فقد كانت العبارة عنده قرارًا من الإله يمنحه به السيادة على العالم. ومنذ ذلك الوقت أصبح مهبط وحي جوبيتر - آمون إحدى العجائب العظيمة في الزمن القديم، وغدا معبده ومصدر الشمس فيه من الأشياء الشهيرة التي تستحقّ المشاهدة. وإذا كان آمون قد طفق يصير بسرعة زيوس عند الإغريق، فلقد احتفظ الأهالي أنفسهم بالتقاليد المصريّة، فكان إلههم يشبه آمون المصريّ، وكان يخبر بالغيب بالطريقة التي كانت متّبعة في طيبة. وينتمي معبدا سيوه إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وقد شيّدهما الزعماء الوطنيّون، وكانوا على ما يبدو يعتبرون الملوك المصريّين في العصر الفارسيّ ملوكًا عليهم، وقد حلّي أقدم المعبدَين على نحو المعابد المصريّة، ولكن بطريقة سيّئة إلى حدّ كبير. ويشغل آمون وموت وخونسو باعتبارهم آلهة طيبة المكان الأوّل بين النقوش بطبيعة الحال، أمّا صور الآلهة الأخرى فيبدو أنّها أُضيفت دون نظام ثابت. ويرجع المعبد الأحدث عهدًا إلى عصر "نقطانب الثاني"، فلم يكن عمره على هذا يزيد على بضع عشرات من السنين عند زيارة الإسكندر. ولقد حُفظ لنا أيضًا قبر لأحد الكهنة هناك، هو قبر "الكاهن، كاتب كتاب الإله باتحوت"، الذي كان "عظيمًا في بلدته". وهو من عمل رديء أيضًا، غير أنّ نقوشه تتضمّن فصولاً من كتاب الموتى[1].

في أوروبّا

إنّ المقابر الإتروسكيّة التي تبدو بصور جدرانها "كأنّها تقليد للمقابر المصريّة"، تفيد بأنّه من الجائز أن تكون تلك الشعوب قد شكّلت مقابرها طبقًا لما جرت به العادة

١ - إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٦٣ - ٤٦٥.

في مصر، دون أن تعرف تفاصيل العقائد الجنازيّة للمصريّين. وتنطبق هذه الفرضيّة على بعض ما وُجد من أشياء ذات طابع مصريّ مدفنيّ في بعض بلدان البحر الأبيض المتوسّط، في شمالي أفريقية، أو في غربي آسية. ومن تلك الرموز "الرمز المصريّ للحياة"، أو الإله ذو رأس ابن آوى، أو الشمس المجنّحة، أو تيجان الآلهة، فما كان هناك ما يدعو إلى أكثر من الظنّ بأنّها رموز المصريّين الأتقياء، وأنّها أشياء من المحقّق أنّها قد تعجب الآلهة الخاصّة بالبلاد التي استعملتها.

لقيت عبادة إيزيس وأوزيريس في أنحاء الأمبراطوريّة الرومانيّة الواسعة جماعات يتحمّسون لها، وفي وقت كانت الديانة الوثنيّة المصريّة في أواخر عهودها. ذلك أنّ الملاّحين والتجّار ممّن أقاموا في موانئ البحر الأبيض المتوسّط أو في مدائنه الكبرى قد عُرفوا وآلهتهم منذ أمد بعيد. فقد كانت تتألّف منهم فيها جماعات مصريّة، كانت لأعيادها الحافلة بالأسرار أثر كبير في مَن كان ينزل معهم من الإغريق، إذ كانت تجتذبهم وتستميلهم إليها. وإنّا لنجد في القرن الرابع قبل الميلاد في بيري معبدًا لإيزيس، وإنْ يكن في حقيقة الأمر ذا طابع خاصّ. ولا يكاد الزمن يمضي يسيرًا، حتّى نجد الآلهة المصريّة كذلك في رودوس ولسبوس وثيرا وأزمير وفي أماكن أخرى؛ وفي جزيرة ديلوس المقدّسة كان سيرابيس وإيزيس يُعبدان على رأس غيرهما من الآلهة. وقد ساهم تأييد الملوك البطالمة وتشجيعهم مساهمة كبرى في هذا الانتشار للعقائد المصريّة. وكان لمَن يريد توكيد ولائه لملوك مصر الأقوياء، أن يقيم كذلك في بلده معبدًا لآلهتهم، وبذلك وجدت هذه الآلهة، لأسباب سياسيّة، طريقها إلى قبرص وصقليّة وأنطاكية وأثينة. ولمّا تقوّضت بعد ذلك قوّة البطالمة، كانت الآلهة المصريّة قد تأصّل غراسها في العالم الإغريقيّ بحيث لم تكن بحاجة إلى تأييد خارجيّ؛ وغدت إيزيس وسيرابيس من عداد الآلهة العظيمة، التي كان يُعترف بها في كلّ مكان. بل إنّنا

لنجد في القرن الثاني قبل المسيح في أرخومين وخبروني تلك العادة الغريبة، عادة نذر مَن كـان يُراد عتقهم من العبيد لإيزيس وسيرابيس، كأنّهما كانا الإلهَين العظيمَين الرئيسيَّين لهاتَين المدينتَين. وكثيرًا ما كانت الآلهة المصريّة تمتزج بالآلهة اليونانيّة، فهذه إيزيس قد غدت نميزس وديكايوسيني ونيكي وهيجيبا؛ وفي ديلوس غدت تُسمّى إيزيس ـ سوتيرا استارتي ـ أفروديت، وكان إيروس ـ حربوقراط ـ أبوللّو لها ولدًا. وشقّت الآلهة المصريّة فضلاً عن ذلك، طريقها إلى أبعد من ذلك غربًا، أي إلى إيطالية الجنوبيّة ثمّ روما، حيث نجد في عهد سلّا جماعة مصريّة. فلقد كانت الديانة المصريّة تقدّم لأتباعها عزاء أخيرًا في كافّة المصائب، وكانت تمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل، يقضونها في مملكة أوزيريس. وبذلك لم تكن عبادة الآلهة المصريّة عبادة سطحيّة ميتة، كما كانت عبادة الآلهة الرومانيّة، ولم تكن كذلك بديلاً اقتضته الظروف، كما كانت الفلسفة، إنّما كانت ديانة حقيقيّة، تملأ قلوب البشر وتسمو بهم، وكان كاهن إيزيس الفقير في قميصه من الكتّان يهيّء للنفس ما كانت تصبو إليه. وهكذا أقبل الناس في روما على العقيدة الجديدة في حماسة، حتّى إنّه ليبدو أنّها استولت على طوائف بأكملها من الشعب، كأنّها حركة دينيّة عامّة، وإلاّ لما تيسّر على الأقلّ فهم السبب الذي من أجله انتهى الأمر بالدولة إلى أن ترى في عبادة الآلهة المصريّة خطرًا عليها، فجعلت تدمّر، من وقت إلى آخر وباستمرار، معابد إيزيس، وقد قامت بذلك خمس مرّات في أحد عشر عامًا بين ٥٩ ـ ٤٨ قبل الميلاد. وأخيرًا حرّم أغسطس بناء شيء منها داخل المدينة بالذات، ولم يكن يسمح بإقامة معابد لإيزيس إلاّ في أرباضها. ولقد احتفظت الشعائر اليوميّة العاديّة في المعابد الأوروبيّة لإيزيس بالصيغ القديمة التي كانت لها في مصر. وكان نظام الكهنة كذلك كما في كان في مصر. وكان من بين الأعياد الكبيرة لإيزيس عيدان يتمتّعان بشهرة خاصّة: أحدهما

هو عيد نوفمبر، الذي كان يستمرّ ثلاثة أيّام، يمثّل في خلالها موت أوزيريس، والبحث عن جثّته ثمّ العثور عليها، والثاني عيد مارس الكبير، الذي كانت تفتتح فيه إيزيس ملاحة العام. ولم يكن في الأمبراطوريّة الرومانيّة الواسعة الأرجاء مقاطعة واحدة لم تمكن تُعبد فيها الآلهة المصريّة، حتّى استطاع ترتوليان أن يقول: "إنّ الأرض بأسرها تعقد الأيمان اليوم باسم سيرابيس". وإنّنا لنجد في أفريقية الشماليّة، وفي إسبانية، وفي بلاد الدانوب، وفي فرنسا، وحتّى في إنكلترا نفسها، نقوشًا تكرّم فيها إيزيس وسيرابيس. وكانت لإيزيس ربوعها أيضًا في مناطق جبال الألب وفي ألمانيا. وتقرّر أحد المصادر المسيحيّة في تقريع أنّ نونسبرج بوزن كانت كأنّها إسكندريّة ثانية ملأى "بأنوبيس ذي الشكلَين وبصور نصف إنسانيّة ذات أشكال متعدّدة... ملأى بحماقات إيزيس واختفاء سيرابيس؛ وكان في مارينهوزن في مقاطعة الرين مذبح لسيرابيس، أقامه ضابط رومانيّ؛ وقد وُجدت مرارًا في منطقة الرين تماثيل صغيرة من البرونز للآلهة المصريّة. على أنّ أعجب شاهد على ذلك هو ما حفظته كنيسة أورسولا في كولونيا، وهو تمثال صغير لإيزيس التي لا تُقهر، وقد استُخدم في العصر الوسيط في تاج أحد أساطينها. وقد كان قد كُشف في مكان غير بعيد من هذه الكنيسة، عن مقبرة لمصريّ، يُدعى "حورس بن بابك". وهنا يجدر التساؤل عمّا إذا كان هذا الرجل ذو الإسم المصريّ، الذي وجد سبيله من النيل إلى الرين، كاهنًا للإلهة المصريّة.

وهكذا سادت عقيدة إيزيس في كلّ مكان في أوروبّا، وقد كان سلطانها ينمو على الدوام حتّى نهاية القرن الثاني، عندما أخذت عقيدة أخرى، وهي عقيدة متراس الإله الفارسيّ، تردّها إلى الوراء بعض الشيء، على أنّها مع ذلك ظلّت قائمة طالما كانت تُعبد الآلهة الوثنيّة. وإنّنا لنجد في أثينة في منتصف القرن الرابع قبرًا لكاهن إيزيس، دُفنت معه بعض الأدوات من الفضّة التي كان يستخدمها في المعبد؛ وفي نفس العصر

نجد في الرين الأمير الألمانيّ مديرش، الذي تلقّن هذه "الأسرار الإغريقيّة" وهـو أسير في بلاد الغال، والذي أدّت به حماسته لسيرابيس إلى تسمية ابنه أجنارش بعد ذلك باسم سيرابيون. وفي المحاولات الأخيرة في إحياء الوثنيّة المحتضرة، كان للعقيدة المصريّـة دورها أيضًا؛ فكان جوليان يكرّم الالهـة المصريّـة؛ وفـي عـام ٣٩٢ عندمـا قـام أربـو جاست الفرنجيّ بتنصيب أويجين علـى العرش، وأتـاح للأرستقراطيّة الوثنيّـة نصـرًا قصير الأمد، لم تُنسَ كذلك عبادة إيزيس. وفـي عـام ٣٩٤ احتفل نيكومـاك فلافيـان بصفته قنصلاً بآخر الأعياد الرسميّة في روما، تمجيدًا لماغنا ماتر وإيزيـس. علـى أنّـه في هذه السنة نفسها انتصر تيودسيوس، وانتهى أمر الديانة الوثنيّة[1].

---

١ ـ إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٥٥٠ ـ ٥٥٣؛ ٥٦٥ ـ ٥٦٦، ٥٧٤ ـ ٥٧٦.

NOBILIS

بيروت